حرير صاخب

رجاء نعمة



رجاء نعمة

حَرِيرٌ صَاخِبٌ



رجاء نعمة

روائية وباحثة في التحليل النفسي للأدب.

من مؤلفاتها:

- طرف الخيط (رواية).
- الصورة في الحلم (مجموعة قصصية).
- كانت المدن ملونة (رواية).
- مريم النور (رواية).
- فراس وأحلام المدينة (رواية للفتيان) تحت الطبع.
- صراع المقهور مع السلطة: دراسة في التحليل النفسي للأدب.

لوحة الغلاف للفنان: أديب مكي

الطبعة الأولى ٢٠٠١

ISBN 1 85516 568 6

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

أصل الحكاية

لا احد يشبه أحداً وَلو كان هو نفسه

مهما يكن موقفه من كشف الأسرار، فليأذن لي القارئ أن أكافئ نفسي هذه المرّة، وأكشف عن أصل الحكاية التي أمضيت زمناً في كتابتها. هذه التي بدأت أحداثها عصر ذاك النهار. حين رنّ الجرس فقمتُ وفتحت. وإذا بالباب شابة أعَرفها: دالية. كانت زميلةً لي في فرنسا إبّان دراستي الطبّ قبل أن أتحوّل عنه بصورة نهائية إلى المسرح.

بعد غيبتي الطويلة عنها، أوّل شيء لفتني في هذه الشابة ذات العينين الساحرتين، ذاك التغيّر البيّن على وجهها. كنتُ أراها، طالبة عِلْم على درجة عالية من الرّصانة والاجتهاد يتجلّى تعبيرهما في نظراتها الحازمة. كما يتجلّى في النتائج الباهرة التي ظلّت، طيلة دراستها، تُدرج اسمها على لوائح الشرف في واحدة من أكبر كلّيات الطب في فرنسا! ربما لهذا كانت تقابلنا بوجه لا يخلو من كبرياء. لحظات نادرة، تلك التي، من عينيها البديعتين السوداوين، كان يفرّ بريق شيطاني. يفرّ إنّما ليرتدّ عاجلاً خلف أسوار الجدّية!

عجباً فها هي في الباب إنسانة أخرى!

لا ريب في أن رياح التغيير قد عصفت بحياتها لتطالعني بهذا التعبير الغريب الذي يصعب وصفه!

وانتشلتني دالية من ترّهات أفكاري باعتذارها عن المجيء إليّ بلا موعد، فدعوتها للدخول.

لم تدعني، في جلستنا الطويلة تلك، أتمادى في استذكار الفترة التي قضيناها معاً في فرنسا. ولا بالاطمئنان إلى مجرى حياتها المهنيّة كما صارت إليها بعد أن باعدت بيننا الأيّام.. بل اكتفت بالسؤال عن أحوالي سؤالاً عابراً، لتنتهز أوّل فرصة وتقول إنّ لديها أمراً هاماً.. بالأحرى مشورة تتعلّق بحكاية جرت لها.. تريد أن تخبرني إيّاها إن كنت على استعداد للإصغاء. إذ تعهدني متفهمة واسعة الصدر..

أحرجني إطراؤها وسارعتُ إلى الترحيب بالإصغاء إلى ما تريد قوله. إذاك راحت تقصّ عليّ وقائع حادثة مثيرة جرت لها ذات مساء في ساحة البلدة..

ولا أخفي عليكم أن الحادثة، منذ الوهلة الأولى، وَجدت هوىً في نفسي، حتى تمنيتُ لو كانت روايةً من الخيال وكنتُ أنا كاتبتها!

ولـمّا، بعد ذلك، دَعتني دالية إلى بيتها ولبيتُ الدعوة، لم أكن بريئة من الفضول: أن أقف على خبايا هذه الفتاة الجامحة وعلى فصول حياتها المثيرة! ولـم يَخِب ظني. فصارت دالية تأتيني وأنا صرتُ أذهب إليها. وتوالت بيننا الزيارات وَإيقاع حكايتها يتسارع وتتأجّج تأجُّج رغبتي في الكتابة عنها.. إذ تأكّد لي أنّ البطلة اختارتني لأكون الشاهدة والرّاوية، وَإلاّ لما جرّت قدمي، هي العليمة بشغفي وَيَقيني أن لا أبلغَ من الدّراما في تحويل الأفكار إلى مشاهد.. لا أبلغ منها في إيصال الرّسائل.

هكذا وُلدت روايتي الأولى.

وُلِدتْ. لكنّ أَوان اكتمالها لم يأتِ بعد..

فالبطلة، كانت تبدو لي، آنذاك، أشبه بفراشة تغزل شرنقتها. وأنا تسنّى لي أن ألقاها في بدء موسم الغزل وخيوط الشرنقة حولها تدور. ومع كلّ دورة تَفرد شباكها وتوسع نسيجها وتُشرّع نوافذها على عالمها الفتّان. أو تُفاجئني بجديد.. مثلما حدث، في إحدى زياراتي حين هبطت علينا

الصبية تلك ذات الجمال الباهر، الذي قلّما صادفك مثيله في حياتك. أو قلّما نجا من النكبات.

وقالت دالية:

ـ أختي ريما.

منذ إطلالتها، بدت لي هذه الشابة الصغيرة أشبه بكائن فانتازي ساحر. يزيدها سحراً وفانتازيّة رقصها الخلاّب الذي شاهدتُه مراراً بعد ذلك على المسرح، والذي كم خشيتُ أن يعجز قلمي عن وصفه..

لا أبغي استباق الأحداث، كي لا أفسد على القارئ متعته. جلّ ما يمكنني الإشارة أنّ روايتي بعد ذلك بدأت تتعثّر. وفضولي الذي أثارتْه دالية ما لبث أن ارتدّ عليّ. فالفضول إذ يثري المعرفة إنما ليزيد الأمور تعقيداً. حين شرعتُ بكتابة هذه الرواية، خُيِّل لي، لسذاجتي، أني سأكملها في غضون أشهر تُحسب على الأصابع.. إذ لم تكن في خَلَدي سوى حكايةٍ من سجل الواقع، وكاتبتها غير مطالبةٍ بأكثر من التدوين. لكن الشهور امتدت سنيناً، ومسار الرواية يتعقّد بتعقّد الأمور في حياة دالية وأختها ريما، العاصفة برياح الحب والحروب وملابسات التغيير.. وتتعقّد بتوالي الأحداث وتزاحم الشخصيات وتعنّتها. كلّها تسعى للسيطرة على قلمي. كلّها تزعم الجدارة في أن تكون في قلب الحدث. وبها البداية أو الغاية والنهاية.

أنهكني التكرار والتشطيب.

وكدّتني المراوحة بين دوافع الكاتبة ونوازع البطلة، حتى آثرت بعد ذلك أن أنجو بنفسي.. أبتعد عن دالية، وأقيم الحدّ بيني وبين عالمها الصاخب المجنون، فأضرب بعرض الحائط المشروع كلّه وأرمي المخطوط في المهملات، ظنّاً مني أني هكذا أجد الراحة!

غير أني لم أجدها.

ففصول الرواية، التي راحت إلى المهملات، ظلّت تنمو في داخلي. سنيناً طوالاً انشغلتُ بغيرها من القصص، إنّما لتبقى هذه في الظلّ.

روايتي الأولى.

تعايش الأحداث وتتغذّى بها كما تتغذّى بشغفي.

كيف أنسى بطلة فتحت لي النافذة على بهجة العالم الرّوائي؟

كيف أنسى مَن اندفعت وتهوّرت حتى ألغت الحدود بين ضفاف الخطر وضفة الأمان؟

أو أنسى صَحبها هؤلاء.. رجالاً ونساء، تطرّفوا في المشاعر والمواقف والأفكار حتى واجهوا الموت قَتَلةً أو مقتولين؟

نعم، ما كان بوسعي أن أنسى. كما بات من الصعب عليّ أن أنسحب. هكذا، بَقِيَتْ روايتي أمداً طويلاً في حالة إرجاء. تعاند قلمي وأوراقي، إنّما لتبقى حيّةً في خيالي تلازمني ملازمة الكائن ظلّه.

وذاك المساء.. وكنت في سهرة مع بعض الأصدقاء نتجاذب أطراف الحديث، حول شروعنا في وداع هذا القرن العملاق المليء بالحروب والاكتشافات والتحوّلات الجسيمة.. لا أدري لِمَ الحديث جعل مشروع الرواية يقفز ثانية إلى خاطري ويلحّ عليّ بالخروج. وأنا وجدتُ نفسي أمتثل لإلحاحه.. كأنما العصر ائتمنني على فصل من فصوله وغدوتُ أنا مطالبةً بتسليم الأمانة. هكذا خرجتُ من السهرة وقرار العودة إلى البيت الذي عرفته، بيت دالية، قد حُسم في خاطري. هكذا رحتُ إليها بعد طول انقطاع.. إنّما لاكتشف أن البيت ما عاد له وجود. بل وأنّ المكان بأسره قد تغيّر!

وبدأت أسأل هنا وهناك عمّن يمكنني السؤال عنه.. دالية وأختها. أو أيٍّ من صحبهما..

غير أنّي لم أهتدِ إلى أحد.

قيل بدلّوا أماكن سكنهم.

وقيل سلكوا الطريق العكسيّ. الناس، بعد الحرب رجعوا. وهم رحلوا ولم يتركوا عناوين تنبئ بوجهة سفرهم.

بل وقِيل أكثر من ذلك: المدينة، بعدما آلت إلى ما آلت إليه، في تلك الحرب الضروس، إشاراتها المعروفة برمّتها أصابها التغيير.

هكذا عدت ذاك المساء إلى بيتي يائسة خائبة. استلقيتُ على كرسيّي الهزّاز في شرفة نومي، أعالج اضطراب أفكاري وعبثية المصير الذي آلت إليه شخصيات روايتي. ولعلّ الإغفاءة أخذتني قليلاً ليتراءى لي على جناحها الأبيض الخفيف طيف دالية. هبّبت من عن كرسيّي وهتفت باسمها:

ـ دالية!

أومأت دالية برأسها علامة الإيجاب.

هي نفسها قلت، لولا ذاك التغيّر الكلّي البديع، الذي طرأ عليها! هذا الذي يتمنّى أيّ من بني البشر أن يصيبه. فيبقى هو هو إنّما ليبلغ فيه صورته المشتهاة. وخطر لي أن أستفسرها عن تغيّرها. لكن لا أدري لـمَ سبقني لساني للسؤال عن أمر آخر.. عن أسامة خطيبها. ماذا حلّ به بعد تلك الحادثة ودخوله السجن!

ولدهشتي أجابتني دالية ذاك الجواب المحيّر:

ـ ليس أسامة مَن دخل السجن. ولا الذي خرج منه كان هو.. ما عدنا نحن نحن ولا نشبه أنفسنا. لا أحد يشبه أحداً ولو كان هو نفسه!

المفاجأة والكلام الغريب وطابع دالية الطيفي الفاتن فعلا فعلاً عظيماً في نفسي. تقدّمت منها لأمسك بيدها إمساك تائه بيقين مفقود.. غير أنّي ما كدتُ أفعل إلاّ ليبدأ طيفها بالتراجع. كلّما تقدّمتُ خطوة ابتعدتْ هي خطوة. كأنّا تراءينا لبعض من على كوكبين متجاورين. نلتقي بلا لقاء ونتخاطب بلا شهود. وأسألها بلا سؤال أن تفسر لي مغزى ما يحدث. وفيما تنظر إليّ تلك النظرة التي سيلزمني زمن طويل لنسيانها قالت:

ـ كان لا بدّ من الرّحيل..

ـ فعلاً أكان لا بد؟

ـ نعم بالفعل.

ـ وإلى أين ترحلين..؟

ـ في الرّحلة التي يشتهي أيّ ساع أن يمضيّ فيها.. هناك في أرض الممكن، حيث الدّروب كلّها متاحة والفرص مباحة وفيها نقابل من شئنا ومن يشاء..

قالت هذا فيما المسافة التي تفصلني عنها آخذة بالاتساع. وطيفها يمعن في الابتعاد ليتوارى تماماً عن ناظريّ، وأدرك أنّها قد مضت وتركتني وحدي أعالج حيرتي على كرسيّ الهزّاز..

ولم يمضِ بعد ذاك وقت طويل، حتى وجدتني أنهض إلى قلمي والأوراق. أسترجع فصول الرواية. عازمةً هذه المرّة على إنجازها. عازمةً حازمة. لا أضلّل نفسي بالتساؤلات. لتمييز الواقع من المتخيّل.

ولا الأصل من صورته.

أو لتمييز الكاتبة من البطلة..

بل أنقاد إلى سجيّتي فأسلم الشأن لأصحاب الشأن. أدع هؤلاء جميعاً يقودون خطاهم وخطى قلمي. يصيغون كلاماً يشبههم ويشبهني.

لا أسأل نفسي من أين أبدأ؟

من حيث بدأتْ هي بالطبع.. من حادثة الساحة. الحادثة التي قصّتها عليّ دالية في زيارتها الأولى. فكلّ الأحداث الأخرى.. كلّ الشخصيات توالت بعدها بيسر. كلّها خرجت منها خروج القصص الروسي من رداء غوغول.

١

بسبب الأشجار تتعذر علينا رؤية الغابة

وقعتْ تلك الحادثة ذاك المساء في البلدة، حين خرجت دالية من بيت جدّتها قاصدة المكان الذي سيقام فيه الاحتفال السنوي. ورغم الظلمة كانت تشعر بنفسها قويّة عامرة بالثقة. وراحت تتسكّع في الدروب القديمة. وعن بعد لاحت لها الساحة خالية ومظلمة ففطنت إلى أنها تأخرت وأن الناس على الأرجح قد سبقوها.

ورغم هذا تابعت سيرها متمهّلةً مستمتعةً بالطقس الخريفي، حتى لما صارت على مقربة من الساحة، لاحَ لها في الطرف الآخر منها، طيف الرجل الذي سيكون له شأن عظيم في حياتها: نحيل طويل ورهيف الخطى. وَلمعت عيناه في الظلمة فاضطربت وتسارعت ضربات قلبها وتساءلت إن كانت منفعلة، إذ لا يُعقل أن تكون منفعلة! وعلى الأرجح أن ظهور رجل غريب، على غير توقع منها، في الساحة الغارقة في الصمت واللّيل، قد أربكها. نظرات واسعة وباحثة تبرق في العتمة، فيما بدا طيفه مقبلاً نحوها!

كانت تحاذي سيّارة متوقفة في الركن فوجدت نفسها تلتصق بها. وفجأة سطع ضوء القمر ليضيء وجه الرجل وتبين لها ملامحه. وأدركت أنها لا تزال متسمّرة في مكانها. لكن ما عاد في وسعها أن تتابع السير، كما كان من الصعب عليها أن تتراجع والطيف ماضٍ إليها. وحين مرّ بمحاذاتها خيّل إليها أنه وشوشها كلاماً لم تتبيّنه. وإن كانت على يقين من

أنها قد أمسكت بالمغزى. وعبَر الساحة فعبرتها هي في الاتجاه المعاكس. والتفتت، لترى أنه هو أيضاً قد التفت ليقع النظر في النظر. لكن الرجل تابع سيره ليتوارى في طيّات الظلام.

وراودها خاطر: أن تدور على عقبيها وتلحق به.

لكن إلى أين؟

لعله مثلها جاء إلى البلدة لحضور المهرجان ولن يلبث أن يذهب إلى الملعب.

غير أنه لم يذهب.

وأثناء الاحتفال، بحثت طويلاً في وجوه الحاضرين، عن الوجه الذي تراءى لها خطفاً منذ قليل. وساورها القلق أن تكون فقدت أثره بصورة نهائية. وحاولت أن تروّح عن نفسها بالتسامر مع بعض الحاضرين.. لكنها كانت منشغلة بما حدث: لقاؤها الرجل في الساحة. وعينان تبرقان في الظلمة وهمس كلام يدعوها لشيء وصار من الصعب عليها الاستمتاع بالسهرة!

وفي اليوم التالي، قصدت الساحة وسارت في الشوارع التي تتفرّع منها. وكذا فعلت في الأيام المتبقية لها في البلدة.. لكن بلا جدوى. هكذا عادت إلى بيروت والتساؤلات تملأ رأسها.

ولم يمضِ وقت طويل حتى، ولعجبها، طالعها الوجه ذاته في إحدى المجلات:

فنان تشكيلي ومحدّثته تسأله وهو يشرح لها وجهة نظره حول ما يُسمى باللحظة الفنية: اللحظة الفنية.. هي التي، على غير توقّع منك، تصطدم فيها العناصر وتتفاعل لتومض في خيالك مشهد اللوحة.

وإيضاحاً لفكرته حكى لمحدّثته حادثةً جرت له فقال:

ـ كنتُ أعبر الساحة والظلمة على أشدّها والمكان خالٍ تماماً.

وفي الطرف الآخر منها لاحت لي عينان ساحرتان وطيفٌ قادم نحوي. لم أميّزه إنما النظرة أخذتني كالمغناطيس. ثم تبيّن لي أن الطيف طيف فتاة. رحت أحدّق في العتمة منجذباً لرؤية الوجه والتقاسيم. لكن العتمة صدّتني كالجدار. وفجأة طلع القمر من خلف غيمة ليضيء وجه الفتاة بصورة خاطفة وكاشفة قبل أن يتوارى من جديد! وعلى التوّ أشرقتْ الصورة في خيالي: يا لها من فتاة! ماذا أقول! غجرية تائهة وعينان سوداوان واسعتان ونظرة مستحوِذة. والقمر كأنما طلع خصيصاً ليؤكد المشهد!

وأدركتُ أني سأمضي زمناً أستعيد فيه الوجه وتلك النظرة! هكذا اللحظة الفنية، تفتح لك نافذة الرؤية، لتشرق في خيالك اللوحة. تتشكل تشكيلها الأول. الأصل. ما يفعله الفنان بعد ذلك.. ما ينقله على القماش أو الورق.. كلها إجراءات لتجسيد الأصل. واللوحات التي أحضّرها الآن للمعرض المقبل هي من وحي اللحظة تلكَ!

قرأتْ دالية المقابلة. وبين مصدّقة وغير مصدّقة، راحت تشاهد الرسوم التي تؤكد على أنها هي الأصل: الوجه والعينان والفستان الأبيض المكشوف عند الصدر، المزيّن بالدانتيل وكفّها الممدودة إليه تغطي الجزء المكشوف.. وهي متسمّرة بمحاذاة السيارة ومفضوحة بانفعالاتها. متسمّرة ومفضوحة بما أسماه هو بالنظرة الملتبسة ذات المغزى الشيطاني.

ماذا يعني بالنسبة لرجل أن تكون نظرة المرأة، التي وقع في هواها، ملتبسةً وذات مغزى شيطاني؟

وخطر لها أن تخبر اختها ريما بما حدث. وأن تُريها المجلّة والرّسوم. غير أنها، وريما مستغرقة في عزفها على النّاي، تردّدت ثـمّ عبرت عن الفكرة. فيما يخالجها ذاك الاحساس بأنّ تحوّلاً عظيماً يجري لها الآن.. فالحب الجامح الذي يتحدثون به.. ما كان يثير لديها الاستغراب.. ما كانت

تخاله وقفاً على نمط خاص من الفتيات، جميلات فاتنات وخاليات البال. . أمثال اختها ريما، قد أصابها هي أيضاً! لتغدو بين ليلة وضحاها، ملهمة فنان مشهور سيعرض صورها في بيروت كما في روما. وينشر حكايته معها على الملأ: منذ تراءى له طيفها في الساحة وهو منشغل بها. ومغزىً حلّ فيه. . وهو الآن في حالة انكفاء. يتأمل ليس فقط مغزى النظرة مجرّداً، وإنما ذاته الداخلية التي أضحى المغزى جزءاً منها.

كان يمكنها أن تولد وتموت فلا تسمع بهذا الفنان. وإذا باللقاء يتمّ في ظلمة الساحة ليلة العيد. لقاء مثل هذا من تدبير الآلهة. ففي تلك الفترة كان من المحتم عليها أن تكون في باريس لتقدّم أطروحة تخرّجها. ثمَّ انقضّت عليها الوساوس: أن لا تأتي النتائج باهرة كالعادة. ما أفظع أن تخذلك النتائج في اللحظة الأخيرة!

هكذا اتصلت بأستاذها وطلبت التأجيل. .

وَدعتها جدتها إليها وشجعتها على حضور المهرجان. وهي ورغم انشغالها بدراستها لبّت الدّعوة. .

وساعة الاحتفال كان عليها أن تُبكر في الذهاب إلى المكان، غير أنها نسيت نفسها وهي تتسامر مع الزائرات. .

ثم خرجت. وقادتها قدماها إلى الدروب القديمة وإلى الساحة.

ما الذي دعاها ذاك المساء وفي تلك الظلمة، إلى التسكع وحدها في الطرقات والمرور في ساحة لم تمرّ بها منذ سنوات؟

أليس كلّ هذا التدبير لتلتقي بمن سيقودها إلى منعطف حياتها الجديد؟ من سيوقظ فيها المشاعر؟

أين كانت قبلاً من هذه المشاعر وكيف أمضت سنوات دراستها في فرنسا؟

وحيدة وحرّة.

همّها ومحور حياتها الدراسة. أن تحقّق مجداً ينتظرها في عالم الواقع. كانت منذ مطلع شبابها قد بلورت تصوّراً خاصاً لمجد ستبنيه في عالم الواقع. مجدٍ حال بينها وبين رؤية أشياء..

عجباً كيف أنك لا ترى ولا تسمع قبل الأوان!

كم يحدث لك أن تُستفَز..كم يحدث أن يُشار لك بأن هذا هو الدرب! لا فائدة. فزمنك الخاص هو زمنك الملائم. ودربك المرسوم، لا يُفتح لك إلاّ في حينه.

كانت قد قرأت شيئاً يتحدث بالإيقاع الذاتي المراوغ للزمن..

آنذاك، ورغم ثقافتها لم تدرك تماماً قصد الكاتب. في حينه كانت مزهوّة بنفسها تمسك بزمامها إمساكها بمقاليد حياةٍ هندستها ورتّبت مراحلها. لا شيء في خلدها يجب أن يُخلّ بشيء. مثلما يوم أحبّها شاب من غير دينها، وهي مالت إليه. وألحّ عليها بأن يتزوّجا. قال نغدو مَثلاً يُحتذى به بين الباحثين عن إلغاء الفوارق. ورفضت. لا..ليس هي من يرمي في البئر التي شربت منها حجراً لتفعل هذا! تغدر بأبيها! تخذله أمام الناس وأمام عمها نورالدين. أوّل المحذّرين بأن يُسمح لها بالسفر لدراسة الطب. أو يُسمح لأختها ريما بدراسة الفن: دربان لو سارت فيهما فتاة لتعذّر عليك بعدئذ ضبط خطاها.

ورغم تعلّقها بالشاب قطعت علاقتها به.

ثمّ، ولفترة طويلة بعد ذلك أدارت ظهرها للمشاعر. ووضعت على صدرها درعاً من الصلب لتوظف كامل طاقتها في خدمة طموحها. تبرّر هذا بفلسفتها الخاصة حول الرّغبات. هذه التي لا بدّ وأن تُحكم بالتأجيل. نعم..إذا ما كانت لك أهداف، فلا بد لرغباتك من أن تخلي لها الطريق..

وإذ تسأل نفسها عن الأنثى في طويّتها، يلوح لها في الأفق البعيد طيف رجلٍ سبقها إلى بناء مجده. زوج تذهب إليه بتولاً. تنجب منه الأولاد وتخلص له مدى الحياة، كما يجدر بأي فتاة شرقية أن تفعل. بل وكما يجدر بأي فتاة في العالم. وزملاء لها في الجامعة يسخّفون العذرية بالقول: أسطورة بائدة تبرّر اعتقال المرأة. لا. ليست العذرية اعتقالاً، بل حرية بليغة ممهورة بالتأجيل. نعم، فالحب الأصيل يستأهل التأجيل. وهؤلاء الفوضويون يستسهلون تدمير الأعراف. نسيج آلاف السنين من الحكمة والتجارب يدمّرونها. متباهين بتحويل الشواذ إلى واقع. بمعاشرة رجل للأخت واختها، ومعاشرة المرأة للصديق وصديقه! والأجناس لمثل بعضها البعض! آلاف السنين من النسيج الدؤوب يهتكونها، إذ قرأوا كتباً عن الثورات تألّقت في قارات تبعد آلاف الأميال عن أوطانهم. .أو شهدوا الغوغاء الذي شهدته هي في باريس عام ٦٨، يوم حوّل المتمرّدون ساحات المدينة إلى ملاعب وغى. يوم حطّموا وأحرقوا وكادوا يدوسونها بالأرجل وكادت تحدث لها تلك الحادثة المقيتة مع الخلاسي..

كانت في العام الأوّل لتخصصها وغادرت المدينة الصغيرة التي تدرس فيها، إلى باريس. .لاستقبال ذويها في أوّل زيارة منهم لها. وغادرت الفندق الذي نزلت فيه في الحيّ اللاتيني، غير متنبّهة إلى أن المدينة تجلس على قمقم.

سارت ووجهتها بولفار سان ميشال. شوارع المدينة كانت، لغرابة الأمر، في تلك الساعة شبه خالية. لكن القمقم ما لبث أن تحرّك. ورأت الأبوابَ العملاقة تُدفع وتُخلع، وأعداداً هائلة من الشبان، من جميع الجنسيات والألوان، يندفعون من مبنى الجامعة ومن مداخل العمارات. وفي غمضة عين وجدت نفسها وسط الجموع، وسط أبواق الزمامير وسيارات البوليس تقتحم وتضرب الأطواق، ورجالها المدجّجون بالسلاح والخوَذ ينتشرون على أسوار البنايات وفي المداخل. وجماهير الطلاب المهاجمة

تقترب وتحكم الحصار. وحاولت أن تركض. . الجموع تعيق حركتها. وكعب حذائها العالي. وأفلتت فردة منه فتلقفها أحد المتظاهرين ورشق بها البوليس. إذّاك نزعت هي الفردة الثانية لتفرّ من المأزق حافية القدمين، خائفة أن تقع وتدوسها الأرجل. وبدأت تقاوم، وظلّت فترة محاصرة إلى أن تمكّنت بعد جهد من أن تنسلّ من بين البشر المتراصين وتركض لتجد نفسها أمام باب عمارة فتدخل.

لا تدري كم من طابقٍ صعدت ولا كم من باب ضربت ليفتح لها أحدهم، تستفسر منه عما يجري أو تسأله الملاذ. .لكن لا أحد أجابها ولا سمعت نأمة خلف الأبواب.

أخيراً فتح لها الباب رجل. وتردّدت هي في الدخول خشية أن توقع نفسها في خطر أشد من ذاك المتربص بها تحت. وحسم الرّجل تردّدها حين دعاها للدخول. إذاك أخبرته أنها تبغي سماع نشرة الأخبار لتقرّر على ضوئها كيف تتصرّف.

ودخلت واستأذنت الرجل في الجلوس. وسألته عما يجري فهزّ كتفه. وسألته إن كان قد سمع شيئاً من الإذاعة فتجاهل السؤال.

توجست من طريقة تعامله. ورأته يدخل المطبخ فتوجست أكثر. ولما عاد بالقهوة اطمأنّت قليلاً وشكرته وتردّدت في أن تشاركه لكنها عادت وأخذت الفنجان وفي نيّتها أن تتناوله وتنصرف. فصمته، في تلك الساعة، بدا لها ثقيلاً. ونظراته وهو يتفحصها لا تقلّ ثقلاً عن وطأة الصمت.

أخيراً تكلّم الرّجل وقال:

ـ يا لهؤلاء المتمردين الشجعان. .كان بودي أن أكون معهم، لولا أن البوليس القذر يتربص بي ليزجّني في السجن بغية ترحيلي. من أيّ بلد أنت يا آنسة؟

ـ من لبنان

ـ آه.. هناك حيث النساء سافرات متحرّرات ويمكنهنّ السفر إلى باريس، ولسنَ كالحريم السجين لدى جيرانكم العرب..

ضايقها التعليق وخطر لها أن تردّ عليه أو تشرح له أشياء لكنها سكتت. ورأته يقوم إلى الراديو الموضوع على الرفّ فوق رأسها ويتظاهر بتشغيله متنقلاً بين المحطّات، فيما هو يسألها عن اسمها وهي تجيب:

ـ دالية

ـ دالية! اسم جميل اللفظ.. وهل له في لغتكم معنى؟

شرحت له أن الاسم يعني في اللغة العربية شجرة الكرمة التي تحمل العنب. فقهقه وهتف:

ـ يا لبلاغة اللغة.. دمكِ إذن عصارة النبيذ.. شراب الملوك والكهنة والكلوشارات!

وازداد ضيقها للتعليق فيما نظراته تؤكد مخاوفها. وفكرت أن تغادر في الحال رغم الجلبة الآتية من تحت، ورغم أصوات ارتطام الزجاج والحديد ورائحة الكاوتشوك المحروق. وسمعته يقول وهو مستمرّ في تحريك إبرة الراديو:

ـ آن الأوان لكي يحدث هذا.. آن لهذه العفونة أن تُكنس!

وخيّل لها أنه يقترب منها فيما هو يسألها عن عملها: «في هذه الدنيا البائسة، ماذا تفعل الصغيرة في باريس؟»

وهي أجابت بحزم:

ـ دارسة طب.

ـ آه.. لذا فأنت جداً محافظة؟

وتظاهرت بأنها لم تسمع التعليق وغيرّت مجرى الحديث بسؤالها:

ـ متى تظن أن المظاهرة ستنتهي؟

ـ مظاهرة؟ هذه ليست مظاهرة يا آنسة. هذه ثورة. اليوم بدأت ولن تنتهي قبل أن..

ـ ثورة؟

ـ نعم ثورة ستغيّر وجه التاريخ مثلما غيّرته من قبل كومونة باريس. أم أنك لم تسمعي بكومونة باريس؟ غير مهم. ستشهدين مثيلتها اليوم، لتري كيف سيخلع هؤلاء المحافظون، ليس فقط نِعالهم، بل ثيابهم. يخلعونها ليستسلموا لأصالة العري. نعم هذه يا آنسة أحداث تنذر بزمن آخر.. قانونه الفوضى. أم أن البورجوازيين أمثالك لا يحبّون هذا.. لا يحبّون..

يكرّر جملته وهو يمد يده إلى شعرها ونظره مثبت في صدرها.

دفعت يده وهبّت واقفة واندفعت نحو الباب لتجد أنه سبقها إليه وأسنده بظهره. طلبت منه أن يتركها تذهب لكنه شدّها بعنف إليه حتى صارت بين ذراعيه وفمها في فمه.

وقررت أن تقاوم وركلته فلم يأبه. ابتعد عنها قليلاً ليعود إليها ويقبّلها وهو يتمتم:

ـ محافظة قذرة.

ودفعته قائلة:

ـ خلاسي نتن..

استجمعت قواها وركلته تلك الركلة العنيفة بين فخذيه فابتعد. إذّاك فتحت الباب ولاذت بالهرب.

قدمها كادت أكثر من مرة تزلّ وهي تهرول على السلّم الخشبي اللّولبي الملمّع بالشمع. كلما التفّ السلّم نزولاً التوَت قدمها وتمسّكت بالدرابزين.

لم يغتصبها لكن ذكرى الحادثة صارت بغيضة على نفسها كأنه فَعَل.
وتحوّلت بهجة لقائها الأول مع أهلها في باريس إلى غصة.

وكرهت حركة ٦٨.

يلزم كلّ أمة رجل عظيم مثل ديغول ليسكت الشعب!

ويلزم كل امرأة حب مثل حبّها الفنان الآن، ليطهّر النّفس من ذكرى بغيضة حدثت لها وهي في الثامنة عشرة من العمر في الحيّ اللاتيني في باريس.

نعم كان يلزمها مثل هذا الحب.

ليعيد البهجة إلى الرّوح. ويغسل شوائب الخيبات: خطوبة، رجحت كفتها في ميزان العقل، دامت حوالي سنة قبل أن يمضي الخطيب في سبيله.

كان يلزمها مثيله كي لا تغادر هذا العالم بلا التجربة العظيمة تلك، التي بدونها لا تكون المرأة امرأة ولا الرجل رجلاً.

مثيله، ليكون لها فارس مشتهى. فنّان متألق في المشاعر والفنّ ألَقه في التعبير الكلامي. هذا الذي نزع عن صدرها درع حديدٍ ليلبسها رداء حرير. وتغدو، على غير توقّع منها، ملهمة فنان مشهور! ما ينقلها من حيّز الخاص المغمور، إلى ما يُنشر على الملأ! والحكاية برمّتها تصبح من شأن الآخرين. مثل حكاية إلسا وعيون إلسا. كان يمكن لإلسا أن تعبر هذا العالم بخفّة وتواضع ملايين النساء غيرها فلا يتنبه لسحر عينيها أحد. إنما كان يلزمها آراغون العظيم ليكتشف الجانب الآخر منها، ذاك الغامض الفاتن، يُفتَن به وَيفتن به العالم.

كان يلزمها مثيله لتكتشف أعظم المشاعر: الحب.

حتى وإن أتى متأخراً وهي على مشارف الثلاثين.

من قال إن العشق وقف على المراهقين؟

كل أحد في الحب مراهق وكل عاشق مجنون. ويفلت الأمر من يدك كما يفلت من أيدي سائر البشر ليدخلك عجلة القدر. وقدرها أن تلتقي أخيراً به لتلتقي بأعماق ذاتها، ولتنهار القلاع المصطنعة. تلك التي تفصل الأنوثة عن العلم والرومانسية عن الجموح والمرأة عن الرجل. وتسقط الترّهات من المقولات: «هذه إلهة حب وذاك إله حرب.» تسقط كلّها تحت وطأة الطبيعة العادلة، لتحيا هي أنوثتها في صمت وصخب. وتنطلق الأحلام وتفلت الهوّامات ويتغيّر طعم الحياة. مشاعر وأحاسيس خلاّبة تخطف النعاس من الأجفان. فتنهض من فِراشها كلّ ليل، وتروح إلى موسيقاها. تصغي إلى أغانٍ تتحدث بالبعد والشوق والرّجع والرّجوع. وبنوم يعزّ على العاشقين. لا بأس.. فمن أصابه الهوى عليه تحمل السهاد. لا بأس.. فسهرها ليس أرقاً بل صحواً خفيف الملمس. وإذ تنام، لا تنام على فراش بل على أرجوحة من ماء في خدر لذيذ.

فاتن هذا الليل اللانهائي!

خلاّب ذاك السكون.

بديع هذا الانسحاب.

نعم، كلّ أحد في الحبّ مراهق وكلّ عاشق مستلَب وكلّ عشق يفقدك على نفسك الأمر وَالنّهي. ليس حباً لا تضطرب له حياتك كما اضطربت لهذا حياتها، لتتراجع عن قرارها السابق وتتصل بأستاذها وتطلب منه ثانية التأجيل. فهَمُّها الآن أن تبحث عن رجلٍ تعرفه ويعرفها بلا معرفة. لا، بل يعرف كلاهما الآخر من تلك المعرفة السابقة على اللقاءات.

وراحت تسأل عنه وتبحث..

فنان سيعرض في بيروت ثم في روما. لتكتشف في بحثها أنّه من مشاهير العاصمة.

عجباً!

وَتقع على أكثر من مقابلة معه في الصحف. وتسمعه يتحدث في الإذاعة. وتتعرّف بالصوت الذي همس لها في الساحة. .حتى باتت تتوقع، كلّما فتحت صحيفة أو إذاعة، أن تطالعها صورة له أو صوت.

وتتوقّع أينما تذهب أن تلقاه.

لكنّها لم تلقه.

وصار شغلها الشاغل زيارة المعارض وحضور ندوات الفن.

وبدأت تتردّد على المقاهي، المكشوفة منها، المشرّعة على البحر أو المستترة في الأقبية والزوايا، تلك التي يخطر للفنانين وحدهم، ذوي الأمزجة الخاصة، فكرة ارتيادها.

وفي الليل، تخلد إلى نفسها. تصغي إلى الأغاني والموسيقى وإلى عزف اختها ريما. وغالباً ما صارت تتساءل عن ريما.

من هي ريما؟

أين هي من الحب والمشاعر؟ أتراها مولهة بالسر؟ أم أنها ليست إلاّ طفلة خالية البال؟

إن كانت كذلك فكيف تعزف هذا العزف الذي يمسك بنياط القلب؟

ويخطر لها أن تسألها أشياء أو تحدثها بأشياء. غير أنّها، ما تكاد تحاذي الموضوع حتى تتراجع. وتنتظر خروجها من الغرفة لتقوم إلى ألبومها تتأمل الصّوَر، وتعيد قراءة المقابلات لتكتشف في كلّ مرّة بين السطور معاني جديدة. .

أو تأخذ كتاباً وتقرأ.

قرأتْ كثيراً في الفن والشعر والأدب.

لكثرة ما قرأت. .لكثرة ما استعادت كلام الفنان. .ما عادت تميّز ما

قاله عما أضحى صدىً لقوله في أعماقها، كما شرح هو لمحدّثته حالة التمثّل.

لكثرة ما قرأت بدأت تستخف بالثقافة المحدودة في عالم الطب والتشريح. ووجدت نفسها تتساءل عن تخصصها: ما الذي قادها إلى الطب، هي من عُرف عنها في المدرسة شغفها بالفلسفة والآداب؟

أيّ شيء جذبها إلى مهنة الجراحة .ولَمِ اندفعت إليها بلا هوادة؟

يوم حاججها عمّها أسكتته. وحين سألها أستاذها عن جدارة تخصصها، بالنسبة لفتاة شرقية، فوجئت. ووجدت نفسها تتحفّز وتفحمه بالحجج. والأستاذ، انفعل لحججها انفعالاً لم تتبينّ مغزاه!

أإعجاب تُرى انفعاله أم عتب؟

ووسط حيرتها سمعت أستاذها يتمتم بتلك العبارة الشائكة التي ستشغلها كثيراً بعد ذلك. عبارة مؤوّلة لشكسبير تمتم بها الأستاذ قائلاً «إنّه بسبب الأشجار تتعذر علينا رؤية الغابة.»

أزعجتها العبارة كما كدّرها التباس المغزى. وتفهّم الأستاذ ضيقها وبادر إلى شرح وجهة نظره. يطمئنها بأنّ شكّه ليس لجهة قدراتها التي لا يرقى إليها الشك. .بل لجهة الواقع الاجتماعي لفتاة شرقية. أو حتى غربية. قال هذا ثم أشار إلى مكتسبات حركة ٦٨ وإلى الأفكار الرائجة والتي برأيه ستؤول سريعاً إلى الانحسار.

كانت تود لو تثور بوجه أستاذها لصلافة كلامه. غير أن ابتسامته الأبوية الواثقة لجمت ردّة الفعل في فمها.

لكنّ ما لُجم في النهار تحوّل إلى حرب في الليل. .في ذاك المنام العجيب التي رأت نفسها فيه تتناول سهاماً طويلة من أدراج عدّة الجراحة لترمي بها الأستاذ. السهام تكاد تصيبه في جبينه، لولا أنّه في كلّ مرّة كان

يزيح قليلاً من مكانه فتخطئه. يفعل هذا بهدوئه المعروف فيما هو يراقب سلوك تلميذته الشاذ، مبتسماً. ابتسامته الواثقة التي صارت منذ ذاك المنام مقيتة على قلبها. صحت من النّوم وثورتها على كبير الجرّاحين ما زالت حبيسة في الصدر. وحبيس ضيقها من عبارته الشائكة التي تتحدّث بفصل الغابة عن الشجر.

ستظلّ أمداً طويلاً تلهج بها.

ما الذي دفع أستاذها إلى تحريف كلام شكسبير؟ أليلبسها إياه كما تلبس الحكايات الناس والأزمان؟ أم ليخفي حقيقة القصد ويودعها لغزاً عصيّاً يناصبها العداء؟ لغزاً تقلّب كلماته.. تتأمل في معانيه..وإذ يخيّل لها أنها أمسكت بتلابيب المغزى وأن الغامض منها انجلى، غرق الوجه الآخر منه في بحر الظلمات.



ما الأساطير سوى وقائع نبتت لها أجنحة

يلزم أيّ أسطورة أن تتضافر لها العناصر اللازمة لإطلاقها على الألسن. كما يلزم أيّ كاتب براعة لنسجها على صفحات الورق.

وما لم يكن متمرّساً بنمط خاص من الأدب، يراوح ما بين الدعابة والمأساة، سيكون من الصعب عليه أن يحكي عن الصبية ريما، اخت دالية. هذه التي شغلت الناس طويلاً بجمالها في تلك الحقبة من تاريخ المدينة. الحقبة التي استعرت فيها الحرب وهاجس الفتنة بالجمال.

لزاماً عليه أن يتمتع بروح الفكاهة الدرامية، ليتمكن من أن يحكي عن طفلة بدأت «تُطلب» للزواج وهي رضيعة في المهد. أو أن يرسم مشاهد حياتها غير المألوفة منذ أن كانت أمها حاملاً بها، فلا يُتهم بالمغالاة.

كانت الأم قد حدست أن مصيراً خارقاً ينتظر ابنتها، حين تراءت لها تلك الرؤية ليلة صيف: ذكرتْ أن الوقت كان بُعيد العشاء. وكانت، وهي في شهرها الأخير من الحمل، مستلقيةً في الشرفة على الكرسيّ الهزّاز تتأمل بين صحوٍ ونوم نجوم السماء. وإذا بالبدر ينطلق من مكانه انطلاق صحنٍ طائر! وأحست بقلبها يخفق والبدر يقع على تلال مظلمة ويتوهّج بالنور. ثم يبدأ يتدحرج دحرجةً وئيدة ناعمة! ويستمرّ قبالتها في دحرجته قبل أن يستقر في حضنها!

ونظرت، فإذا في حضنها فتاة يعجز اللسان عن وصف جمالها!

وحكت لزوجها فقال:

ـ عجباً من الأحلام تصوّر لك الأشياء بألف شكلٍ ولون.

وحكت للمفسّرين فتنبّأوا لها بأنها ستلد بنتاً، وأنّ ابنتها ستكون آيةً في الجمال كالبدر الذي رأت! كما قالوا: سيُكتب للأم نفسها النجاة. نعم ستنجو من الخطر الذي لوّح به طبيبها، لترى جمال ابنتها يتحقق.

كان الطبيب، إثر ولادة ابنتها دالية، قد اكتشف لديها عيباً خلقياً في القلب وحذّرها من الإنجاب ثانية. أكثر من عشر سنوات ظلّت تقاوم إلى أن تجرّأت وخاضت المغامرة. غالبت الموت وكادت تهلك. غير أنها نجت وكانت ريما. ورغم سابق علمها بالنبوءة، فهي ما إن وقع بصرها على ابنتها بعيد الولادة، حتى فتنها جمالها! ومنذ اللحظة الأولى بات عليها أن تبذل الجهد كي ترفع بصرها عنها. وتمتثل لنصيحة النصحاء: أن تسمو بنفسها وتحاذر الغواية بمن أنجبت. «تجنّباً للعين الفتاكة. عين القريب قبل البعيد. عين المحبّ قبل الكاره. الرحيم قبل الحاسد. فكلّها في شهوات التملك سواسية. كلّها برهان على الأذى اختُبرت قوّته.»

هكذا امتثلت لما كانت تستخف به. ولجأت إلى التدبيرات المعروفة بين مَن لا تؤمن بترّهاتهم. فأعطت تعليماتها للمربية منصورة أن تُلبس الطفلة رثّ الثياب أو تلبسها إياها بالمقلوب وتترك شعرها منفوشاً بلا تسريح. ومظهرها بما لا يشي بالنظافة. لكن لا فائدة! إذ وكما يحدث حين تشتبك النوايا بالقرارات، كانت الطفلة تبدو على الدوام في أبهى صورها. مثلما في اللحظة الأولى لوجودها. ومثلما في كلّ عام، حين ترتدي في عيد الشعانين ملابس النذر للسيدة مريم العذراء. النذر الذي قطعته أمها على نفسها يوم أُصيبت ريما بالحصبة واشتدت عليها وطأة الحمّى وكادت تموت. وأخبرت أن النذور عبر الأديان أبلغ الوسائط لاستعطاف خالق الكون عزّ وجلّ..

دائماً في أبهى صورة.. لتتأكد النبوءة. وتغدو منذ باكر صباها قبلة

كلّ ناظر ومشتهى كل شاب. قلّما رآها عازب ولم يأتِ لخطوبتها. حتى إذا ما قوبل بالرفض ألّمت به الصدمة تلك: عفّ عن الزواج، متعلّقاً بأهداب الأمل. وبقي هكذا إلى أن يتدخل الزمن الكفيل بتسوية الأمور ويبدأ عندئذٍ في البحث لنفسه عن الزوجة الملائمة للمستقبل.

ولو سُئلت الأم أن تلخص مجرى حياتها القصيرة لقالت إن جلّ ما فعلته هو أن تردّ الخطاب عن درب ابنتها ريما. كم من آباء ضربوا الطاولات والصدور ليؤكدوا على الامتيازات التي ستحظى بها عروس المستقبل: صكوك الملكيات. الشيكات. سبائك الذهب. . وكم من أمهات فرشن المصاغ الموروث وكم أغدقن من وعود. . حبة سوليتير شبيهة بالتي أهداها الأمير العربي الشهير إلى عروسه. وعرس لم يسبق له مثيل:

سيدعون نجوى فؤاد من مصر للزفّة والرقص.

ويحضرون الطعام من مكسيم في باريس.

ويرسلون العروسين في رحلة شهر عسل إلى جزر الهاواي. وستُدعى الصحافة لتغطي أخبار العرس وتنشر صوره على أغلفتها اللّماعة وفي صفحاتها الداخلية المخصّصة لأخبار المجتمع المخمليّ. وهدايا تماثل ما قام بها هذا أو ذاك من كبار الناس.

نعم، لا عجب أن يبذل أولي الأمر الغالي والنفيس! إذ يكفي أن يقع البصر على الصبية هذه ليتأكد للرائي أن الانسان أعظم الاستثمارات. فلتنتقِ مَن تشاء من شبان العائلة نظير أن تنضم إليهم. فلتنتقِ من يروق لها لتنسج في سلالتهم ملامح صورتها النادرة!

نظير هذا، كل شيء يبدو ممكناً. كأن تعيد تلك السيدة الثريّة إلى الأذهان ما كان يجري في القرن الماضي، فتطلب ريما، ولها من العمر ست سنوات، للزواج من وحيدها ناجي الذي كان في الثامنة. هكذا خطوبة ممتدّة الأجل برعاية الأهل، مثل الوصاية على الملوك القُصّر، إلى أن يبلغ

العريسان سن الرشد. لا حرج! فجمال مثل هذا يبرّر المسار الرجعي للعادات. يعيد للتقاليد المنسية رونقها. يغريك بحرق المراحل أو يبيح لك كسر الحواجز: لا اعتبار لأصولك ولا للبلد الذي منه جئت. لا اعتبار للّغة التي تتكلم بها. ولا اعتبار، حتى لما كان عظيم شأنه يعلو على كل اعتبار: اختلاف الدين. هكذا طُلبت الصبية المسلمة لشبان مسلمين وغير مسلمين من لبنان وسوريا ومصر والعراق وبعض دول الخليج.

كُسرت الحواجز وعاد الزمن القهقرى.

والخاطبات اللواتي، في تلك الأوساط، انقرض دورهن أو كاد، عُدن للظهور على المسرح. وعادت النسوة إلى ذاك التقليد المنصرم، يعبرن الحدود من دمشق، بغداد أو الحجاز، سعياً لرؤية الشابة التي تسامعوا بجمالها. ذاك الضارب في جذور الأعراق والقارات. تلك الحريّة بأن تكون من جديد، أميرةً في قصر الحريم لرجل عظيم هي محظيته.

أو أميرة في منزل عصري. إذ ما عاد البذخ وقفاً على الشيوخ والأمراء القادمين من بلاد البترول. فمنذ الطفرة الاقتصادية التي شهدتها المنطقة ونعم بآثارها لبنان، صار يبذّهم في البذخ والثراء المغتربون والتجار والصناعيّون والمقاولون. وبعد أن نهضت بيروت، ما عاد هؤلاء يبدّدون أموالهم في أوروبا كما في السابق. بل صاروا يمضون إجازاتهم في بلدهم الذي تجاوزت أخبار مرابعه الآفاق. ناهيك عن تحوّلات أخرى طرأت إذ جرى في بيروت انتخاب ملكة جمال العالم أوائل الستينيات. يوم سار موكب الجميلات في العربات السيّارة المزينة بالورود والأزهار، مخترقاً الشوارع الضيّقة ماراً تحت الشرفات وصولاً إلى كورنيش البحر.. عشرات الجميلات في ثيابهنّ الكاشفة، يحيّين على هذا الجانب وذاك، الجماهير المبتهجة بالحدث. المصطفة على الأرصف، أو الواقفة عند النوافذ وعلى الشرفات. الحليّ والمجوهرات والألوان تبرق تحت شمس المتوسط على بعد خطوات من البحر. الحدث الذي عزّز تقدير الناس لعاصمتهم بيروت

ورسّخ يقينهم بالقيمة الجمالية للفتاة! ولما بعد سنوات قلائل ارتقت عرش جمال الكون إحدى فتيات بيروت ذات الجمال الطفولي الأخّاذ، دُمغت هذه القيمة بالدمغة التي لا مراجعة فيها. الدمغة التي حرّرت الأهل من إرثهم الثقيل ومن مخاوفهم التافهة، ويسّرت لهم السماح لِصغيراتهم باستعراض مفاتنهنّ بلباس البحر أمام عيون اللجنة الفاحصة! العيون التي لا بدّ أن ترى وتتأكد لتشهد!

الدمغة التي كانت، برأي البعض، من بين الأسباب التي منحت لبنان مركزه المتميّز وسط جيرانه المحافظين، وجعلته يكيد لعدوّه التاريخي إسرائيل!

إذّاك، كان على سائر الفتيات اللواتي لا يتمتعن بالمؤهّل الملائم أن يبادرن إلى الابتعاد عن مسرح المنافسة، ليشكّلن خطاً أنثوياً موازياً صفته الاحترام، أو حتى التقدير. يسلكن فيه درب العلم أو المهنة، مدرّساتٍ ممرّضات أو موظفات. أو يكتفين بدورهنّ كربّات بيوت وفيّات للزوج. مستسلماتٍ لقدرهنّ المرسوم. متفانياتٍ في خدمة الأولاد وتطوير ما لذّ وطاب من طعام.

كان على هؤلاء المنفيات خارج المعايير السائدة للجمال، أن ينتظرن سنوات قبل أن يؤتي الانقلاب العالمي العظيم، في الستينيات ثماره. هذا الذي جعل من كلّ امرأة أنثى جميلة خارج ترّهات الأحكام. سنوات لتعلُ صيحات المناضلات، فاضحةً تشييء المرأة وإخضاع روحها وجسدها لأهواء المتاجرة وعبث الاستهلاك. صيحات الاحتجاج التي، لحسن الحظ، لم تعلُ إلاّ بعد اعتلاء اللبنانية جورجينا عرش جمال الكون. لو وصلت قبل ذلك لكدّرت على الناس استمتاعهم بالنصر وابتهاجهم بالحدث الخرافي هذا الذي غدا مفترقاً في تاريخ بلدهم. وظلّت، لأمد طويل، صُوَر بطلته تتصدّر الصحف. وكرّس مسابقات الجمال سمةً من سمات بيروت. وغيّر نظرة الشبان إلى ابنة بلدهم. فصار المغتربون منهم يرجعون إلى لبنان للّهو

كما للزواج. يتعرّفون بالجميلات، وحين يقع الخيار أو النصيب تقطع العروس دراستها قبيل أن تقطع كعكة العرس ليرحل بها زوجها بعد ذلك إلى مقرّ الهجرة.

ومنذ أن كبرت ريما صار القادم الذي سمع بها أو أُتيحت له فرصة لقائها، يحلم بأن تكون هي العروس التي سيرجع بها من العاصمة بيروت.

الأب، منذ أن كبرت ابنته، هاله جمالها وتزاحم الخطاب عليها! وتصدّى لرغبة الأم، بجبروت لا تعهده لديه، في أن تخوض ريما مسابقات الجمال المحتدمة، التي هي برأيه من الترّهات. وكادت مساعيه تبوء بالفشل لولا أن الأم نفسها تراجعت عن إقحام ابنتها في مثل هذه المسابقات. ذلك أن عرش لبنان وحده، في ظنّها، لا يفي طبعاً بقدر جمالها. فيما لا ضمان لها بعرش الكون الذي من الصعب أن يُمنح لمرشحة البلد نفسه مرّتين، لاسيّما في ظلّ التنافس الرخيص الذي تتدخل فيه ملابسات السياسة المعقدة بقضية الشرق الأوسط والعداوة المتأصلة مع إسرائيل وانحياز الأمريكان..

منذ أن كبرت ريما، وهاله تزاحم الخطاب، وأبوها يحدس صعوبة العثور على الزوج الملائم لها. ذاك القادر على تحقيق أمرين كلاهما صعب: إسعادها وحمايتها من مغبّة جمالها في الوقت ذاته!

ويتراءى له في هذا الوضع الدقيق حكمة التقليد الشرقي، بتزويج الفتاة لابن عمها. رجل في دمه غيرة الأخ وشهوة الغريب. وتراوده فكرة يُخجله تحقيقها. هو الرجل المتنوّر. كما يخجله البوح بها لزوجته: أن يبادر بنفسه للبحث عن الزوج الملائم لابنته، كما كانت تبادر إلى ذلك العائلات اليائسات من تزويج بناتهنّ. يبادر ويذهب إلى أخيه نور الدين، يطلب منه يد ابنه الطبيب المهاجر إلى أمريكا، زوجاً لابنته ريما.

الظاهر يوحي بأنه قد أسلم هذا الأمر لزوجته، إلاّ أن الخفيّ منه ينبئ بشكل سافر بأن نفسه لا تكف عن الحوار مع أعماق نفسه: يا عبدالله. ابنتك هذه كُتب عليها شقاء الجمال، كما كُتب على جميلات الأرض، في الواقع كما في الأساطير. ما الأساطير سوى وقائع نبتت لها أجنحة. ولا بد لك من أن تمتثل لحكمتها وتفعل شيئاً. إن كنتَ قد تأخرتَ في الزواج، فإنما لتُرزَق بهاتين الدرّتين. صوْنهما أمانة في عنقك وأنت كهل والدنيا حرب. إذهب إلى أخيك البكر نور الدين، ربّ العائلة الكبيرة بعد أبيك. إفتح له قلبك واشكو همك واطلب منه يد ابنه إبراهيم زوجاً لريما، يصونها ويسعدها على سنة الله ورسوله.

وحمل نفسه وخرج.

كان الوقت ليلاً متأخراً. فسألته زوجته عن سبب خروجه والدنيا ظلام وبرد ومطر. فأجابها إنه قلق على أخيه إذ سمعه اليوم يسعل.

ألبسته المعطف والشال وحمّلته الشمسية، فلم يجد نفسه راغباً في حملها بل تركها على المشجب وخرج. وراح يمشي.. لا يدري أيّ الدروب سلك ولا في أي الأحوال وصل إلى بيت أخيه عند الفجر.

رحّب أخوه به ترحيباً حرارته تفضح قلقه. فتح له غرفة الاستقبال الشرقية وأجلسه على فِرشها الوثيرة وهو يردّد:

ـ خير يا أخي.. خير يا عبد الله.. عسى أن يكون الجميع بخير.

ـ إن شاء الله الجميع، بوجودك يا أخي نور الدين، بخير.

أحس الأخ بالحمّى تغلي في رأس أخيه وبأطرافه ترتعش وبكلامه أقرب إلى الهذيان. وكان أهل البيت نياماً، فقام بنفسه ونزع عنه ثيابه المبتلّة بالعرق. ونشّف رأسه وجسمه وألبسه بيجاما من الفانيلا وغمره بأغطية من الصوف وأسنده إلى مخدات من ريش النعام. وبعد أن سقاه الشراب الساخن والدواء مدّده على الفراش ودعاه للنوم فنام.

ونام هو معه في الصالة على الفراش المقابل. كلاهما في غفوه كان يحادث الآخر:

«نعم يا أخي ويا توأم روحي، الجميع بخير. إنما أنا هو الشاكي المؤرّق. لذا تراني جئتُ لمن تأنس إليه نفسي وينشرح لإصغائه صدري. أولادنا أمانة في أعناقنا والدنيا حرب وفوضى. والبنت يا نورالدين غير الفتى واليوم غير الأمس. هل تذكر ذاك العصر، والحجاب التركي الذي كانت تلبسه جداتنا وعماتنا وخالاتنا ونساء مدينتنا، والذي كان يغطي المفاتن فلا تظهرها المرأة إلاّ لرجلها؟

ـ أذكر يا عبدالله. . أذكر. .

ـ أين نحن من هذا الآن؟

ـ أين نحن حقاً يا عبدالله! كانوا يقولون لها: زوجك، فتجيب: تاج رأسي! ثم وعلى غفلة من أهلها تبدّلت أحوال الدنيا. انتقلنا من عصر لعصر حتى ما عاد شيء كما كان عليه. .

ـ ما عاد شيء. . ما عاد. إنما زواج البنت يا أخي، ما زال كما في السابق، سترها. وأجمله زواجها من ابن عمها. وأنا في حقيقة الأمر جئتك طالباً فلا تردّني خائباً.»

ـ ما عشتُ يوماً أخيّب لك فيه رجاء! لا تبتئس يا أخي عبدالله ويا نور عيني لا تبتئس. فقلقك قلقي وهمّك همّي وسعدك مناي. هدّئ روحك وطمئن نفسك. قريباً يعود ابننا إبراهيم من أمريكا ونزوّجه ابنتنا ريما يسعدها وتسعده على سنة الله ورسوله.

كُتب عليها الجمال وعلى أبيها القلق.

يقلقه تدفق العرسان عليها. وتهجس له الهواجس بأن مستقبلها لن يعدو كونه ما يجري الآن. وأنها ستبقى على هذا المنوال، تُطلَب وتَرفض إلى ما شاء الله..

لا أحد بيده البرهان إنما في الواقع أقوى البراهين.

يعرف أنه سيعود إلى البيت لتخبره زوجته بمن تقدم لها اليوم. ويعرف أن زوجته ستتحمس للفكرة وتستعرض الحجج والمزايا وتناقش التفاصيل وتحلم بالعرس وتشارك ابنتيها الحلم..

ويعرف أن حماسها سيفتر بعد أيام. فالبنت ما زالت صغيرة ولا بد من أن تكمل تعليمها، والفرص في ازدياد والقادم أفضل ممن مضى أو حضر..

الواقع أقوى البراهين.

فلكثرة ما نوقشت عروض الزواج ودارت الأحاديث حول أدقّ التفاصيل، من فستان العرس حتى الزينة وباقة الزهر التي ستحملها ريما بيدها ذاك النهار.. لفرط ما مرّ في مخيّلة سكان البيت من أعراس لريما، ما عاد في وسع أبيها أن يتصوّر عرساً حقيقياً سيقام ذات يوم لها.

ولا أن يتخيّل الفستان الذي سترتديه. هذا الذي، منذ مراهقة ريما كان يحلو للأم أن تدعوها بين الحين والآخر لأن تجرّب مثيله، فقط لتتصوّر

كيف ستدخل على المدعوين ساعة الزفّة. والشابة غالباً ما تمثل على مضض. هكذا جرّبت في بوتيكات بيروت وباريس، فساتين بأكمام طويلة ملائمة للرّبيع أو الخريف وأخرى بلا أكمام تليق بالصيف..

لا أحد يمكنه بعد ذلك أن يتخيّل!

كأنما هذه الفاتنة قد وُلدت لتُشتهى لا لتتزوج!

لا تُشتهى بمعنى الجنس، بل كشهادة على رفعة الجنس البشري. لتؤجج رغبة الناس بالزواج وحسن التناسل. أو لعلّها هبطت على المدينة هديةً من رب العالمين، لتعلّم أهلها البهجة. أو لتحتفل وإياهم بطقس جمالها، احتفالها بمشوار البحر في فصل الصيف. ذاك الذي يبدأ عادة بأن تطلب الأم من ابنتها أن تجرّب المايوه الذي سترتديه ذاك النهار. و«الكاش مايوه» الذي ستعقده حول وسطها، أثناء نزهتها على الشاطىء أو تناولها في المطعم وجبة الغذاء.

ويحدث أن لا تذهب ريما إلى البحر ذاك اليوم فتظل رغم ذلك لابسة المايوه. تتنقل به في البيت شبه عارية. أو تخلعه لتبقى عارية تماماً.. ذلك أنها، في حقبة ما من حياتها، لم تكن ريما قد تشرّبت بعد العادات المتعارف عليها في العري والملبس. فلم تكن تجد غضاضة في أن تتعرّى كليّاً أمام أختها وأمها أثناء ما تكون مستغرقة في تغيير ملابسها أو ذاهبةً إلى الحمام. وهي لم تكفّ عن التعرّي إلا بعد أن لمحها أبوها مرّة فاحتج لدى أمها على هذا السلوك الصبياني. كما سبق له أن احتج على دخول أمها، أو منصورة، معها إلى البانيو، لتفرك لها ظهرها. أو لتساعدها على العبور من المغطس إلى أرض الحمّام، خوفاً عليها من أن تتعثر أو تزلّ قدمها على بلاط السيراميك. والأب، لخشيته أن يكون الدافع الخفي لدخول هذه أو تلك، يتجاوز المساعدة إلى الفرجة، ارتأى حلاّ إجرائياً. فأحضر البلاّط الذي اقتلع المغطس من حمام «البنات» واستبدله بحوض مربّع صغير للدوش فقط. هكذا يجنّب الصغيرة خطر الانزلاق الذي تهجس به كل من الأم والمربية.

كانت عين الأب دائمة اليقظة تراقب ما يتعلق بشؤون ابنته التي وهبها اللّه جمالاً لا يرحم. جمالاً من شأنه تحويل أيّ نشاط تقوم به إلى استعراض. مثل ذهابها إلى البحر، الذي رغم ضيق الأب به لم يكن في وسعه الاعتراض عليه. هذا المشوار الذي يبدأ عادة بتجريب المايوه وتحضير اللوازم وحين تكتمل التحضيرات يُسيّر الموكب.

لم تكن ريما نفسها قد رأت جدّتها تخرج مع مرافقاتها والخادمات من البيت إلى الحمام التركي، لتكرّر بعد أكثر من نصف قرن مشهد العبور ذاته. إنما ليس إلى الحمام، بل إلى أكثر شواطئ المدينة تألقاً..

كما لم يسبق للأم أن شاهدت أياً من أفلام فيلليني أو غيرها من تلك التي تداعبك فيها روح الفانتازيا، لتستوحي منها ذاك الجو الغرائبي باستخدام أشياء مألوفة في أماكن وأبعاد غير مألوفة، ولتشكل على هذا النحو موكب ابنتها إلى الشاطئ: شمسية بيضاء من الحرير بالغة الاتساع، حتى ليتساءل الرائي أين عثرت عليها! وأطراف الشمسية الدانتيل، مرفرفةً في الهواء، تزيدها اتساعاً وفانتازية. وتحتها تتبختر المراهقة الفاتنة بألوانها القشيبة!

وخادمة أُلبست بياضاً ببياض وكُلّفت على ما يبدو بحمل الشمسية، تمشي بجانب الفتاة لجهة الشمس، لتردّ اللهب عن بشرتها الندية. الخادمة تبذل جهداً واضحاً لتضبط خطاها مع خطى الشابة. ولهذه الناحية وتلك تسير أحياناً دالية وأمها. هكذا في موكب أبعد ما أن تكون غايته إعلانيةً للفت الأنظار. ورغم هذا فقد كان على الدوام مبعثاً استثنائياً لشدّ أعناق الجالسين على الشاطئ. لا أحد يفوّت على نفسه المشهد الذي تسامع به! ولا رؤية الفتاة التي يخالها الرّائي من كائنات المتخيّل، هبطت للتوّ بمظلّتها الملائكية إلى أرض الواقع، لتدهشه وسائر الناس وتبعث في نفوسهم المسرّة!

مخلوقة سحرية تعبر أرض الواقع على مرأى منك!

كان هذا ما أشار إليه تعليق الصحافي الذي أخذ لريما خلسةً بعض الصور ونشرها في واحدة من أكثر المجلات النسائية انتشاراً في لبنان والعالم العربي!

يومذاك، كانت ريما ترتدي المايوه الذي أحضرته لها دالية من إيطاليا. كحلي موشى باقحوانات صفراء. والقبعة الواسعة تحاكي المايوه في نسيجها إنما بصورة معكوسة: صفراء موشاة بأقحوانات كحليّة. وتحت هذه التشكيلة الربيعية يطلّ وجه المراهقة الصبوح!

كان يمكن لهذه الصّوَر أن تغيّر مجرى حياة ريما لو أنها استجابت للعروض الكثيرة التي انهالت عليها إثر انتشارها. عروض أزياء وتمثيل. وعروض تجارية داخل لبنان وخارجه. وعروض أخرى بدت آنذاك طريفة: لم تكن موجات الفيديو كليب قد انتشرت بعدْ، ورغم هذا تفتّحت عبقرية أحد المخرجين على تلك الفكرة، ليعرض على الشابة الجميلة أن تصاحب، بالتمايل أو بالرقص، أحد نجوم الطرب الصاعدين في غنائه!

احتج والد ريما على نشر صورها واتصل بأحد أقربائه من جهابذة المحاماة في بيروت، لإقامة الدعوى ضد المصوّر والمجلة. وقريبه صارحه بلا جدوى الدعاوى في هذه الأيام التي تعجز فيها المحاكم عن البت بأفظع الجرائم!

لكن الأب أصرّ وأقيمت الدعوى، إنما لتأتي بعكس المرجوّ منها فتزداد الصور انتشاراً وتتناقلها الصحف وتعبر شهرتها الحدود. وتنهال المكالمات الهاتفية على الشابة الآمنة كما العروض.

منذ الحادثة والضجة الإعلامية التي رافقتها، اضطر الأب لوضع عدد من الإجراءات لحماية ابنته. فطلب إليها أن تخفّف من خروجها إلى شارع الحمراء وإلى الرّوشة حيث المقاهي المنتشرة على الأرصفة تستقبل مَن هبّ ودبّ. وأكد على أمها ومنصورة أن ترافقاها حيث تذهب.

وإذ حدّث زوجته بما يهجس له من أفكار، كأن يوسوس الشيطان

لأحد فتسوّل له نفسه فكرة خطفها، أجابته زوجته بما تهجس هي به، وحكت له عن حوادث لا تخطر في بال، يقوم بها شبان متهوّرون. أحياناً بالتواطوء مع الفتاة نفسها، وهذا ما لا يُخشى منه أبداً، وأحياناً بقوة السلاح. مثل ذاك الذي، بمساعدة صحبه، أجبر ابنة أحد الأثرياء على الصعود في سيارته ثم قادها إلى بيته وسجنها في الغرفة وجاء بأبيها وبالشيخ وبشاهديْن. ورفع هو وصحبه الرشاشات فوق الرؤوس. فرضخ الجميع، كما الفتاة لمطلبه وكتبوا كتابها عليه وصار زوجها الشرعي. لكن الثري، على ما يبدو، عاد وسوّى الأمر. إذ لم يمضِ وقت طويل على مصالحته صهره الشاب حتى اختفى هذا الأخير، عن الدّنيا، إلى الأبد!

اضطرت الأم أن تحكي لابنتها الحكاية وتشرح لها السبب الذي دفع أباها للتضييق عليها. وربما لم تعلّق بشيء. لا على تبريرات أمها ولا على الهجمة الإعلامية. بل قابلت كل هذا بصمتها المعروف. لكنها وفي ذات الوقت بدأت تحتج على السير في موكبها المعتاد على الشاطئ.

لا أحد يؤكد ما إذا كانت الصّور هي السبب في تمرّدها، خاصة الصورة تلك، التي رسمها أحد الكاريكاتوريين من وحي الموكب. وفيها تبدو الشمسية أشبه بالباراشوت والصبية كأنها طالعة من العهد الرومانسي ومرافقاتها يحملن المباخر كما القساوسة في الكنائس، يرششن عليها الرذاذ والبخور. . وربما، التي شاهدت الصورة دون أن تُعلّق عليها بشيء، لم تفصح عن سبب موضوعي لاحتجاجها. جلّ ما ذكرته أنه بات يخجلها أن تمشي في موكب يذكّر بعهد جدّاتها القديمات، حين كنّ يذهبن معاً، صديقاتٍ قريباتٍ وجارات، إلى الحمام التركي والخادمات يحملن لهنّ صرر المناشف والعطر والصابون.

تمرّدت وتكفلت بحماية نفسها بنفسها، فأصبحت تكتفي بالقبعة على رأسها، تقرّبها من جبينها فتموّه قدراً من جمالها تمويهاً صارخاً بالفتنة.

في هذا العالم الأنثوي الصاخب، كانت المشاورات بين الأم وابنتيها دالية وريما متواصلة.

بغرض البحث عن الأمثل!

عن الأكثر تناسقاً بين الملابس وتوابعها. خاصة بعد أن اتسعت رقعة الحياة الاجتماعية بدخول ريما المدرسة الأمريكية في سن المراهقة.

حين بلغت ريما المرحلة الثانوية وحدث لها ما لا مفرّ من حدوثه، أي ذاك التماسّ المعروف بين ضرورات الجمال ومتطلبات العلم، بدأت تتعثر في دراستها. ومديرة المدرسة ارتأت صراحة أن تكتفي الصبية بهذا القدر من التعلّم، شأنها شأن معظم الجميلات اللواتي سبقنها إلى المقاعد!

احتجّ الأب على القرار والأم وقعت في الحيرة.

تدرك أنه من الصعب على ابنتها الالتزام بالأمرين المتناقضين معاً. إنما ومن ناحية أخرى ما عاد يليق بصبية من العائلات، أن تترك المدرسة وتتفرّغ لجمالها وحده، في زمن أصبح فيه تعليم الفتيات من مسلّمات العصر! كما أن جلوس ريما في البيت سيغضّ من شأنها بين الناس ويضعها في الصورة البائدة للبنت التي ليس لها من مهمة في الدنيا سوى انتظار العريس!

في تلك الآونة بدأت الأم تسمع ببرامج تعليمية جديدة، أكثر مرونة

من البرامج الفرنسية والإنجليزية التي عُرفت بتزمتها. كان التعليم الأمريكي آخذاً بالانتشار، وبدأ يثبت جدارته في منح الدارسين فرصاً أكبر للتعبير عن قدراتهم الذاتية. وذهبت بعض المدارس بعيداً، حين دعت للبحث عن مواطن الإبداع لدى كل دارس، ووعدت بأن تفصّل له برنامجه الأمثل.

الفكرة استهوت الأم فقصدت إحدى هذه المدارس.

في بادئ الأمر، تضايقت المديرة من الطريقة التي عرضت بها الأم المسألة. واضطرت أن توضح لها إن لخصوصية القدرات حدوداً، لو تراجع عنها الدارس لفُصل من المدرسة. غير أن المديرة نفسها ما لبثت أن تعاطفت مع زائرتها بعد أن رأت ريما. ووعدتها بدراسة الموقف وإيجاد الحلّ الملائم لهذه المراهقة المثقلة بحمل جمالها.

بدا الحل الذي تحلم به الأم مرهقاً لميزانية الأسرة، لا سيما لجهة الدروس الخاصة التي ستنتج عنه، ولمتطلبات الوسط العالي الذي ستدخله الشابة. ذاك الذي صار استفزازيّاً بعد أن اخترقه «الدخلاء!» أولئك المتسلّقون الذين يهوون مباراة أبناء العائلات الأصيلة ويغالون في البهرجة والبذخ! ويصرّون على ارتداء الملابس ذات الماركات العالمية الشهيرة. وبعد اتساع رقعة الحياة الاجتماعية عموماً في تلك الآونة قبيل الحرب.

كانت بيروت، التي غدت أسطورة المنطقة، تزدهر من ذاك الازدهار الذي يعبث بالمدن وتتربص به المصائب ويتحدث به التاريخ. ولما وقعت الحرب لم يحدث ما كان منتظراً حدوثه، بل ظلّت وتيرة المناسبات على حالها. لا أحد يستسلم! والمدينة في نزاعها الموت تتشبث بالدوافع. وناسها يتزاحمون على الحفلات والسفر تزاحمهم على الخبز والماء. ما إن يُعاد فتح المطار حتى تغصّ قاعاته شبه المدمّرة بالمسافرين وحقائبهم. وَمَن استعجل السفر والمطار مغلق، تدبر أمره برّاً عن طريق الشام أو بحراً من جونية إلى قبرص أو أثينا ليتابع رحلته بعد ذلك حيثما يشاء. بلدان، ما فكر أحد بزيارتها من قبل، أضحت مزارات لأبسط الناس. وريما وأمها

دأبتا على السفر سنوياً إلى فرنسا. تستجمّان مع دالية وتتحوجان ما يلزم من ملابس وأكسسوارات للموسم المقبل.

الحلّ مرهق لكن الأب تحمس له!

هو الذي منذ زواجه عُرف بالوفاء والالتزام. ولما كبرت البنتان بدا واضحاً له أن الله، حين أغدق عليه نعمته بهاتين الدرّتين، وهب لكلّ منهما حصة الأسد: ريما لجمالها، ودالية لذكائها وقوّة شخصيتها. لذا فلا عجب أن يقتصر همّه في هذه الدنيا على إسعادهما: توفير الراحة والأمان للصغرى، وإكمال تعليم الكبرى إلى أن تتخرج وتحقق المجد الذي ينتظرها في عالم الطب. وكما سبق له وعثر على المخرج الملائم لتعليم دالية، هكذا سارع إلى بيع قطعة أرض ثانية لتغطية تكاليف النظام الدراسي الجديد الذي سينقذ ابنته ريما. فإذا ما تحقّقت أمنيته وتخرّجت هذه أو تزوّجت، سيحلو له عندئذ أن ينسَحب بخفّة من هذه الدنيا ويخلد إلى الموت هنيئاً مرتاح البال.

الحل الذي اقترحته الأم أعجب دالية. ترى فيه خلاصاً لتعثّر اختها في المدرسة. منذ ولادة ريما، شفقة عظيمة فاضت في قلبها نحوها. هم يتحدثون بجمال الطفلة وهي تغالب حزنها وخوفها عليها. يلهجون بجمالها فيما هي في السرّ تبكي لضعفها وصغر قدميها ونحولة صوتها. وتضطرب لفكرة أن تشرق ريما في الحمام وتموت. وتخاف أن تتوقف فجأة عن التنفس. حتى صارت أمها أو المربية منصورة تغافلانها وتحمّمان الصغيرة أثناء ما تكون هي في المدرسة. كما صارتا تخفيان عنها الأمراض البسيطة التي يتعرّض لها الأطفال. وتبعدانها عن سريرها كي لا تمضي وقتها متسمّرة فوق رأسها بعين دامعة، تراقب دقات قلبها خشية أن يتوقف.

ولازمها خوفها على ريما حتى بعد أن كبرت.

ولا شيء جعلها تتردد في السفر إلى فرنسا سوى رغبتها في رعايتها.

هم يتحدثون بمخاطر باريس بالنسبة لشابة صغيرة مثلها، وهي تحدّث نفسها بما يمكن أن يقع لأختها أثناء غيبتها. أبوها يناقش المسألة مع عمها وصديق له فيخبرهما هذا بحركة الوجوديين التي طغت على أجواء المثقفين هناك بعد الحرب العالمية الثانية.. الحروب هذه لا تأتي سوى بالويلات. .والوجوديون هؤلاء أباحوا الحدود. نساؤهم يخرجن بنظارات قاتمة وسراويل سوداء ضيّقة فاضحة، وكلاب حراسة ضخمة يقشعر البدن لمنظرها الذّئبي. الكلاب ترافق هؤلاء الإناث المنفلتات اللواتي يمضين أوقاتهنّ في المقاهي والبارات. .يتسكعن فيها حتى مطلع الفجر.. وأبوها، لهول ما سمع كاد يعدل عن السماح لها بالسفر. إنما، بناء على نصيحة الصديق، قرّر أن يرسلها إلى تلك المدينة الصغيرة بدل باريس.

يتحدّثون بهذا.. فيما هي منشغلة بترتيب حياة أختها أثناء غيبتها.

وإذ بدأت ريما تتعثر في دراستها خطر لها أن تأخذها معها إلى فرنسا. وبدأت تقيم الاتصالات إنما لتصطدم بالعقبات. هكذا أعجبها مشروع التحوّل إلى النظام الأمريكي. وتعاونت مع المديرة في رسم البرنامج الخاص به. فحرصت على أن تتابع ريما دراسة الفرنسية إلى جانب الإنجليزية، لتحافظ على اللغة التي دأبت على تعلّمها منذ صغرها. حتى إذا ما أنهت تعليمها، تكون قد أتقنت لغتين أجنبيتين إضافة إلى العربية.

لا شيء يؤكّد على أن المديرة تنبّهت، في حينه، إلى المسألة التي شغلت الناس والأطباء طويلاً في ما بعد، أيّ إلى ذاك الجانب شبه المعوّق، في شخصية ريما. وما من أحد أشار من قبل، إلى أن هذه الصبيّة الفاتنة، وقبل أن تنزل بها الصدمة الرهيبة، هي إنسانة شديدة الصمت. لا يمكنك أن تظنها خرساء، إذ يحدث لها أن تبادلك السلام أو الكلام. .تجيبك على سؤال أو تتفوّه بتعليق. تفعل هذا بصوت طفلة لم تتجاوز التاسعة من عمرها..

لا أحد تنبّه إلى أن الفتاة، منذ نعومة أظفارها وهي تلوذ بمنفاها

الداخلي، من هجمات الخارج على روحها الهشّة. فالناس، بميلهم الفطري لرؤية ما يفرحهم رؤيته، ينظرون إليها، فتخلبهم بتلك الابتسامة على ثغرها وتنسيهم كفاءة التعبير. ينظرون إليها فيخالونها هائمةً على الدوام في هناء جمالها. فإذا ما رأوها واجمة، لن يخطر لهم أن ما تعاني منه قلقاً، بل يخالونه انشغالاً كانشغال طفلة بلعبة تحاول إصلاح شأنها.

لا أحد تنبّه!

إذ لم تكنِ الدعابة قد أخلت مكانها بعد للوجه المأسوي. وعلى الأرجح أن الحدس وحده ألهم المديرة آنذاك لإرشاد هذه الفتاة المسكينة إلى الدرب الذي سيكون درب خلاصها. والذي جعلها تفتن الناس، في ما بعد، بشيء آخر غير جمالها: فنها البديع في العزف والرقص. ففي مقابلتها الطويلة مع هذه الدارسة الباحثة عن حل، كادت المديرة تيأس من إتاحة الفرصة لها لمتابعة تعليمها، لولا أنها تنبهت مصادفة إلى ظاهرة غريبة لديها. فالشابة إذ تتعثر في تناول الأسئلة العادية، تبرع في تناول مواضيع أخرى أشد منها عمقاً وتعقيداً! وفي حين عجزت عن حلّ مسائل الكسور في الحساب، رغم شرح متكرر من الأستاذ لها، واستحال عليها تحديد مواقع بلدان معروفة على الخارطة.. واكتفت بأن قرنتها بأسماء ممثلين أو مغنين.. رغم هذا فقد أدهشت المديرة بكلامها عن الصفر. حين سألتها هذه إن كانت على استعداد لأن تبدأ من الصفر.. وبصوتها الناحل أجابت ريما على سؤال المديرة:

ـ لا أحد يبدأ من الصفر. فلا شيء إلاّ ولا بدّ أن يسبقه شيء آخر..

هكذا كان الصفر مدخلاً إلى مقعد المدرسة الأمريكية.

نعم، ما من تجربة بدؤها العدم ولا طالب معرفة ينطلق من فراغ. الفلسفة ذاتها التي تدعو لها المدرسة: أن تُخاطَب من موطن عِلْمك لا موقع جهلك. هكذا طلبت المديرة من ريما أن تدوّن خبراتها السابقة لترسم وإيّاها برنامجها الملائم. وكان من بديهيات هذا البرنامج، أن تتجنب الصبية

مشقة التعليم النظامي والمواد النظرية. وتتجه بدل ذاك إلى المهارت العملية والفنون فتتابع ما بدأته منذ طفولتها: الموسيقى والرقص. الحديث منه أو الكلاسيكي. كما نصحتها المديرة بأن تهتم بفنون أخرى كالرسم والنحت أو الغناء. حتى إذا ما تجاوزت المرحلة الصعبة أمكنها الدخول إلى إحدى كليات الفنون أو المعاهد الكثيرة التي بدأت تنتشر في المدينة.

سارت ريما في دربها الجديد، لتبرع في العزف الذي تمارسه منذ صغرها على البيانو والناي. ولتتدرب على الكمان وتتعلم الرسم والنحت على أيدي أشهر نحاتي في المدينة. .أمهر الموسيقيين. وصارت تمضي نهارها بين المدرسة ومدرّسات الفنون. وفي المساء تجلس إلى أغنياتها تستمع وتدوّن كلماتها في الدفتر.

كانت المديرة، حين لاحظت صعوبات لدى الشابة في التعبير الكلامي، أشارت عليها أن تحفظ الأغنيات والقصائد التي تهواها، وأن تسجلها بصوتها على شرائط. هكذا تُثري تعبيرها الشفهي وقد ينطلق لسانها بعد ذلك بالكلام.

ملأت ريما أوراقاً وشرائط كثيرة.

دفاتر بأكملها ملأتها بالأغنيات والقصائد باللغات الثلاث. أغنيات عربية للمشاهير، وأخرى أجنبية حديثة وقديمة لجاك بريل وجون بايز وجيلبير بيكو، وإديث بياف. وأخرى أكثر قدماً، لجان كلود باسكال وتينو روسي. وأغنيات البيتلز التي وجدت هوىً بالغاً في نفسها. واستغربت حين أُخبرت أن أحد وزراء الداخلية كان قد منع فرقة البيتلز من دخول لبنان وأرجع أفرادها عن المطار كي لا ينقلوا إلى الشبيبة اللبنانية عدوى الهستيريا التي تصيب سامعيهم، والتي صارت تتبارى في نقلها شاشات التلفزيون عبر العالم.

استغربت إذ لا تجد في أغنياتهم مدعاة هستيريا بل كلاماً عميق المغزى

ودعوة صادقة للحب والتوافق الانساني. وازداد استغرابها حين عرفت أن الحادثة جرت منذ بضع سنوات فقط في الستينيات قبيل الحرب.

سارت ريما في دربها الجديد لتبرع في العزف كما في الرقص على يد أستاذتها. كانت هذه وهي راقصة باليه سابقة، قد عادت من أمريكا بهدف إطلاق دعوة «الفن من أجل السلام.» وبحثت كثيراً عن الراقصة التي ستحمل الدعوة. وحدّثوها بهاوية تطير بجناحين وبقدم سحرية. ولما شاهدتها على مسرح الكلية أحست أنها عثرت على ضالتها.

لو رضيت، هذه التي ولدت راقصة، أن تعمل معها، فستحلّق الدعوة في سماء لبنان لتجوب من ثمّ العالم!



الحبّ حقيقته أن تهب كلّك لمن احببت فلا يبقى لك منك شيء

أعلنوا عن افتتاح المعرض.

حدثٌ، بالنسبة لدالية، متوقع الحدوث، ورغم هذا وَقَع عليها وَقْع المفاجأة. واضطربت له من ذاك الاضطراب الذي تهتز له النفس وتوسوس به الأفكار:

هل يمكن أن يخذلها؟

هل يمكن للأحلام أن تنهار؟

ما أفظع أن تنهار المملكة التي استرحت إليها. . ما أفظع أن تنهار!

لكن لا. ما هذه سوى هواجس عشاق.

ترافقك في ذاك المنعطف الخطير الذي تتأهّب فيه أحلامك لتغدو واقعاً. أو تتأهّب فيه أنتَ للقاء من أضحى في خلدك محور العالم!

وتراوح بين موقفين: حضور الافتتاح وعدم حضوره.

وفي اليوم المحدّد لا تدري كيف حسمت الأمر وسارعت في الخروج ووصلت إلى المكان قبيل موعد الافتتاح. وأمام صالة العرض، فوجئت بجمهور كبير يقف أمام المدخل. جمهور، تنبئك ملابس نسائه وأناقة رجاله بالفئة الرّفيعة التي هو منها.

ثمّ فُتح الباب وبدأ الناس بالدخول.

وصعدت هي الدّرجات متهيّبة. وعند أعلى السلّم ناولها أحدهم كتيّب

المعرض ورسْمها على غلافه، فلم تشعر بشيء. وولجت الصالة وطالعتها صورها على الجدران وحولها جمع كبير من الزائرين. وجمهور من رجال الصحافة والتلفزيون. وكاميرات عادية أضواؤها تفرقع في الأجواء. وكاميرات فيديو وبروجيكتيرات. عيون آدمية وأخرى بلورية، كلّها شاخصة إلى لوحة كبيرة مواجهة للمدخل. وإلى شابة ترتدي ثوباً أبيض مكشوف الكتفين ويدها على صدرها مفضوحة بانفعالاتها وبتعبير عينيها الشيطانيّ. وصوّب أحدهم أضواء البرزوجيكتير إلى قلب اللوحة، فأشرقت الألوان وصارت العينان أكثر اتساعاً والنظرات أكثر عمقاً والابتسامة أكثر فتنةً وانحناءات الجسد أكثر غواية والنظرات الشاخصة أكثر انبهاراً وهي، رفَعَها، على صحن طائر، انفعال غريب. وحاولت أن تشغل نفسها. وأسوة بالحاضرين راحت تتجوّل في الصالة مفتونة!

الجدران مرايا متناظرة تعكس الصور وامتداداتها.

وهي باتت ترى ولا ترى.

ولمحته مع زائريه يستعرض اللوحات.

القامة ذاتها وتعبها الرهيف. وتسارعت ضربات قلبها ولسع الدم وجنتيها وصعد إلى الصدغين، فيما هو يرافق المتفرّجين إلى لوحاته. يتوغل وإياهم في أسرار عالمه. وهي تتابع تجوالها. منفعلة. ممتلئة بالثقة. من تلك التي لا تعادلها في العالم ثقة: أن تكون محبوباً. والنظرة التي رمتك بالحب قد أرجع لك المحبوب صداها!

ورأته يتجه مع زائريه وحاملي الكاميرات إلى إحدى الصور، وفيها تحتضن الفتاة شاباً وسيماً، لا يعدو كونه الفنان نفسه في مطلع شبابه. وكلاهما منجذب إلى الآخر، من ذاك الانجذاب السابق للالتحام، ذاك الأزليّ الذي مثيله قد خلّد جنس البشر.

وتسلّطت على العاشقيْن أضواء البروجيكتيرات لتنتقل ثانية إلى لوحة

الساحة، فيما هو يشير إلى تقاطع الضوء والظلّ لحظة شروق القمر. والكاميرات تتعقب إشاراته والحاضرون أيضاً يتعقبونها باحثين عن المغزى.

إنما وحدها مَن يدرك سرّ المغزى!

وسرّ طيفٍ يغيب في عتمة الساحة ويلتفت!

ووقع بصرها ثانية في بصره فخيّل لها أنه قد رآها وأنه قادم إليها. لكنه تابع حديثه مع زائريه لينضم إلى مجموعة ثانية وأخرى غيرها، قبل أن تحدث جلبة ويدخل أحدٌ من تلك الشخصيّات التي تطالعك صورها يوميّاً في الصحف. وتقدم هو لاستقبال الزائر. ومرّ بمحاذاتها ووقع بصره ثانية في بصرها ليراها بالتأكيد! إذ لا يخطىء الفؤاد ما رأى ولا تنخدع نظرة الملهوف!

لكن رجع النظرة غير ما هو متوقع وغير ما هو مألوف في شبكات الإبصار والتبادل!

نعم، غير ما هو مألوف!

وراودتها تلك الفكرة المزعجة: ألا يتعرّف بها!

وتابعت دورانها مؤرّقة. ترى ولا ترى. كل الخواطر، قبل قدومها إلى المعرض، خطرت لها وكل الاحتمالات إلا هذه! أن تأتي إلى المعرض لتخرج منه بلا يقين. ولعلّها ستخرج بلا يقين. إذ التقت العين مرّات بالعين، بلا رجع ولا صدى!

أيّ خلل يحدث في هذه البقعة الملعونة من العالم!

وخطر لها أن تنسحب.

وشقت دربها وسط الحشد الكثيف إلى باب المدخل، لتكتشف أنه مقفل وأنّ حارسين ضخمين يقفان به ليمنعا الحاضرين من الخروج. وطلبت منهما أن يدعاها تمرّ، فاعتذرا عن فتح الباب للجمهور قبل أن يغادر «السياسي» القاعة. حاولت أن تشرح لهما أنها طبيبة. .وعليها

اللحاق بموعد هام في المستشفى فاعتذرا.

ووقفت حائرة لا تلوي على شيء.

ووجدت نفسها تتساءل عن الحاضرين!

ماذا عن هؤلاء الحاضرين؟

ألا يلفتهم الشبه؟

ألا تراودهم التساؤلات؟

ولفرط غيظها خطرت لها أفكار غريبة..

كأن تصيح بهؤلاء البلهاء ذوي الحس البليد!

تصيح بالنسوة المتزيّنات المتأنّقات المبالغات، لكأنهنّ صور في مجلات الموضة!

أو تروح إلى تلك السيدة، التي لا تفتأ تتأوّه إعجاباً وتتلوى أمام اللوحات، تهزّئها وتصفعها!

أو إلى تلك التي دخلت مع ابنتها دخول أميرة، توزّع ابتساماتها المصطنعة على الجمهور، فيما نظرات الابنة تلاحق الفنان. أو تصرخ بوجه هذا السياسي الذي كلّما التفت دارت حوله الرؤوس!

أو تفعل أكثر من هذا.. فتخلع ملابسها لتفاجئ الحاضرين بعريها! نعم فلتفاجئهم بذلك! لعلّ العري الأصيل يكشف الحقيقة المنكرة.

ومن بعيد لمحها زميل قديم فجاء وسّلم عليها. وسألها عن أحوالها وأحوال البلد. وعن صحة ما يُروى عن تردّي الأوضاع في المستشفيات. وحدّثها بتفكيره بالهجرة. هو يسأل وهي تجيب، أجوبةً عابرة قاصرة. وخطر لها أن تختبر اللّبس وتستفسر منه عن تلك الظاهرة: الوجه وتكراراته والنظرة..إن كانت ظاهرة مثل هذه تشير برأيه إلى أصل ما للّوحات كائن في ذاكرة الفنان أو في عالم الواقع؟

ومحدّثها بعد أن أصغى إليها جيداً، أعاد عليها الرأي الذي سبق وقرأت مثيله :

ـ يحدث أحياناً أن تتجاوز الشحنة الفنية اللوحة الواحدة، فيستعيد الفنان المشهد من زوايا وإيحاءات متنوّعة. هكذا ومن منظورٍ ما، تكتمل اللوحات بعضها ببعض لتشكل عالماً خاصاً هو عالم الفنان. أو، بصورة أدق، تشكل رؤية الفنان للعالم.

دخلت المعرض بثقة لتخرج منه بغير يقين.

ولِتمضي أسبوعاً منكفئة على نفسها رافضة الخروج. وأمها تسألها عن السبب وهي تجيب لا شيء. وتأتيها ريما، لتُسمعها، كما في العادة، شيئاً من عزفها. فترجوها أن تتركها في حالها.

أياماً.. قبل أن تهبّ لديها ردّة الفعل اللازمة للنّهوض وتُبرق في خاطرها الفكرة: لا شيء عصيّ على الحب، لا شيء فيه مهين.. إن كانت قد خرجت من المعرض بلا يقين، فعليها أن تنتزع بنفسها اليقين. تضرب كبريائها بعرض الحائط وتروح إليه لتتأكد. نعم.. «فالحب حقيقته أن تهب كلّك لمن أحببتَ فلا يبقى لك منك شيء.» قول، كانت، إبان اهتمامها بالشعر الصوفي، حفظته. وفي نهوضها من اليأس بعيد افتتاح المعرض كلّفت أحد الموظفين بكتابته على لوحة علّقتها فوق سريرها في المستشفى.

نعم، لا شيء على الحب عصيّ.

إن كان محبوبها قد وقع في هواها من النظرة الأولى فهناك، في عالم الممكن، احتمالات لا حصر لها لنظرات أخرى ستقع موقع الأولى. هناك حيث النفس، كما قال، تشتبك بالكنه الشيطاني. هكذا، وبعد الزيارة الأولى عادت وانتشلت نفسها.. وللحارس العجوز، الذي كان جالساً على كرسيّ أمام صالة العرض، فضل في ذلك. استوقفها فيما كانت خارجة ليقول لها قول من ينطق بالحكم الأخير:

ـ اسمحي لي يا آنسة. . هذه الصوَر صوَرك لا جدال.

هل هو مختلّ؟ هل هو عاقل؟

هيئته توحي بأنه مختلّ وكلامه يدلّ على أنه عاقل. وأخرجها الرجل من تردّدها بقوله :

ـ لا تشغلي بالك يا آنسة، يلقبوني بمجنون الفن تيمّنا بمجنون ليلى. غير مهم. . المهم أن الصّور صورك وأنت ملهمتها بلا جدال. إذ لا يمكن للعين الثاقبة أن تخطئ.

نعم، في مهب الجنون تألّق وعي الرجل!

ليرسم لها دورها. أن تحيا على الأمل. أن تطارد محبوبها بلا هوادة كما هو جدير بالحب أن يُحيا. وكما يقضي الاعتراف بمن كان له الفضل في أنها قد وُلدت من جديد. ولما ذهبت ثانية إلى المعرض، لتخرج منه كما خرجت في المرّة الأولى، ازدادت إصراراً. لم يمنحها أيّ أمل فلتنتزع هي الأمل! ولقاء الساحة. . وتصريحات الصحف. . واللوحات ورأي العجوز، كل هذا ألا يعطيها الحق بالأمل؟

وصارت من روّاد المعرض.

تذهب إليه كل يوم. مرّة تجده ومرّات يُقال لها غائب، أو اضطر للسفر. ولما، في اليوم الأخير، رأتهم يُنزلون اللوحات، تولاّها ذاك الحزن! كأنهم لا ينزعون لوحات عن جدران، بل شيئا من ذاتها ينزعونه ويلقون به في المهملات. وقد بات عليها أن تجد درباً آخر. لكن ما عاد في وسعها أن تجد الدرب!

ما أضيق عالمها خارج الحلم بهذا الفنان.

بل وخارج الحلم به ما أضيق العالم!

وتذكّرت زميلة لها من المدرسة: دنيا. التي عُرفت، منذ باكر صباها، بحماسها لقضايا المرأة والتغيير. والتي كما تقول اختارت علم الاجتماع

ليكون لها دور في الحياة الحقيقية للنّاس. وفيما فكرة البقاء في فرنسا أغرت الكثيرين، قرّرت دنيا العودة إلى لبنان رغم اندلاع الحرب. كانت تتلمذت في فرنسا على أيدي كبار الأساتذة. واتصلت بمناضلات نسويات شهيرات وقابلت سيمون دو بوفوار. لكنّها حال أنهت دراستها عادت إلى بيروت. وما لبثت بعد عودتها، أن صارت من الرّائدات.

ودالية، بعد عودتها، التقت دنيا في عدة مناسبات. وإذ شاهدتها في الآونة الأخيرة تتحدث في التلفزيون في مشكلات العلاقة بين الرّجل والمرأة، خطرت لها فكرة الاتصال بها. زارتها في منزلها ووجدتها على عهدها في الحماس للتحرّر من التقاليد، فتشجعّت وحدّثتها بما يشغلها. ليس تماماً، إنما باندفاعها العنيف وانسياقها للمشاعر. سلوك لم تعهده في نفسها من قبل، إنما لا سبيل للتراجع عنه.

واطمأنت إذ وجدت صديقتها تتعاطف مع حكايتها. فما تمرّ به، ليس سوى تعبير إنساني أصيل ومغرِق في الطبيعة المزدوجة وغير المراوغة لكل امرأة ورجل ارتضيا حقيقة الدوافع.

ومازحتها دنيا بالقول :

ـ هكذا كل منكما بطريقته فنان. .هو بلوحاته وأنت بسلوك بوهيمي خارج الحسابات!

وشُغفت دالية بالكلام شغفاً قادها لمزيدٍ من التهور. ولمزيد من مطاردة الفنان. وصارت تفتعل الصدف لتتواجد في دائرته. الصدفة تلو الصدفة. حتى أنها ما عادت تذكر المرّات التي افتعلتها لتراه من تلك التي رأته فيها بلا افتعال. لا تنوي الذهاب إلى الأماكن التي يرتادها فلا تجد نفسها إلا وقد ذهبت إليها.

ما الذي جنح بها إلى هذا؟

ما من مرّة تساءلت وتراءى لها طيف الندم.

لا تستغرب جموحها المتأخر، بل ينقبض صدرها كلّما تذكرت وحشة حياتها السابقة. أيّ شيء أرحم من تلك الوحشة!

أي انشغال! كأن تحكي للأخريات، الممرضات أو السكرتيرات، ممن تجد لديهنّ آذاناً تصغي. تحكي لهنّ وَ تريهنّ الصّور وتشركهنّ في التطورات، حتى صرنَ عليمات بتحركات الفنان وبمشاريعه وأسفاره.

وبدأت تتهاون في عملها.

تتواجد في المستشفى دون أن تكون موجودة في مكانها الحقيقي منه. وشيئاً فشيئاً تحوّلت عن مسؤولية الجراحة لتغدو مساعدة جرّاح في الطوارئ. وبدأت تسهو في غرفة العمليات. ورؤساؤها يوعزون سهوها إلى جوّ الحرب والرّعب الذي يسود المستشفى بعد كل متفجرة.

وإذا اشتد قلقها ذهبت إلى دنيا لتسمع منها ثانية عن الدوافع المختلطة والطبيعة غير الزائفة وما يفلت من العقلاني. مثل دوافعها التي نفضت عنها عصر الظلام لتنهض. تخترق العالم وتدخل متسوّلة حافية القدمين وذات وساوس. لا غضاضة! فكل عاشق في عشقه متسوّل وكل طالب حبٍ عبد فقير.

أو ملِك مؤرّق

نعم.. أيّ بأس أن تزجك التجربة في المجهول؟

أيّ بأس.. فيقينك بؤسك. يقينك سجنك وسرير موتك.

وهي بعد يقين وموت نهضت واختارت الحياة

هشّمت أعمدة المعروف لتوغل في المجهول

ما عاش مَن لم يُبحر، ولو مرّة، في عبابه

مَن لم يُطلق العنان لفرسان روحه التوّاقة

تنتهك الدروب المغايرة

من تأبّط ظلّه وقبع عند جذع شجرة نخرها السّوس، مُبدّداً أيامه في الحسابات. مبتعداً عن أحلامٍ باتت تعبر حياته عبور غريب في ديار المقيمين.

هكذا يخسر الانسان تجربة حياته التي لن تتكرّر.

لكن، ماذا لو كانت الخسارة، في الدّروب المغايرة، من تلك التي لا تعرف الرحمة؟

ماذا لو كان المجهول سرداباً ملء ثقوبه الأفاعي؟

ماذا لو كانت الحرّية متاهة لا رجعة عنها ولا وصول؟

وحدّثت زميلة لها من ممّرضات المستشفى، بما يجري لها. بفلتان الأمر والنّهي من يدها وباستسلامها لسلطة المشاعر بلا حساب. وهذه اقترحت عليها زيارة فاطمة البصارة. وضحكت دالية للاقتراح:

ـ طبيبة تستشير بصّارة؟

وزميلتها ردّت بثقة:

ـ أشدّ الرّجال يستشيرون بصارة.. إذ يُخطئ من يزعم أن هناك تفسيراً واحد للعالم.

كانت دالية قد سمعت كثيراً بفاطمة البصارة التي ذاع صيتها قبل الحرب. في تلك الحقبة وفوران المدينة على أشدّه، والنفوس عطشى إلى التفسيرات، ذاع صيتها وانتشر بين الناس ما يُنسب لها من نبوءات!

قيل، ما إن تدخل بابها وقبل أن تلقي عليها السلام تكون قد ردّت عليك سلامك ناطقةً باسمك واسم أبيك. وقبل أن يجري لسانك بالمشكلة تسبقك هي للحديث بها!

قيل تتنبّأ بمستقبلك وتسيّر بالإيحاء، مصيرك ومصير الآخرين!

قالوا تَبذّ منجّمي العالم..مَن تنبّأت بالحرب العالمية والقنبلة الذّرية

وحرب الفيتنام وهزيمة الأمريكان. وتضاهي منجمّي الفنانين وكبار الساسة.

في جعبتها أسرار القلوب والأموال والسلطان. تأتيها في الخفاء شخصيّات من العالم العربي، متنكرّة بزيّ النساء. بل وتأتيها، متنكّرةً، شخصيات من أنحاء العالم. يُقال لا يتخذون قرارا، لايخطون خطوة..ولا يُبرمون العقود دون استشارتها!

نعم، فما من تفسير واحد لهذا العالم. وإلاّ لما كانت، منذ فجر التاريخ، التساؤلات.

لما كانت الفلسفة والروحانيات.

لما كان القدّيسون

لما كانت الحلول الموازية.

لو كان هناك مغزىً واحد للعالم لما كان الانسان.

بحثت الممرّضة كثيراً عن فاطمة البصارة. بحثت عنها في كواليس بيروت القديمة وفي مسالكها الجديدة، فلم تهتدِ إليها. قالوا هربت من بطش من أفشى لها الأسرار. وقالوا تنبّأت بالحرب فسبقت غيرها إلى النجاة. كانت في مقابلة لها مع الصحافة، أشارت إلى كارثة ستقع. ولما بدأت مناوشات عام ١٩٧٣، بين الجيش اللبناني والفلسطينيين، بدأ النّاس يميلون إلى تصديقها. حتى إذا وقعت الحرب الأهلية تأكدت لهم صحة النّبوءة. وتأكدت لهم أكثر بعد زيارة المبعوث الأمريكي اللبناني الأصل، فيليب حبيب، والإشاعة التي رافقته. تلك القائلة إن الحرب ستدوم عشر سنين. لكنّ فاطمة تصدّت للإشاعة. لا لن تطول الحرب عشر سنوات كما أشاع المبعوث على لسان أسياده الأمريكان، بل لن تتعدّى سبع سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام. بدأت يوم أحد وتنتهي يوم أحد.

لم تهتدِ الممرضة إليها..لكنها اهتدت إلى بصارة أخرى تدعى هي

الأخرى فاطمة. سميّتُها وإن اختلفتا في الرأي. وإن كانت هذه، حسب كثيرين، تفوق تلك استبصاراً وقوّة تعبير حتى لتخال كلامها من لغة الفلاسفة. هي الأميّة التي لم تطأ عتبة المدرسة، ترى في خبايا زائرها ما لا يراه هو بنفسه. لُقّبت بزرقاء اليمامة لبعد نظرها وقدرتها على رفع الغلالة عن المستقبل والمحجوب عن النّفس. لو شئتَ لكشفت لك سجلاّت حياتك بالصور. لو أسلمت نفسك لأرتك صور محبيك وأسمعتك أصواتهم أحياء كانوا أم موتى! لو أسلمتَ نفسك لأرتك ألبوم حياتك صفحاتٍ صفحات ممتدة، رجوعاً وصولاً إلى الساعة التي تموت شوقاً لحضورها: ساعة ولادتك!

كثيرون خرجوا من عتبتها غاضبين أو مرتعدين. ثمّ إذ تبيّنَ لهم بلاغة المعنى وصحة ما تنبّأت به عادوا إليها طالبين المزيد. حتى قال البعض: عالمة نفس جاءت إلى الدّنيا بثياب بصارة. بل زعم آخرون أنها عالمة نفس بالفعل. وسرُّها معروف: فهي، ليست في الأصل بصّارة. وما كان اسمها فاطمة. إنّها جورجيت ابنة بوّاب عمارة. اجتهدت وتعلّمت وصارت مدرّسة علم نفس ناجحة في مدرسة في فرن الشبّاك. لكن.. وبعد انهيار العملة اللبنانية ضاق بها الحال. وصارت عاجزة عن شراء الدولار بثلاثة آلاف ليرة بعد أن كانت تشتريه بثلاث ليرات لترسله لابنها الياس الذي يدرس في أمريكا. كانت قبل ذهابه، قد حسبت جيّداً تكاليف السفر فوجدتها أرخص من الفجل ووجدت الحلّ معقولاً لمن كانت أمّه تُدرّس في ثلاث مدارس وأبوه يعمل دوامين وهو قد تعذّر عليه النّجاح في البكالوريا اللبنانية التي غالباً ما تقف عثرة أمام الكثير من الطلاّب. أمّا وقد انهار الاقتصاد وصارت جورجيت قادرة بالكاد على شراء ربطة الخبز وقرص الجبن، فقد خطر لها إذّاك أن تستثمر عِلمها وحدسها في سوق التنجيم الذي راج والذي لطالما يروج إبّان الملمات. قالوا: لديها الآن ثلاث عمارات وبيت في الجبل مكوّن من طابقين، وآلاف الدّولارات في البنك.

وابنها الياس، في غمرة البحبوحة، تسنّى له أن يعاشر مليونيرات أمريكا، ويخطب ودّ ابنة أحدهم. صناعي كبير وعضو في مجلس الشيوخ..

حكاية هذه البصارة أثارت دالية. وحفّزتها للتعرف بها أكثر مما حفّزها كلام زميلتها بأن ليس لديها ما تخسره في الزيارة سوى حفنة صغيرة من المال.. هكذا أخذت منها موعداً شرطه السرّية. وهذه أشارت عليها بأن تأتيها بعد حلول الليل..

وفي اليوم المحدّد، دخلت دالية إليها وانحنت من طرّاحة جلوسها تسلّم عليها. فأجلستها فاطمة بجانبها على الطرّاحة. ثمّ وبعد هذا السلام جاء الكلام. الكلام الغريب الذي ستسمعه دالية والذي من شأنه أن يؤكّد لها الشائعات حول هذه المخلوقة العجيبة قدر ما ينفيها. الكلام الذي يخرج، كما تزعم، من القلب للقلب. حدثتها فاطمة بأشياء عن الماضي والمستقبل. وعن الحب الذي زرعه الله عزّ وجلّ في الحشا. في اللحم والعظم. في الروح والقلب ليكون كلّ رجل آدم وكل امرأة حواء يعمر بهما الكون. وحدّثتها بالحاجب والمحجوب. وبالواسطة والوسيط وبالسرّ الذي يضعه اللّه عزّ وجلّ في أضعف خلقه: ما العرّاف سوى عبد فقير أنار الله قلبه ووضع في روحه سرّه وَوهبه نعمة الاستبصار وقال له حلال عليك الاختبار. حلال عليك الوسائط، كما استحضار الصّور والأصوات والأرواح، أمواتاً كان أصحابها أم أحياء. نعم يفعل هذا لينير درب التائهين ويبرّد قلوباً تستعر بشوق المحبّين.

ثمّ جاءت الخادمة بالقهوة لتدخل البصّارة بعد شربها، في صلب الموضوع. الفنجان يدور بين أناملها وهي تتأمل جوانبه. وعيناها تلاحقان الخطوط والأشكال. أمضت هكذا برهةً قبل أن تخرج عن صمتها لتقول!

ـ فنجانك لسانك. وَصُوَرهُ مرآة تعكس أعماق كيانِك أو كيان أعدائك وخلاّنك. خطوطه كلامك أو أسماء أحبّائِك وأقرانك. تسألين يا أختاه

ماذا أرى؟ أرى امرأة عملاقة كشجرة حور تنحني لتلمّ دموعاً ذرفتها. الدمع يفيض فيضان بحيرة..

ـ وماذا ترين بعد؟

ـ أرى عالم الأولين وعالم الآخرين وبينهما خط عريض له وجه فاصل وآخر واصل.

ـ وماذا ترين بعد؟

ـ أرى رسالةً حوافها من ماء وحروفها من نار.

ـ وماذا بعد؟

ـ أرى امرأة واسعة العينين ورجلاً طويل الساقين. لا المرأة ترى ولا الرّجل يسير.

ـ وماذا بعد؟

ـ أرى غزالةً خائفة تركض في صحراء وصيادين كثيرين يطاردونها. أمامها أربعة دروب:

درب الماء. لكنها لا تجيد السباحة

ودرب النار. يا ويلها إن اكتوت به..

ودرب التراب. ما أكره أن يستعجل ابن آدم الرجوع إلى أصله.

ودرب الهواء، وقد كُتب عليه أن تطير والله خير الحافظين.

ـ وماذا عمّن يشغل القلب؟

ـ يُشغله ويُشعله. رجل ولا كلّ الرّجال. بهيّ الطلّة طويل القامة عالي الهامة. الحُسن حُسن يوسف، واللسان لسان سيبويه، والكلام من فم أفلاطون. المشية ولا الغزال. فهو على الأرض لا يمشي، بل يطير طيراناً بجناحين. فإن سألتِ رؤيته حالاً تحضر صورته.. انظري يا أختاه قبالتك إلى الحائط.

وما هي إلاّ ثوانٍ حتىٰ أطبقت ظلمة كثيفة على الغرفة. انطفأت شعلة الكاز اليتيمة التي كانت تلقي ظلالاً خاوية على المكان. وَلمع ضوء ساطع وانطفأ ثم لمع وانطفأ. وفي المرّة الثالثة، بين ساطع الضوء ودامس العتمة، ارتسمت صورة على الجدار قبالة دالية. الصورة لا ريب صورة محبوبها.. غير أنّه يلزمها أن تحدّق لتتأكد. لعلّها لشدّة انفعالها ترى فلا تصدّق رؤيتها. وظلّت تحدّق مرتبكة والبصارة تستفسرها وهي تطلب المزيد وهذه أجابتها:

ـ لا يا أختاه.. هذا القدر يكفي. فكثرة النظر تعمي البصر.

كان يمكن لكل شيء أن يستمر على ما هو عليه..

كأن تواظب دالية على زيارة البصارة. تستجدي منها كلاماً، تارةً تجده كثيفاً مشوّشاً، وتارة قاطعاً ساطعاً كعين الشمس..

أو أن تطارد محبوبها طيلة العمر. عاماً إثر عام، بلا كلل ولا ملل. هكذا في تضحية صامتة لامرأة ارتضت لنفسها شقاء الحب.

حتى ولو أُخبرت بأن محبوبها قد تزوّج وأنجب.

حتى ولو قرأت مراراً الكلام، الذي قرأته على لسانه ذات يوم، ولم تأخذه بالاعتبار. حين سُئل إن كان يعني له شيء أن يلتقي بملهمته فأجاب :

ـ لا أدري. لا أظن. فاللحظة الجمالية قد اكتملت على الأرجح آنذاك في ضوء القمر.

جدير بها أن تطارد حتى نهاية العمر مَن صرح بعكس ذلك: أبيع عمري للعثور عليها. وهل لو سُئل الأمير الذي وقع في هوى الغجرية القاتلة أن يلقاها، لكان في وسعه أن يرفض؟

يلامس اليأس روحها فتزداد تفاؤلا.

كيف لا وهو حين يلقاها، يأخذها بين ذراعيه أمام الناس، ويطبع على خدّها القبلة التي تبشر الأمل. وتجلس هي بجانبه آمنةً مزهوّة. تصغي إلى

كلامه الفاتن. تفتنها صياغة مفرداته. لا همّ إن كانت هي مناسبة القول أم امرأة أخرى.

جدير بها أن تغدو جاريةً في العشق لمن كان له الفضل في أنها قد وُلدت بين أنامله من جديد. تشكّلت تشكيلها الثاني، على صورتها المشتهاة. جارية في العشق. تعتاد جموع المعجبات به، المتأنقات، غاويات الحديث عن الفن. والزينة ونظرات الغنج تفضح حقيقة النوايا المنشغلة بغير الفن.

أو تفتح الصحف لترى صوره مع حسناوات المدينة. شقراوات أو بلون البرونز. ومع كل صورة إشاعة عن مغامرة أو ارتباط.

وأخبار عن حفلات يقيمها في يخوته مرّة في بيروت وأخرى في كالياري أو نيس.

ولوحات يرسمها من وحي هذه أو تلك..

نعم..فقد ارتضت كل شيء نظير أن لا تتخلى.

لا غضاضة! كثيرون غيرها ابتلوا بالآفة ذاتها. فقدوا التوازن والسلطان فبحثوا عن الحلول الموازية وعرفوا الدروب إلى المنجمين.

كثيرون، شهدوا في أقبية التنجيم ساعة ولادتهم وارتسمت صور محبّيهم على الجدران!

كثيرون..أباطرة، أمراء أو خدم. أو بسطاء مغمورون، مثل أولئك العاملين في الأرشيفات، المنكفئين على تنضيد الكتب العتيقة، يحيّونك بعيون ناعسة، وتقاسيم ذابلة فلا يخطر لك أنهم جديرون بهذا. ثم يأخذك الذهول حين تسمع بجريمة ارتكبوها بدافع العشق! نعم..فكل شيء في عالم الحب ممكن وكل أحد فيه متهور. وهي قد تهوّرت وجنحت وارتضت كل النهايات، كل الالتباسات إلا هذه: أن تدخل البيت لتجد نفسها في ذاك الموقف، وجهاً لوجه

مع أختها ريما!

الوقت صباحاً يقارب الفجر وهي عائدة من المستشفى إلى ذويها بعد أسبوع من الحصار والمعارك. الصباح فيه كالمساء والليل كالنهار. ما عدتَ تميّز غرف الجرحى من غرف العمليات ولا الطبيب من عامل التنظيفات. الكل مأخوذ بلملمة الأشلاء. يهربون من جناح لآخر. يسهون عن الأموات ويلوذون بالجرحى في الزوايا والممرّات. ولما أُعلنت الهدنة سارعت في الذهاب إلى البيت قبل طلوع الصباح.

صعدت سلّم العمارة متمسّكة بالدرابزين، فالظلمة شديدة والكهرباء مقطوعة وبطاريتها فارغة والعمارة نائمة. المدينة بأسرها بعد جولات القتال تلوذ، منهكة، بالصمت والنوم. وها هي تصل وتقف أمام الباب وتعثر على ثقب المفتاح وتفتحه وتعبر المدخل تكاد تتجه إلى غرفتها. .لكن النظر كان سباقا والعين وقعت في العين!

وهي في هذا الموقف الملتبس ترى ولا ترى.

أو أنّها ترى فلا تصدق رؤيتها: أن تقف هكذا وبلا وساطة وجهاً لوجه مع أختها ريما!

ما الذي حدا بريما للوقوف هكذا بمواجهة الباب والدنيا قبيل الفجر؟

لا. .هذه ليست ريما!

ريما في مثل هذا الوقت، بعد ليالٍ طويلة من المعارك والخوف تخلد إلى النوم في حضن أمها.

إذا كانت أختها ريما نائمة الآن في حضن أمها، فمع من تقف إذن وجهاً لوجه؟

إنها تقف مع صورة ريما والريشة ريشته لا مراء في ذلك!

لا مراء. فأسرع النظرات المنطلقة من عين الملهوف: الصورة صورة

ريما والابتسامة ابتسامتها تطل من اللوحة المرسومة بما لا يمكن أن تخطئه العين.. بريشته هو.

كبيرة وموضوعة على الطاولة في صدر البيت.

الطاولة التي كانت تحمل شمعدانين تركيين ثمينين. أحد ما نقلهما ليضع الصورة مكانهما بانتظار أن تُعلّق على الحائط.

وهي أدركت كل هذا بالنظرة الخاطفة. نعم.. فأبلغ الحسابات حسابات القلب!

وأضاءت بطاريتها وصوّبت النور إلى اللوحة فأشرقت الابتسامة على ثغر أختها لتقفز على الوجنتين. أختها التي بفستانها الأصفر تبدو أشد جمالاً مما تكون عليه في حالتها القصوى من شموخ الجمال. فتظهر لا كما لو أنها في قلب لوحة بل وكأنها في قلب العالم. متربعة على عرشٍ رفعته العناية الإلهية، تطل منه على عالمنا المفتون وذراعاها العاريتان وقميصها المفتوح عند الصدر يزيدانها فتنة. وعظمتا كتفيها.. عجباً! بل وكل العجب! فالفنان يوم شاهدها تعزف في الحفل كانت ترتدي الفستان الأصفر ذاته. إنما ياقته، في واقع الحال، تغطي الصدر حتى العنق وأكمامه تنزل من الكتفين حتى الرسغ، فكيف كشفت العين عري المفاتن المخبأة؟

وقرّرت أن تجابه.

وقفت بوجه أمها وقفة جسور في محكمة

ضربت الطاولة وصرخت: هذا لا يليق بريما. لا يغشنكم المظهر. لا يغشنكم الثراء. لعوب لم يترك فتاة في المدينة لم يرسم لها الصور!

تقاوم.

لا تدري لِمَ تقاوم. لا تدري إن كانت تفعل بدافع جامح لاستعادة محبوبها. .أم بدافع صادق لإنقاذ أختها من ورطة لا قدرة لها عليها؟

لا تدري. وإن كان ملؤها الرّغبة في أن تسدّد لهذا اللّعوب ضربة انتقام. وملؤها اليقين بضرورة أن تحمي اختها من غرّير مزيّف. وتمضي ساعات اليأس تخطط. نعم. .إن كانت الوهلة الأولى لرؤيتها اللوحة ميلودرامية وأجدر بفيلم يسعى إلى هزّ المشاعر، فالأيام التالية كان من شأنها قلب المعادلة، لتخرج هي من صورة الضحيّة التي صارت إليها وتنتقم.

هكذا صارت تلاحق أمها بالحجج:

ـ مغرور مزيّف، لا يبحث عن امرأة يحبّها بل عن لعبة يزهو بها. وزواج مثل هذا غير ما يخيّل لكم. .هذا ليس زواج الأميرة من الأمير، بل أشبه بزواج الغزالة من الأسد.

وتحاول أن تترجم أفكارها لأبيها لتكتشف أن لسانها قد لُجم. أو أن

الكلام من ذهنها تبخر. فتتحفز إذاك لتحرّض ريما. وما أن تهمّ بذلك حتى تصطدم بمشكلة تواصل وإيصال. ويخطر لها أن تمسكها بكتفيها وتهزّها لتنطق بالحقيقة. فلتعلن أنّها تمقت الزواج من هذا الرّجل. أو تصرّح بأنّها تحبّه.

ـ إن كنتِ تحبينه قولي أحبّه..

وريما، ردّاً على سؤال أختها تسكت. فيما معالم وجهها تبدو صامتة ومنسحبة بلا تعبير.

ماذا يعني صمت أختها في هذا الموقف؟

وانسحابها ماذا يعني؟

ومعرفتها بأختها تقدم لها الجواب:

صمت مثل هذا لا يبدو قبولاً كما يشير المثل الشائع، بل استسلاماً لزواج يعوزه الأمان والحب. وأمها انبرت للردّ:

ـ ريما صغيرة وبريئة لا تعرف بشؤون الحب. ورجل خبر الحياة وعلى هذا المدى من الرّقي سيعرف كيف يجعلها تحبّه.

وخبطت دالية الطاولة وصاحت:

ـ كفى أوهام! هذا نَزِق غير مفتون إلاّ بنفسه. منذ متى كان يؤتمن فنّان على فتاة صغيرة؟ سآخذها وأسافر لأخلّصها من شرّ هذا الدّعي الرخيص..

تقول هذا، وأمها تصغي مذهولة!

يذهلها سلوك لم تعهده بابنتها. أن تتهور لهذا الحدّ وتمقت شخصاً لا تعرفه! وتتفوّه بحجج وأفكار عجيبة.

ما العيب في أن تتحدث بثروة أبيه الأرقام! بثروة مَن كانت ستتحدّث!

أيّ ضررٍ أن يقتني ثريّ اليخوت! ومن غيره سيقتنيها؟

ما العجب أن تلهث وراءه الجميلات! وراء من كنّ سيلهثن؟

ما الغريب أن يستجيب فنان عازب ويرسم للمغناجات الصور!

متاحف الدنيا ملأى بصور أولئك المغناجات..

ولما تكرّر الموقف، انتهت الأم إلى ذاك التفسير بأن ليس لديها أيّ تفسير لسلوك ابنتها المناقض للمنطق. ابنتها دالية. أختها، رفيقة دنياها.. دالية التي طوال حياتها كانت تعتبرها مرجعاً للحكمة والمنطق.

وتحاول الأم أن تشكو أمرها للمربية منصورة. وإذ تراها حذرة متردّدة ولائذة بالصمت، تستنتج أن موقف منصورة لا يعدو كونه موقف دالية مختلف التعبير.

وتذهب دالية كما في السابق الى صديقتها دنيا وهذه تحرّضها.

- لا تستسلمي، خوضي معركتك. دافعي عن مملكتك. افضحي خفّته. ينبغي على المرأة أن تنتزع حقها في الحبّ كما تنتزعه في العمل والميراث.

وبمرور الوقت صارت دنيا تقول لها أشياء أخرى:

- اعتادت المرأة على تعظيم الرجل الذي تهواه. وعلى الأرجح أنها لا تعظّم شأن مَن تهوى، بل تهوى شأنه العظيم كما تأصّل في أعماقها.

أو تفاجئها بما هو أغرب من ذلك:

- زمنك داخلك لا مفرّ.

لكن.. ما دخل الزمن بكوارث الهوى؟

- كلما ودّع زمن زمناً سالت دماء وكنتَ أنتَ الضحية.

عجبا! هي تشكو واقعة حبّ وصديقتها تترجم الحكاية إلى ظاهرة اجتماعية تدور فصولها في شرنقة عائلية آن الأوان لفك اشتباكها. أو تدور

في رحى ظرفٍ تاريخي استثنائي عنيف، وقد كتب عليها أن تكون هي أو غيرها، من ضحاياه.

إلى متى؟

ـ إلى أن يُفكّ الالتحام البدائي بين الأم وابنتها. بين الأخت واختها. وانفكاك مثل هذا غالباً ما يعمّد بالدّم.

ودالية في سرّها تضيق بهذه الأقوال. وبانفكاك دموي سيحدث! إلامَ ستنتظر!

إلى أن تمر السنين وتتوالى العصور فتنجلي الحقائق أو لا تنجلي. ما هم أن تنجلي! فلتذهب إلى الجحيم اعترافات تجيء بعد أوانها.. فلتذهب إلى الجحيم مزادات تُباع فيها اللوحات بالملايين لفنانين تضوّروا بالبؤس والإنكار!

إلى الجحيم!

ما همّها أن تُستنبش السجلات ليصل باحث مجتهد ورصين إلى تلك النتيجة العادلة، أن ذاك الفنان.. في حقيقة الأمر.. كان قد وقع في هوى من أسماها بالغجرية التائهة. ثمّ.. وكما في الحكايات التي تليق بحياة الفنانين المضطربة ذوي الأمزجة المتقلّبة.. لم يقطع أذنه ولم يهجر زوجته وأولاده ولم يهاجر بل أحبّ أخت الفتاة التي وقع في هواها من النّظرة الأولى والتي تعبد اختها..

ودالية تقسم لدنيا، وهي على حافة الانهيار، على خطتها للانتقام منه. أو تسترحمها الجواب إن كان الأمل في استعادته قد أَفَل..

وانهيارها على هذا النّحو وتناقض مواقفها يثير سخط دنيا:

ـ مزيّف لا يستأهلك تقول لها. إنزعيه من رأسك. العالم مليء بالرجال. سيذهب ويأتي غيره.

وتضحك لتخفّف عنها وتضيف:

- أكثر من هموم القلب.

إنما هي لا ترى رجالاً وإنما مدينةً فارغة!

بل إن العالم بأسره أضحى فارغاً إلا من هذه المأساة.

ومن اندفاع الفنّان للحوز بكلمة نعم. واستعجاله، هذه المرّة، لتتويج اللحظة الجمالية في عالم الواقع. ليمضي أمسياته ساهراً يرسم اللوحة. ويكملها في فترة قياسية ويفتن بها الأم. فتنة ما بعدها فتنة. تلك التي تشقّ الدّرب إلى النفس بالضربة التي لاتخطئ: أن يعشق ابنتها فنان ثريّ تلهث فتيات المدينة خلفه، فيما يلهث هو وراءها. ليمضي حياته بعد ذلك منشغلاً بتخليد جمالها وعائلته منشغلة بالبذخ عليها.

الفتنة ذاتها التي قادت الأم في ما بعد إلى حتفها وقادت دالية إلى دربها البائس. نعم فأمرها بات محسوماً ولا بديل عزائي. وهل إذا دُكّت المملكة التي تتربع على عرشها أمكنكَ أن تغدو سلطاناً على مملكة أخرى؟

هكذا كان عليها أن تفرّ من وجه أختها، فرار جندي يائس أمام عدوٍّ بائس. ليت المدينة صحراء أو ليتها حقل فارغ، بل ليتها غابة وأشجار تتصايح فيها الوحوش. يا إلهي. .إن كانت الرؤية، بسبب الأشجار تتعذر، فبحق السماء أيّ شجرٍ حجب عنه آنذاك رؤيتها، هي، مَن وقع في هواها من النظرة الأولى أيضاً؟

٤

لم يكن رجلاً يا سادتي،

كان طيفاً. وهل من قانون يحرّم قتل الأطياف

أملها الأخير أن يُرفض كما رُفض غيره.

أن يُقال رآها تعزف في الحفل فوقع في هواها ثم تقدم لخطوبتها لكن أمها قالت لا، فهو ليس بالزوج الملائم لريما.

وتنزع ريما الفكرة من رأسها وتغفو مرتاحة البال. وتنهض في اليوم التالي من نومها متأخرة وقد نفضت عن نفسها غبار الأيام السابقة. وتتزيّن بماكياج خفيف لفتاة لم تؤهّل للزواج بعد. ثم تجلس إلى آلاتها تعزف أو تذهب إلى المسرح تتدرّب على عرضها القادم.

أمل أخير يغشاه اليأس، فالتحضيرات تتسارع. وهي تراوح بين موقفين: الاستمرار في الدفاع عن مملكتها أو قبول الأمر الواقع وإنقاذ كبريائها الذي ما زال طيفه قائماً في البيت.

تتحاور مع نفسها وحين تقابل أمها تلوذ بالصمت. وأمها تراها صامتة وحانقة فتصمت بدورها. ولما تأكد لها إصرار أمها على الخطوبة، داست على مشاعرها وراحت إليها تعتذر. تقول سألت عنه فقيل لها إنسان خلوق وهو على الأرجح الشخص الملائم لريما.

وأمها هتفت:

ـ إذن يمكننا البدء بالتحضيرات.

هكذا شرعوا بها.

فيما ابتعدت هي عن دائرة البيت.

ابتعدت حتى صار وجودها فيه شكليّا. وسارت في دربها البائس الذي حذّرت منه فاطمة البصارة. بنظر أهلها كانت تمضي الأيام في المستشفى بعد أن ازدادت مسؤولياتها بهرب العديد من الأطباء من الحرب. ومن ناحيتها، كانت خطوبة أختها الحدث الذي أحل المسافة بينها وبين سكان المنزل..

سارت في دربها البائس، لتلج ذاك العالم فاقد الضوابط الذي لو دخله ابن آدم لتعذر عليه الخروج منه. هناك حيث أفعالك تسبقك. حيث لو جلست تناشد روحك الخلاص من المتاهة، جرفتك الدوافع إلى متاهة أعتى!

هكذا تعرّفت برجلها الثاني الذي اكتشفت فيما بعد شذوذه.

وحين انهارت لجأت إلى بيت دنيا محمومة تهذي. كيف راودتها الفكرة لتسوق نفسها إليه؟

الوقت كان قبيل الفجر والمدينة كانت غارقة في الصمت والليل وهي نزلت إلى كورنيش المنارة تنشد مداواة روحها الممزقة. الشمس لم تشرق بعد أو لعلّها أشرقت لكن غيوم الخريف تكدّست ساعتئذ عند المنحنى الشرقي لتحجب الإشراق وكانت هي تبحث عن منفذ إلى الشاطئ.

ولاح لها من بعيد عدد من الناس يهرولون على رصيف الكورنيش. من أولئك الذين يترقّبون الهُدَن ليمارسوا الهواية الوحيدة المتاحة لهم. وخيّل لها أنّ الرجل كان في عداد هؤلاء، وأنه لو رآها فسيدعوها إلى بيته وستلبي هي الدعوة..

هل كان حقاً في عدادهم؟

لا تدري.

جلّ ما تذكر، أنه ما إن تراءى لها طيفه أو طيف مَن يشبهه، حتى

هبّ من باطنها ذاك الدافع الذي لم تعثر له يوماً على تفسير. أن تذهب إلى مَن مقتته روحها منذ اللقاء الأول. هكذا ما إن رجعت إلى البيت، حتى اندفعت إلى أدراج مكتبها تبحث بين الأوراق عن بطاقته، لتكلّمه، وخوفها على أشده من أن تكون، لكثرة ما فكرت برمي البطاقة في الزبالة، قد تهوّرت ورمتها بالفعل.

كان يستفزّها أن ينظر لنفسه نظرة رجلٍ متعارفٍ على وسامته، فيما تراه هي قبيحا منفّرا. واستفزّها أكثر حين ابتسم لها، وهو يناولها بطاقته، تلك الابتسامة التي يخالها لا تقاوَم ويخال المعنية بها قادمة حتماً إليه! وخطر لها أن تصفع كيانه المغرور فتمزق البطاقة وترميها على الأرض أمام عينيه ثم تدوسها بحذائها.

عجباً، كيف تكون متأكداً من شيء ثم تنفي تأكدك منه بخبطة عشواء! هكذا نفت هي ما كانت أكيدة منه، وهبّت تبحث عن البطاقة، لتعثر عليها وتكلّمه ويدعوها إليه فتلبي على الفور الدعوة.

وبدأت تتردد عليه لتكتشف غرابة أطواره. فأوّل زيارة له كانت أوّل اغتصاب لها وأوّل اعتداء عليها بالضرب.

يا للغرابة!

إن كانت قد ذهبت إليه بملء إرادتها فما الذي دعاه لاغتصابها؟

ولِمَ حين اكتشف أنها عذراء تملّكه الغضب.

وأيّ غضب؟

كيف حين أسلمته نفسها وقبل أن يأخذها لم تخبره أنها بعد عذراء؟

يسألها هذا ويركلها.

وهي في هذا الموقف الملتبس البائس، لفتاة احتفظت لهذا الحد بعذريتها. وحلمت لهذا المدى، بأن تهبها للحبيب الأول المشتاق، لتنعم

بعد ذلك طيلة حياتها بالثمرة. . في هذا الموقف تكاد الخيبة تشلها والذهول!

ما وجه الاستفزاز في أن تبقى إلى الحين عذراء؟

وأيّ سرّ جعله ينقلب على المفاجأة التي أرادتها له مصدر زهو وسعادة؟

وهل لو أخبرته بعذريتها، كان سيرفض أن يفضّ بكارتها كما يرفض ذلك بعض الرجال الذين سمعت بهم من أستاذ لها في فرنسا؟

أيرفض رجل شرقي أعظم التخيّلات التي يلهج بها منذ بكارة تفتحه!

ويستمر هو في التحقيق معها وتعبير على وجهه غريب يتراوح بين الغضب والهلع:

كيف أخفت عنه هذا؟

كيف لم تخبره من قبل؟

كيف تفوّت عليه متعة التحضّر لأعظم متعة يحلم بها رجل؟

قال هذا ثم جرّها إلى السرير ليغتصبها ثانية. ليتلقف بقايا اللذة التي ضاعت منه وأشلاء الخيال العظيم المصاحب للاختراق ولمنظر الدم بين فخذيها وعلى الفراش.

الخيال المشتهى الذي جعله يحبسها تلك الليلة في الشقة ليذهب إلى موعدٍ هام لديه ويعود إليها والذي جعلها من ناحيتها ترضى.

المشتهى الذي لا يتكرر والدّال على احتفاظها بهذا كاملاً له هو وحده.

رجلها الأوّل.

سيّد الرجال وسيّد جسدها وسيّد روحها.

له وحده الرمز المتأصل في أعماق ذاتها وذات أمها وذوات جدّاتها والقريبات والجارات. يهجسن به وهن يتبادلن الأحاديث بشأن أمور حياتهن العابرة. يهجسن به وهنّ ينقين العدس ويقطّعن الخضار ويغسلن الصحون. .

أو أولئك اللواتي يلففن ساقاً على ساق بينما يتناولن الشاي والكيك في الساعة الخامسة بعد الظهر. .

الرمز المتأصل في نفوس المتسوّلات ذوات الشعر الرمادي القذر واليدين المعروقتين والأظفار النتنة وهن يتسوّلن في الشوارع. والمتأصل في نفوس زميلات المدرسة وهنّ جالسات بجانبها على مقعد الدراسة يتحضرن للإصغاء منذ أن كنّ في السابعة أو قبل هذا بسنين. .

وصديقاتها اللواتي تعرّفت بهنّ في جميع مراحل حياتها، كلّهن يهجسن به ويصَبن بالهلع لفقدانه. فخسارته قبل الأوان أفظع الخسارات. لا بل هي تلك التي بعدها تفضل الأنثى الموت. خسارة الدّال الأسمى الذي به تنتزع الأنثى الحق من الزوج والعائلة ومن المجتمع. لذا فلا عجب أن تَطلب الواحدة منهن، دالية أو غيرها، من هذا الذي وهبته شرف نيله ما يُطلب من أي رجل: أن يبذل ثمن الجرح العظيم الذي أنزله بها والذي لا يلتئم ولا سبيل لتصحيحه، فيحتفظ بها مدى العمر زوجة شرعية بين الناس.

نعم زوجة.

دالية تطلب منه ذلك وتلح بالطلب. وإلحاحها بات يثير غضبه. كلّما طلبت منه ذلك ضربها وحذّرها من العودة لذكر الزواج ثانية، فهو خاطب ويعبد خطيبته ولا يريد لأي شيء أن يخلّ بعلاقته بها مثل أن تلحّ عليه هكذا. وهي رغم خوفها وتهديده تستمر في التوسل. تؤكد له على أنه لو تزوّجها فستجعله أسعد رجل في الدنيا.

أسعد زوج.

وتكون له خادمة بل جارية من الجواري تستعطفه. إذ ما عاد بوسعها الإقلاع عن الفكرة، فقد أحبته من ذاك الحب الذي لا يمنحك رفاهية التخلّي أو التأجيل. والرجل الذي في ما مضى وجدته مستفزًا وأشبه

بحيوان صار بنظرها جذّاباً جاذبية لا تُقاوَم. حتى أنساها الفنان وأنساها حكاياتها معه، تلك التي أضحت ذكرى بعيدة باهتة وخليقة بتسلية المراهقات. وما عادت منشغلة بالأشجار ولا بالغابة إذ أضحت هي الأشجار وهي الغابة، تلك التي تتسع لأبنائها جميعا، أبرياء قويمين كانوا أم ذوي شذوذ.

وتتسع له مهما قال وفعل.

حتى ولو أجبرها على أن تجهض نفسها.

حتى ولو استدرجها إلى ذاك الوكر بغية أن يتناوب عليها مع آخرين غيره، لولا أنها في آخر لحظة انتشلت نفسها ولاذت بالفرار.

تتسع له، حتى وإن طالبها بأن تدبّر له فتاةً عذراء، هي، العليمة بخبايا المدينة وخفاياها، لن تعدم وسيلة للعثور له على عذراء.

صغيرةً كانت أو شابةً بالغة.

تتسع. فلا تأخذ طلبه الرهيب مأخذ الجد. ولا يمكنها تصديقه رغم إلحاحه ورغم لحظات التصديق. ويخطر لها أن تهرب وتنجو بنفسها. أو ترحل بعيداً إلى فرنسا فلا تعود تراه أبدا. وتتساءل عن مغزى ما يحدث لها ومغزى تعلّقها به فلا يرد في خاطرها أيّ جواب!

ولا تكاد تتخذ قرار القطيعة حتى تجد نفسها عائدة إليه. فيما تتخيّله يغتصب أختها ريما، وهذه تحته، هلعة عارية الفخذين وهو يمزق جسدها الطري وريما تستغيث بصوتها النحيل وبعينين مذعورتين. ودالية، لهذا المشهد، صارت بعد أن تغادره، ترجع إلى عيادتها وتسجن نفسها في الحمام وتلطم خدّيها وتشد شعرها وتتمنى لو تفقأ عينيها أو تقطع شرايين يديها وترتاح من اغتصاب أختها المتخيّل الذي دبرته لها بنفسها. ولو تسنّى لها ذات يوم أن تسجل وقائع هذه الفترة العصيبة من حياتها لذكرت أنّه في تلك الفترة التبس عليها الأمر التباساً جعلها تفقد شعرها الطويل

الجميل. فتضحي صلعاء تماماً وتضطر لوضع البيروك ريثما ينبت شعرها من جديد.

تقرّر أن تهجره بلا رجعة وتنكر أيَّ أثر له في حياتها. وهو من ناحيته لن يكون بوسعه أن يعثر لها على أثر، فاسمها الذي يعرفها به اسم مستعار. لا تدري ما الذي جعلها تنتحله. تقرّر ذلك لتعود إليه وتركع عند قدميه تسترحمه. تعده لو تزوّجها أن تنسيه أفكاره الشاذة. وصارت هذه الفكرة هاجسها: أن تنتشله من العالم الموبوء الذي استُدرج إليه!

وكلامها عن الشذوذ وصحبة السوء والموبقات يفقده صوابه فينقض عليها بالضرب، حتى أنها في المرّة الأخيرة أحست نفسها هالكة بين يديه.

هالكة بالتأكيد، لولا تدخل المصادفات. ففي تلك اللحظة، اشتد القصف ودنا وسقطت قذائف على العمارة لتدكّ الأدوار العليا منها. واهتز المبنى ومالت جوانبه إلى هذه الناحية وتلك وتخلخلت الأبواب وتأرجحت ضلف النوافذ وتناثرت قطع الحجارة والزجاج والتراب. جلبة عظيمة ضربت المكان. من تلك الجلبات التي تصاحب الزلازل وتدكّ المدن ويتحدث بها الناس طويلاً بعد ذلك.

قصف وجلبة زلزال أعقبهما الصمت!

أيّ صمت رهيب انتشر بعد ذاك؟

وهي تنتظر أن تعود الجلبة لكنها لا تعود!

تحدّق في الصالة فلا ترى الرجل. بل يتراءى لها ظلّه زوبعةً من دخان. وسمعته يسعل. وتناهى لنظرها خيْطان أسودان يخرجان من فتحتيّ أنفه. ورأت طيفه يمشي على الشظايا فيتحول وقع قدميه إلى أمشاط من دم.

وهرعت من الصالة إلى المطبخ ومن المطبخ إلى الصالة. لا تدري كم مرّةً فعلت هذا ولا لأيّ سبب!

وفي كل مرّة كانت تهمّ بالهرب لتجد المدخل مسدوداً بضلفة الباب المخلوع. ويخيّل لها أن سلّم العمارة هو أيضاً قد دُكّ وهوى فظلّت العمارة معلّقةً في الفضاء بلا سلّم وقد بات عليها أن تجد بنفسها المخرج!

تذكر أنها في تلك اللحظة، والمشهد صمت وباب مخلوع وعمارة بلا سلّم.. خطرت لها فكرة قتل الرجل.

وتذكر أنها ركضت إلى المطبخ وخطفت السكين ثم اندفعت إلى الصالة والرؤية لا تزال غائمة وسميكة. وخيّل لها.. أنها نزلت به من الخلف، كما في الأفلام، بالضربة تلو الضربة، والسكين لعجبها هش خفيف! كأنها لا تضرب في لحم وعظم بل في غبار العاصفة!

وتذكر أنه لما في ما بعد.. تراءى لها الرجل مطروحاً على الأرض ألقت السكين ودفعت الباب المخلوع ولاذت بالفرار.

هربت قبل اكتمال المشهد: لم تقطّع جسده ولم تضع أوصاله في أكياس الزبالة الكبيرة السوداء التي كَثُر استخدامها في الآونة الأخيرة بين النساء العاشقات، أولئك اللواتي يقتلن عشاقهن الخونة أو الأزواج.

لم تفعل هذا، فالغريزة قادتها لتدبر عن المكان. لا تذكر كيف، ولتجد نفسها، في عزّ القصف، تعدو في مدينة خالية. حليقة الشعر وحاملةً، على غير وعي منها رأس مصباح. تمسك به من عموده النحاسي وتعدو هلعة في شوارع ضُربت لتوّها. شوارع مقفرة تعدو فيها بلا وجهة ولا هدف.

تعدو حليقة الرأس على وقع القذائف. وعَلَمها رأس مصباح من جلد غزال، لا تذكر كيف انتزعته من بين الركام من شقة الرجل.

تعدو، لتجد نفسها أمام بيت صديقتها دنيا.

وما إن دخلته حتى انهارت. ثم مرضت. لا تدري بأيّ مرض ولا لِمَ ارتفعت حرارتها وظلّت أسبوعين تهذي بمقتل الرجل.

ماذا لو كانت حقاً قد قتلته؟

وأين إذّاك ستجد المفر؟

في النّوم تقتله وفي اليقظة تؤكد لنفسها على أنها ليست قاتلته.

ليست. وإن كان قد داخ وترنح أمامها ووقع على الأرض.. وإن كانت تضبط نفسها تخطط للانقضاض عليه من الأمام، عند العنق تماما، بالضربات القاضية، وهو يلفظ أنفاسه بين يديها ذليلاً مذعوراً وجاحظ العينين.

ليست. بدليل أن قاتلةً غيرها، كما نشرت الصحف، هي التي فعلت. وأنها ولغرائب الأمور، هي أيضا شابة، كانت بمفردها وقد ارتكبت جريمتها بدافع الانتقام!

ليست.. بدليل أن الفاعلة الأخرى أكملت المشهد بحذافيره، فقطعت أوصال الرجل ووضعتها في الأكياس الكبيرة السوداء..

ليست. .بدليل أنه، في زيارتها الأخيرة له، كان يرتدي بنطاله الأسود وقميصه الأصفر في حين تُظهره صوَر المجلّة لابساً بيجامته الكحلية المقلّمة.

ليست. بدليل أعظم القرائن: التاريخ.

يشير التحقيق إلى أن الجريمة وقعت يوم الخميس قرابة منتصف الليل، فيما زيارتها له كانت يوم الثلاثاء بعد الظهر.

عجباً! بفارق يومين فقط وبضع ساعات!

من تكون الفاعلة، تلك التي رغم فظائع الحرب، ضجت بانتقامها الصحف؟

إذاً، هي موقنة من براءتها. يقين لا يعبث به سوى هذا الفيض من المشاهد التي توسوس لها في الليل وتتصدّى هي لها في النّهار.

كيف ستتمكن من إثبات براءتها؟

كيف تقنع القاضي المتعفّن الجلد والملابس، خلف منصات المحاكم الخشبية المقيتة ذات الطابع الفكتوري؟

وكيف تدحض مزاعم المدّعي العام، هذا الذي طالما كرهت دوره في الأفلام؟ دور خليق بالعصور الوسطى، لا همَّ له سوى التّذنيب. سيّان عنده مجرم أو بريء. وهذه المرّة، كما في كل مرّة، سيحلو له تفنيد الحجج:

لا ليست بريئة.

بعلامة الشعر المستعار. والاسم المستعار.

نعم ما الذي يدفع بطبيبة جرّاحة إلى حلق شعرها على الزيرو، كرجال المافيا، سوى غرابة الأطوار والمبالغة في استخدام المؤثرات للسيطرة على الخصم؟

وكيف ستدافع إذّاك عن نفسها؟

أتقول إن طيش أمها هو السبب والصلع هو البرهان؟

طيش أمها الذي لا أحد خبره كما خبرته هي!

أمها التي رغم تراكم السنين، ظلّت أمينة لمراهقتها. أمها التي أتمت الخامسة عشرة يوم أولدتها، فلم تتمكن من إرضاعها رغم مساعدة المرضة. إذ لشدة توترها ولهفة الطفلة، سرعان ما كان الثدي يفلت منها. كان على الجدة أن تلازم ابنتها طيلة الإرضاع لتمسك بالثدي وتتأكد من دخول الحلمة في الفم الصغير.

هكذا ومنذ الشهر الأول قرّروا فطامها.

المراهقة التي غالباً ما تضطرها أن تكون هي، دالية، الأم وتلك ابنتها ذات الطيش المستعصي. طيش جعلها تضع مزيل الشعر في الدرج ذاته الذي تضع هي فيه معجون الصبغة، ويختلط عليها الأمر يوم أرادت تغيير لون شعرها وتقع الواقعة.

الواقعة التي صُعِقت لها حين نزعت الطاقية عن رأسها وفوجئت بشعرها الجميل الطويل وقد انتُزِع معها!

ـ لا. ليست بريئة. إن كانت هذه حجة الشعر المستعار فما حجة الاسم المستعار؟

«يا حضرات القضاة والسادة.

لا تخفى على أحد عظمة المصادفات في كشف الجرائم. المصادفات، حليفة المحققين، التي أدّت دورها الرائع هذه المرّة، كما في كلّ مرّة، لترتّب لقاء المجرمة بقريب الضحية، بعيد جريمتها هاربة على سلّم العمارة! وهو، وإن فاته التعرف بها في تلك اللحظة العصيبة، في عزّ القصف، وهي تعدو حليقة كالرّجال. .إلا أنّه وبعد انكشاف الوقائع، انجلت الصورة في خياله: ما هذه الصلعاء رجلاً كما خُيّل له وهي فارّة أمامه. بل

هي الفتاة ذاتها التي تتنكر بشعر أجعد طويل. ذاتها صاحبة العينين السوداوين الواسعتين، واللّتين، لهول الجريمة ازدادتا اتساعا لتبرقا بذاك البريق الفظيع.

يا حضرات المحلّفين. . بات في وسعنا الآن ترتيب الوقائع : العشيق، في عراكه مع المتهمة، نزع شعرها المستعار ورماه أرضا أمامها مما أخرجها عن طورها. لا شيء يشعر امرأة بالمهانة مثل أن تقف صلعاء أمام رجل تسعى لغوايته. لا ريب أنها في عراكها معه، ولحظة وقوع القذيفة على العمارة وارتباك الرجل، انتهزت هي الفرصة لتستل سكينها وتنقض عليه. وكما في كل الجرائم، تقودك آثارها المغْفَلة إلى خطى مرتكبيها. . هكذا قادتنا الباروكة التي نسيَتْها في المدخل إلى الجانية. وما الاسم المنتَحل، لبطلة فيلم أجنبية اشتهرت هي أيضاً بقتلها عشيقها، سوى الدّلالة الأخيرة على القتل. فالأكاذيب كما الأحلام تحمل رغبات صاحبها. وهل تُخفى إشارات مثل هذه على محكمة اليوم؟»

تُخفى نعم تُخفى.

تُخفى على قاضٍ بليد.

ومحققٍ صلفٍ دوره خليق بالعصور الوسطى، لا همّ له سوى التذنيب. قاضٍ يستنبش جميع القرائن للإدانة ضارباً بعرض الحائط أعظمها: التاريخ.

التاريخ الذي شهادته هي آخر الشهادات.

تُخفى على من يزعم العلم بالإشارات، غافلاً أبلغها: الصمت.

نعم، فالصمت كان هو المسؤول.

ذاك الذي ساد بعد انفجار القذيفة

صدى جلبةٍ رهيبةٍ ضربت لتوّها المكان

ظلّ دويّ أبديّ

وكلّ شيء تحوّل بعد ذاك إلى فراغ!

لم تقتله بل ضربت في رماد. لم يكن رجلاً يا سادتي، كان طيفاً. والمحكمة بأسرها باطلة. فهل من قانون يحرّم قتل الأطياف؟ لا ما من قانون يحرّم قتل الأطياف. وإلاّ فكل أحدٍ قاتل. كل أحد قاتل. كل أحد..

ونصحتها صديقتها بالسفر. أو برؤية طبيب. واستجابت هي للنصيحة. وقال لها الطبيب:

ـ يلزمكِ نقاهة. سافري.

فيما كانت دالية مستغرقة في حكايتها الغريبة مع الرجل، كان الجميع منشغلاً عنها بالترتيبات. وفي مرورها الذي صار نادراً بالبيت تسمعهم يتحدثون بها: فستان العرس وحفل الزفاف والمدعوين. والفنان بكلامه المنمّق يتحدث عن جدارية شرع بتحضيرها هديةً للمناسبة. جدارية، كما يقول، «من النسق الاندماجي، تولّف ما بين التصوير الزيتي والفوتوغرافي. وتُنفّذ على مراحل مواكبةً الحدث.»

إنه الآن في طور التخطيط للمرحلة الأولى منها، أي للصورة التذكارية التي ستسبق العرس:

«تحت صورة ريما الأولى، وهي تعزف بفستانها الأصفر، سيجلس هو وهي في الصف الأمامي على الأرائك الشرقية العالية. ووراءهما تماماً تقف جدته، حفيدة مدحت باشا التركي.

وإلى يمين الجدّة ويسارها يقف والداه وأخته ووالدا ريما وأختها.

وتقف معهما أستاذة الرقص التي كان لها الفضل في تعارفهما.

ألوان الملابس ستكون زاهية رقيقة الحضور، كي لا تخدش البياض العرسي الذي سيدخل عليها لاحقا.»

«ويوم العرس سيجلس هو وريما أمام الصورة التذكارية. على الأرائك ذاتها إنما بطريقة متعاكسة. كلاهما أمام صورة الآخر حتى ليلتبس الأمر على

المشاهد فلا يميّز اللوحة من المشهد الحيّ. هكذا تعايش الجدارية المناسبة وتنمو بها مرحلةً مرحلة إلى أن تكتمل بالمشهد الأخير، يوم الزفاف. إذ لا معنى للفن خارج نسيج كثيف. ما لا يمكّنك من قراءة عناصره طبقاتٍ طبقات. كل طبقة تحمل مغزاها الخاص بها، ومجتمعةً تتوحّد بمغزاها الأخير.»

كان من الصعب على ريما أن تدرك أبعاد الكلام الذي يصوغه خطيبها!

ولا الأم كان بوسعها أن تدركه أيضاً، رغم انبهارها بفكرة الجدارية التي ستتحدث بها المدينة طويلا، والتي أصرّ خطيب ابنتها على أن يوضع تحتها بارافان نصفي لحمايتها، على غرار ما شاهدته في بعض متاحف أوروبا. إذ لا بد، كما يقول، من إحلال المسافة بين المُشاهد والمشهد.

من الصعب عليها..

فهي على أي حال منهمكة بإجراء التعديلات التي اقترحها الفنان: صالات الاستقبال الثلاث، وغرفة الطعام، رغم اتساعها، لن تكفي ليأخذ الاحتفال أبعاده المبتغاة. إنما لو فُتحت غرفة الجلوس عليها. لو استُبدل حائط الباطون بفاصل جرّار، لاتسعت المساحة وتعدّدت أوجه استخدامها.

ووجدت الأم نفسها تتحمس للفكرة وتتفق مع مهندس الديكور على هدم الحائط واستبداله بآخر متحرك، من الخشب المعشّق بزجاج ملوّن. كما شرعت، بناءً على اقتراح الفنان أيضاً، بإعادة تنظيم المكان، وإفراغ المدخل والصالات من المحتويات الكثيرة التي تشغلها والإبقاء على القليل منها: «البيانو الذي ستعزف عليه ريما يوم العرس بعد منتصف الليل. عدد قليل من المقاعد، يتناوب في الجلوس عليها كبار السن من المدعوين. هكذا، وبفعل الفراغ الحيويّ، ستحتل الجدارية الجزء الأكبر من حيّز الرؤية. و«قبالتها، تُعلّق المرآة السورية المصدّفة العملاقة، هدية جدته للعروس، فتزيد من عمق الأبعاد وتؤذن للمدعوين، كلّما التفتوا إلى هذا النحو أو

ذاك، أن يشاهدوا الجدارية كما صورتها المعكوسة. أو بالأحرى ظلّها الخافت بفعل المؤثرات الضوئية التي تحدّث بها الفنان.

يبقى أن تُفرش السجادة الفارسية بعيداً أمام البيانو، لتتحاكى ألوانها القشيية مع ألوان تلك حسب قانون التبادل والتوافق.»

وتسمعه داليه يصوغ أفكاره بهذا الكلام المحذلق فتغتاظ. إذ يذكّرها بالمقابلة وبفنون الكلام الذي استدرجها إلى فخّه.

كما يغيظها الانقلاب الذي أحدثه في البيت وفي حياة ساكنيه. ففي خضم الترتيبات لعرس أراده منعطفاً في تقاليد المدينة، عمّت التغييرات فما بقي شيء على ما كان عليه. ولا حتى روزنامة الطعام الأسبوعية التي درجت الأم، بالتشاور مع أفراد عائلتها، على وضعها مطلع الشتاء والصيف. ولا البرنامج الشهري الذي ترسمه لنظام البيت. وما عاد بوسعها استدعاء الجزار، كما في السابق، ليأتي ومعه الخروف مذبوحاً مسلوخاً ومفرغ الأحشاء، ليقوم بتقطيعه وتخزينه في الثلاجة، وهي تساعده في ذلك مستخدمةً السكين الكبير ذا المقبض الأسود.

والبرنامج الصيفي التقليدي ذاته قد نُسف. فلم تطلع الأم وابنتيها، كما في كل صيف، إلى البلدة ليقضين أياماً استثنائية عذبة. يذهبن إلى الحقل ويشاهدن العاملات الموسميات يقطفن الثمر من على الشجر. يساعدن النسوة اللائي يتردّدن على الجدّة لتحضير المؤونة. وبإشرافها ومرح البنتين يجري انتقاء الزيتون والتين والسماق من على الشجر وشراء الزيت من المعاصر ويرين بأم العين الزعتر يُدق والسماق يُفرط وشراب الرّمان يُعصر ويُغلى في القدر الكبير والقمح الفاخر يُسلق ويُشمّس ليُستخرج منه أجمل أنواع البرغل. ثم وبعد ذلك تعود العائلة إلى بيروت متجددةً وعامرة القلب بقدوم شتاء آمن.

بدخول الفنان، برنامج العائلة كلها اضطرب!

فهو ليس كغيره من الفنانين الذين تسمع الأم بهم. أولئك المزاجيين اللامبالين ذوي الملابس المهملة والشعر الدهني والذقن الهائجة. بل هو بعكس ذلك مبالغ في الأناقة والنظافة والتقيّد بالأصول، مبالغةً أضافت على كاهل الأم عيناً خفيّة وأعباء جديدة. فبات من الصعب على العائلة، بحضوره، تناول وجبة العشاء في المطبخ كما درجت على أن تفعل. بل أمسى لجميع الوجبات التي يشارك بها طقوس كاملة في غرفة السفرة. العين الرقيبة التي أوحت للأم بفكرة توحيد زيّ العاملات في البيت. وطلبت إليهنّ أن يضعن على رؤوسهن قبّعات مثل التي تضعها ممرّضات المستشفى.. مثل هذه التغييرات، إضافة إلى ورشة الهدم والبناء وتكاثر العمال وازدياد حركة الدخول والخروج، عزّزت الشعور لدى سكان البيت أنهم صاروا عابري سبيل في منزلهم المزدحم بترتيبات المناسبة التي طال انتظارها.

الاقتراح الوحيد الذي قدمته دالية بشأن العرس، هو أن يُقام في أحد الفنادق الكبرى. لكن خطيب أختها اعترض:

«إذا كان احتفالك واجباً تقدمه للآخرين فلا بأس عليك أن تقيمه في فندق. أما إذا كانت المناسبة مناسبة عمرك فحريّ بك أن تقيمها في بيتك، حاضن ذكرياتك، لتتعشّق به تعشّق الجزء بالكل. عجباً كيف يبدّد الناس أحلى أيامهم في مكان بارد وغريب! حيث الخدم، فور انتهائك من الحفل، ينزعون لك كل أثر، ليعيدوا تكديس الكراسي وتوزيعها تمهيداً لحفل قادم!»

كما حدث سجال بين دالية والفنان بسبب إصراره على أن تعزف ريما يوم العرس. منذ متى كان إحياء العرس مهمة العروس؟ هذه التي وجودها يكفي لإشاعة الفرح وإدخال البهجة على نفوس الحاضرين؟

رُفضت فكرة الفندق فيما أصرّ الخطيب على عزف ريما. فهذا ليس بعرسٍ تقليدي، بل عرسٍ فريد يعيد النظر بالقديم وبالدخيل من التقاليد:

«لن يكون الفيديو سيّد الحفل كم بات شائعاً في أفراح المبتذلين. أولئك الذين يهتكون بؤرة المشهد بإصرارهم على أن يواكب التصوير الحدث بالخطى المملّة. لا بد من وضع تصوّر خاص لتدخّل الفيديو عبر لقطات محدّدة، تحمل روح المناسبة دون أن تكون توثيقاً مملاً لها.»

ولسماعه هذا، أبدى أحد أصدقائه السينمائيين استعداده لوضع السيناريو. جاء وتجوّل في البيت وكانت ورشة الهدم وتركيب الحائط الجرّار قاربت الانتهاء، فحدّد الزوايا التي ستؤخذ منها اللقطات. وحدّد مركز الثقل حيث سيجلس العروسان. إضافة إلى المواقع الأخرى ذات الأهمية مثل المكان الذي ستقف فيه عازفتا الأكورديون والجيتار. والركن الخفي للمصوّر ومساعديه بحيث لا يربك وجودهما مسار الحفل. وتيسّرت الخطة بموافقة دالية على استخدام غرفتها لهذا الغرض. ذلك أن غرفة ريما ستبقى بتصرف العروسين لتغيير ملابسهما في اللحظات الأخيرة من الاستعداد لشهر العسل. كما يستحيل استخدام غرفة أمها وأبيها لكثرة ما تكدس فيها من أغراض. وبإشراف المخرج شرع المصوّر بأخذ اللقطات التجريبية. فالرؤية بالعين المخادعة تختلف عنها بالصورة التي غالبا ما تفاجئك بشهادات غريبة!

الفنان يتجوّل في البيت شارحاً وجهة نظره، فيما المخرج يأخذ اللقطات. وتضايقت ريما حين طلب منها أن تقوم ببروفة العزف على البيانو أمامه. لكنها عادت وأذعنت.

وقال المخرج: عظيم!

وقال الفنان:

- يلزمنا شهران لإنجاز الجدارية. فلنحدّد موعد الزفاف. لنقل بعد ثلاثة أشهر ونصف لنبقى في برّ الأمان.

ومن مسافة الغيظ كانت دالية تصغي إلى الفنان يشرح مقاصده بأنامل

أنثوية فتُستفز. إذ تراه أشبه بممثل دعيّ وشاذ يبالغ في فنون الكلام. وتغتاظ أكثر وهو يصف الملابس التي سيرتديها يوم العرس والتي ستكون بعيدة عن تكرار النمط. «عجباً إذ يصرّون على محاصرة أنفسهم في الأسود والأبيض! لا بد من لون بهيج وقويّ يحاكي بهجة المناسبة وقوّتها. البنفسجي مثلاً أو البرتقالي.» وهو «لم يقرّر بعد عما إذا كان اللون المقصود سيكون للبذلة أم للقميص. بل وعلى الأرجح، سيؤجل التفكير بالمسألة لرحلته الأخيرة إلى روما، حيث الواجهات تجذب أشدّ الأذواق عصياناً وتحل لك أعقد المواقف.»

دالية تلاحظ هذا بسخرية. وإنّ كان تشبيهه طبقات اللوحة بتجارب الحياة قد ضرب من نفسها موجعاً وذكّرها بطريقها البائس الذي مشت به مع رجلها الجديد. وإن كان البنفسجي أو البرتقالي الذي سيلبسه صهرها يوم العرس يستفزها. من ذاك الاستفزاز الذي يخرجها عن طورها، فتخشى أن تهجم عليه في عزّ الاحتفال، تصفعه أو ترشقه بقالب الجاتوه ليتناثر هذا قطعاً بيضاء تلطخ جاكيته الفاقعة!

ولكثرة ما تخيّلت حدوث المشهد، صارت متخوّفة بالفعل من حدوثه.

كلما تذكّرت عرس أختها انقبض صدرها خشية أن يفلت الأمر من يدها ساعة يقطع العروسان الكعكة ويبتسمان للمصوّر، فتنفّذ الرؤية إذّاك بالواقع ويتحوّل العرس إلى فضيحة تضج بها المدينة!

لم يكن من السهل على ريما استيعاب الموقف بكلّيته.

كانت تراوح بين لامبالاتها بدور ألفت القيام به وبين قلقٍ جديد عليها. أعماق نفسها البسيطة تتساءل عن مغزى ما يحدث لها: العرس بمعنى من المعاني عرسها، إنما ومن جهة أخرى فالمناسبة كأنما لا تعنيها تماماً. أكثر فأكثر وَلجت في منفاها الداخلي ولاذت في الصمت. والشرنقة التي دأبت على نسجها حول نفسها، باتت تزداد يوماً عن يوم، كثافة. لا يخفّف من عزلتها سوى ارتياحها لتدهور الوضع الأمني وهرب مصمم الأزياء الأرمني وإصرار أمها على أنه وحده من مصمّمي بيروت قادر على تولّي المسؤولية وإنجاز فستان العرس. تجد في هذا التأجيل غير المقصود فسحة تسترد فيها أنفاسها. كما تجد في سفر خطيبها المفاجئ إجازةً تتفرغ فيها لتدريبات عرضها الأخير الذي سيسبق الرّحيل إلى إيطاليا. علماً بأنّ رحيلاً مثل هذا لا يخطر لها بصورته السافرة. وإن كانت قد سمعت خطيبها يتحدث بالمجد الذي ستحرزه في بلاد الفن: سيسجلها في أرقى معاهد الموسيقى ويجري لها الاتصّالات مع أشهر الوسطاء، مروّجي المواهب، لتُقام لها الحفلات في أعرق القاعات ويرنّ اسمها في إيطاليا بل وفي أوروبا بأسرها. تسمعه يتحدث بهذا، وأعماق نفسها الطفلة تقرّ بأن فراقاً على هذا النحو ممكن الحدوث. غير أنه لا يخطر لها كأفكار بل كمشاهد سابقة على التفكير. فترى نفسها تسير وحيدةً في طرقات

مهجورة. أو تتأبط ذراع خطيبها في مدينة غريبة وقديمة رأت صورها في المجلات.

والأم أيضا استبقها مجرى الحدث الذي تولّت صنعه. تحاول أن تتخيّل سفر ابنتها المرتقب وإقامتها بعيدا عنها في إيطاليا.. إذ لا يلوح في الأفق عودة نهائية قريبة للفنان إلى لبنان، بعد أن تردّت الأوضاع واشترى بيتاً في روما ونوى الاستقرار فيها..

هل ستقوى على فراق ابنتها؟

أم أن الخطيب سيرضى بعد الزواج أن يتركها تعيش في كنفها؟ تتنقل بين هنا وهناك، وتتدبر هي أمرها لتكون غالباً رفيقتها في السفر. هكذا. .أسلوب عيش خليق بالفنانين ذوي الأمزجة الخاصة وأنماط الحياة الغريبة. وتذهب الشابة إليه مثلما في رحلات شهر عسل كما لو كانت تجدّد عذريتها وشوقه لها.

تلوح لها فكرة الفراق فتؤجل التفكير بها لتنشغل بحفلة العرس وترتيباته. وباستعراض أسماء المدعوّين الذين تتكاثر أعدادهم يوماً عن يوم. وتتنقل في أرجاء البيت على رؤوس أصابعها كأنما تحاذر أن توقظ نائماً، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة تختصر الكلام. لا شيء يعكر بهجتها سوى ذاك الصداع الرهيب الذي منذ فترة قد أمسك بها. وتفاقم الأمر في تلك الآونة إذ أضحت، في سيرها، تتكئ على عكّازة بسبب حادثة السجادة:

حين لاقى اقتراح الفنان صدىً في نفسها، بدأت تلملم الأشياء التي يراها زائدة. وبينما كانت تساعد الخادمة على إزاحة السجادة الفارسية الكبيرة تعثرت ووقعت. ولم تمتثل بعد ذلك لنصيحة الطبيب لها بالراحة، لحرصها على توضيب الأغراض بغية شحنها، في الموعد المرسوم، إلى المستودع الذي استأجروه في الجبل خصيصا لتخزينها فيه.

وريما ترى أمها تسير بعكّازة فينفطر قلبها.

ودالية أيضا ينفطر قلبها. فأمها، في مشيتها تتكئ على عكّازتها مبتهجة الأسارير ويدها على رأسها من شدة الصداع، تذكّرها بالمعتوهات اللواتي كانت تراهنّ في مأوى العجزة.

كان هذا أول حادث شؤم تراءى لعين ريما الناقدة منذ دخول الفنان باب البيت. وهي وإن كانت على غير علم مباشر بما يجري لأختها، إلاّ أن حدسها الطفولي الذي يلخص الأشياء باختصار الفائض منها، جعلها دائمة التوجس من شرّ مستطير يجري لدالية في الخفاء.

أول حادث شؤم.

الشؤم الذي حذّرت منه فاطمة البصارة حين تراءى لها شيئاً يتحضّر للانفجار. وأنه لا بد من صمّام أمان، إذ لا أحد يعلم إن كان سينفجر على رؤوس الأشرار أم الأخيار.

في حينه أوعزت دالية كلام البصارة إلى الانفجارات الدائرة في المدينة والجرحى الذين يُنقلون إلى المستشفى. إنما وكما تنبأت تلك، فقد دُكّ هناء البيت واختل التوازن واشتدّ إيقاع الحدث. والدور الذي طالما لعبته هؤلاء النسوة المتعاضدات صار حقيقة. هكذا مثلما يحدث في بعض الأنماط المسرحية حين تلبس الشخصية الدّوْر لتتابعه في الحياة وتنزلق به نحو الفاجعة.

٥

دخلتَ مسرحاً قادك إلى معبد

أستاذة الرقص هي أيضاً، قبيل تلك الآونة، كانت تراودها فكرة البحث عن الزوج الملائم لريما. ذاك المفطور على تحقيق المعادلة الصعبة: إسعادها ودعم مسيرتها الفنية في آن معاً. ذاك المتطوّع لأن يتخلّى عن مشروع حياته لتصبح زوجته، الراقصة البديعة، هي المشروع. يلف معها ومع أستاذتها العالم داعياً للفن من أجل السلام.

منذ أن احتج والدها على أن تحترف ابنته الرقص والفكرة تلح عليها. .كان الأب قد شرح للمدرّسة وجهة نظره: حين وافق على أن تدرس ابنته فن الباليه والرقص الحديث، ما كان في تصوّره أن تصبح راقصة. كان غرضه من ذلك تعويضها عن القصور في التعبير الكلامي وطريقةً ظريفة لتجزية الوقت. قال هذا واستحلفها ألاّ تؤدي ريما رقصاً منفرداً بل تكتفي بالمشاركة في عروضٍ جماعية مع غيرها من الفتيات.

منذ ذلك الوقت والأستاذة تحلم بالزوج الذي سيحرّر الشابة من مخاوف أبيها وزحمة الخطاب. وإذا بها تسمع بنبأ الخطوبة وبالإشاعة القائلة أنها هي مَن دبر اللقاء. .وأنّها إنّما تفعل بدافع من مصلحة مزدوجة: أن تضمن أماناً لتلميذتها ومستقبلاً باهراً لنفسها! رجل يمسك بطرفي المجد: الفن والثروة. ابن عائلة فاحشة الثراء، تزهو بأن يخرج من بيتها فنان كما كانت العائلات الأوروبية تفاخر بأن يخرج من سلالتها مَن يفتح لها طريق المجد إلى روما!

عجباً للشائعة! فهي حين التقت الفنّان مصادفة وَدَعته لحضور الحفل الذي ستعزف فيه ريما، كان أبعد ما يكون عن ذهنها أن هذا العازب المدللّ سيحطّ رحاله ذات يوم ويتزوّج! وأنه لو تزوّج فسيقع خياره على فتاة مثل ريما. إنسانة لا تتسع حياته لأمثالها كما لا تتسع الحياة، غالباً، لزوجين من العباقرة ذوي النرجسية العالية. فنان لا تنقصه الموهبة بل الحريّة. يتنقل بين القارات انتقالك من رصيف لرصيف لأخذ الأتوبيس. يعرض اليوم في روما وغداً في نيويورك ويستأذنك وهو في سان فرنسيسكو ليشرف على انتهاء معرضه في باريس. ما من لوحة تعود إلى الأرفف! ولا أحد يعلم مغزى إقبال الناس على شرائها. أبدافع أصيل لاقتنائها أم لضرورات العلاقات العامة؟

والصحف تغطي أخباره بالخط العريض مثل مانشتات تكاد في حجمها ومواقعها في الصفحات توازي تلك التي تحدثك بضرب العراق أو احتلال لبنان. وهو قد برع في استثمار تألّقه في عالم المغامرة والمرأة وفي الكلام الجميل. هذا ما يمكّنه من غواية أشد النساء عصياناً، فكيف بفتاة مثل ريما؟ لا. ليس هذا الفاتن الحذق بالزوج الملائم لتلميذتها! أكثر ما تخشاه، أن يلتهم الغول المتربص في أعماق الفنان التشكيلي، شخصية هذه الفنانة الرقيقة الهشة.

أو تخشى أن يلتهم الثراء الدعوة بأسرها.. فها هو في حمى اندفاعه للفوز بقلب المحبوبة، يغدق العروض على الأستاذة. فيبدي استعداداً لتمويل دعوتها. ويعطيها لائحة بعدد من مفاتيح الاتصالات في العالم. فهؤلاء جميعاً ينتظرون إشارة منه! ويكلّف مدير أعماله السعي لشراء المسرح الذي درجت هي على تقديم عروضها على خشبته. وتكاد الصفقة تتم لولا مرض أحد الورثة ودخوله في غيبوبة ما قبل الوفاة. هذه الغيبوبة التي عطلت على سائر المنتفعين صفقة لا تعوّض. دوافعها بعيدة عن المنطق وسعرها يتجاوز القيمة الموضوعية للأسعار.

تخشى على إنجازها أن تعصف به سلطة المال، التي في هذا الزمن صارت هي السلطة. فمنذ أن استتب للفنان الأمر وسط هذه العائلة الطيبة، بدا جلياً أن لا شيء يسبب له الضّيق، في خطيبته التي كأنّما وُلدت لإتمام مجده، سوى انصرافها الشديد إلى فنها. هكذا صار يُظهر تحفظاً على انطلاق ريما في الرقص، مختلفاً مع والدها على الأسباب متفقاً وإياه على النتائج، متذرّعاً بما أسماه بالصدمة الجمالية! حجته أن فنّاً يلهي المشاهد بجمال مؤدّيه هو انحراف عن جوهر الفن، هذا الذي من الحريّ به أن يكون نقيّاً ومكتفياً بجمالياته. وبهذا المعنى يرى أن رقص ريما مغامرة كبرى بسببٍ من كرم الطبيعة المغدق عليها. بينما يأخذك عزفها إلى سجل آخر غير الفرجة ويرقى بك إلى ما فوق البصر وما بعد الحسّي.

عجباً! ما يرى فيه انصرافاً عن الجوهر، تجده الأستاذة تتويجاً ربانياً للإبداع! صحيح أن جمالها يسحر المتفرّج، إنما يسحره من ذاك السحر الذي لا يتيسّر سوى للفن. سحر يدعوك للتأمل لا للفرجة. إذ ما إن يُذهلك أوّل إطلالتها على الخشبة، حتى تنساه بعد هنيهة. وتنتقل التجلّيات منه إليك، وتخلد إلى عالمك الداخلي. فتغفل نفسك وأصلك والمكان الذي منه جئت وتروح تحدّث ذاتك لا بجمالها بل بجمال الكون و الكائنات. وفي حوارك الحميم هذا، عبثاً ستسأل نفسك عن أعداءٍ أو عداوات. عبثاً، إذ لن تعثر لهم على أثر. وتدرك أنك دخلتَ مسرحاً قادك إلى معبد.

أتيته فارغ الروح لتأنس إليه وقلبك امتلأ بالأسرار.

أتيتَ مدفوعاً بالفرجة على ما يحاكي العالم فخرجتَ باحثاً عن عالمٍ يشبه ما رأيت.

في معمعة التغيّرات لا أحد تنبّه إلى أن ريما ازدادت صمتاً حتى صارت نادرة الكلام.

من ناحيته، كان من الصعب على خطيبها أن يلاحظ ذلك، هو الذي قلّما سمعها من قبل تتكلم!

أما الآخرون، وحين توارت الابتسامة عن وجه الشابة الصبوح، ليحلّ مكانها تعبير همٍّ عظيم، أوعزوا ذلك إلى الارتباك بالهموم الصغيرة التي تعاني منها أيّ فتاة في انتقالها من عالم لآخر.

كما لم يتنبّه أحد إلى أن ريما، بدأت في تلك الآونة، تتعثر في العزف. فقط دالية، فيما كانت مارّة بالبيت ذات مساء، لتأخذ بعض حاجاتها، كادت تتنبّه. إذ لفتها أن أختها توقفت عند جملة موسيقية، توقف إبرة في جرح اسطوانة. لا تفتأ تعيدها وتكرّرها بلا إضافة أو تعديل.

في البدء ظنتها تلهو.

ثم لما تناهى لها التوتر المصاحب للتكرار تمهّلت تصغي. أفكار كثيرة راودتها ذاك المساء بشأن تعثّر أختها. وخطر لها أن تعود على عقبيها وتجلس معها تستفسرها عن السبب، لكنها عدلت. هكذا لم تستغرب حين اندفع جارهم إلى والدها ذات ليلةٍ، يسترحمه أن تكفّ الصبية عن تدريباتها المسائية التي تنتقل عدواها إليه، فيبقى طيلة الليل يقظاً متوتراً.

وزاد من توتر ريما في تلك الآونة إنه ما عاد باستطاعتها أن تقوم بتدريباتها على الرقص، كما في السابق، في صالات البيت، بعد أن اكتظ بأفواج العاملين والخدم، القدامى منهم والمستجدون: مثل سوسن ابنة أخت منصورة، التي جاءت خصيصاً لتتولى فتح الباب للمهنّئين. آمنة الطبّاخة وفارس المكوجي وفادي الكوافير، الذي، منذ الخطوبة صار يأتي مرّتين في الأسبوع، ليمشّط الخطيبة وأمها. ماتيلد نازعة الشعر التي منذ أن كبُرت الفتيات وهي تأتي يوم السبت من طالع كل شهر. ناهيك عن المصوّر جوزيف الذي يأتي بين الحين والآخر ليأخذ الصّور التذكارية للعائلة أو ليسجّل للصبيّة لحظة ألق.

طغت المناسبة على مجرى الحياة لتعرقل برنامج الفنانة. صحيح أن الخطوبة لم تصبح رسمية بعد، إلا أن النبأ سرعان ما انتشر. وانهالت على البيت المكالمات كما الزيارات. ما من أحد عرف ريما إلاّ وجاء ليراها وهي مخطوبة. وليذكّر بنفسه ليكون من بين المدعوين للعرس. يأتي حاملاً عنوان تهنئته: باقة من الزهر اشتراها من محل «هاواي فلاورز» عند ناصية الشارع. حتى صِبية البقالين وبوابي العمارات المجاورة والقريبة كانوا يمرّون للتهنئة وطلب «حلوانة» المناسبة فيعيدون إلى الأذهان عذوبة التقليد القديم.

من ناحيته، فوجئ صاحب «هاواي فلاورز» بالموقف وناء بالمستجد من الطلبات. كنتَ قبل أن يحين موعد الغذاء لا تجد لديه سلّة زهر أو باقة ورد، ولا حتى غصن زنبق أو قرنفل. كلّها تكون قد اختُطفت من الأواني وعن الأرفف لتُقدم إلى الشابة المخطوبة. إلاّ أن البائع سرعان ما تدبر أمره ووجد الحل. فاستغنى عن الوسطاء وعقد اتفاقاً مع منتجي الأزهار، يأتونه بها من الحقول مباشرة مرتين في اليوم.

الزيارات في تزايد. يُقرع الجرس فتركض الصغيرة سوسن وتفتح الباب على سعته، كما درّبوها أن تفعل، ويطل منه الزائر وباقته. ثم تأتي الأم للاستقبال. وغالباً ما تبدأ الزيارة بالوقوف أمام اللوحة وبالتعبير عن

الدهشة لإصابة الفنان الهدف. ثم تتبعها الاستفسارات. الزائر يسأل والأم تسترجع الحكاية: منذ حضور الفنان مصادفة حفل ريما وانبهاره بها وهي تعزف بفستانها الأصفر، حتى مجيئه باللوحة ذات مساء على غير موعد، ضارباً الباب معرّفا بنفسه.

وفي سردها الحكاية يحلو للأم أن تغيّر في النمط لتسوقها من آخرها فتقول: ضُرب الباب وكان الوقت قبيل المغيب وكانت منصورة في الخارج فَفتَحتُه بنفسي ليطالعني رجل، لا يشك اثنان في أنه فنان، حاملاً اللوحة التي توهم الرائي على أنها صورة فوتوغرافية مكبّرة لريما!

وبمرور الوقت أخذت منصورة تشارك الأم القص، خاصة عندما تكون معلّمتها منشغلة في الداخل بإقناع ريما بالخروج من غرفتها لتسلّم على الزوّار. فتنتهز هي الفرصة لتحكي آخر تطورات الموقف: كان لا بد من تكليف مسيو فاهي بإحضار فستان العرس معه من باريس، وبإحضار اللوازم كلّها، من تاج الطرحة حتى الحذاء. إذ لا أمل بعد اليوم بالعثور على المطلوب في سوق بيروت بعد أن ضربته الحرب. هذا الذي كان قبلة الشاري والبائع، طافحاً بالبضائع القادمة من أصقاع الدنيا.. من أمريكا حتى الصين.. أصبحتَ لا تجد فيه علبة دبابيس من النوع الأصلي! واقتراح مسيو فاهي أنقذ الموقف. ما إن عرضه على الأم حتى وافقت فوراً عليه. طبعاً ستوافق.. فهو، منذ دخول ريما المدرسة الأمريكية يصمّم لها الملابس الرسمية وفساتين الحفلات.

الخطوبة لم تصبح رسمية، إلاّ أن ربة البيت اجتهدت في تحضير نفسها لتقبّل التهاني. فأخرجت كؤوس الكريستال وصحون البورسلين وأرسلت فضيات الكرسيتوفل إلى التلميع. كما حرصت على شراء أصناف البقلاوة اللبنانية والفاكهة المجفّفة الشامية والملبن الطرابلسي المحشو بالجوز، ناهيك عن أنواع الشوكولا الفرنسية والسويسرية.

الأمور تسير كما تشتهي ولا شيء يعكّر بهجة المناسبة سوى انزعاج

ريما من مقابلة المهنّئين. وإلحاح أمّها عليها، غير متنبهة إلى صمتها ولا إلى الوجوم الذي منذ فترة يلازم محيّاها. ولا إلى ضعف شهيتها الذي زادها نحولا حتى لتكاد في سيرها تهوي على الأرض، كما حدث لها ذاك الصباح أثناء تدرّبها على بروفة الحفلة في صالات البيت، وأُغمي عليها فيما كانت أمها غائبة واستدعت لها منصورة الطبيب.

الطبيب، أوّل دخوله البيت التبس عليه الأمر:

لم يتبيّن له إن كانت الفتاة المسجّاة هي المريضة المقصودة، أم أنه إزاء مشهدٍ مسرحيّ يجري التدرّب عليه في هذه القاعات الكبيرة شبه الخالية! مشهد من حكاية الجميلة النائمة، والجميلة ممدّدة على الكنبة، والكنبة موضوعة في منتصف الصالة، تتحدّى المألوف كما في المسرح الحديث! وامرأة تذرع القاعات رواحاً ومجيئاً ملوّحة بمبخرة يتصاعد منها البخور الهندي بينما هي تصلّي للسيدة مريم العذراء، شفيعة ريما، أن يرحم خلق الله ويشفي ابنتها. وسيّدة أخرى أكبر منها سنّاً، أُصيبت على ما يبدو بِدور هستيري، فراحت تلطم خديها وتتضرّع إلى ربّها هي الأخرى، إنما بآيات من سورة الفلق. من شرّ ما خلق ومن شرّ حاسد إذا حسد. تعيدها وتكرّرها فيختلط دعاؤها بالبكاء..

كان الطبيب قد سمع بفن ما بعد الحداثة. وشاهد إبّان دراسته في انكلترا بعض أعمال المسرح التجريبي. وهو في هذا المناخ العابق بدخان البخور، الذي يغشي الرؤية ويحرق الصدر، يخال نفسه إزاء مشهدٍ من تلك المشاهد. وتلفّت حوله هنا وهناك فطالعته عناقيد الزنبق الأبيض المتراصة. العناقيد البغيضة على نفسه ذات الرائحة الرهيبة النفاذة إلى حشا الأمعاء. وحده الزنبق من بين الزهور المنتشرة في البيت يتصاعد منه هذا العبق الكثيف القاتل! وخطر له أن يغادر المسرح لكنه تريث: ما زال الموقف ملتبساً عليه. والسيدتان في ذرعهما القاعات، تمرّان فوق رأس النائمة، لتزيداه التباساً، فلا يعرف إن كان إزاء ممثلتين محترفتين تؤديان دور خادمتين

مفجوعتين على سيّدتهما الشابة، أم أنهما خادمتان بالفعل، تقومان بدورهما الواقعي وقد فوجئتا بإغماء الفتاة.

وزاد من غموض الموقف تزاحم الأولاد والجيران إذ خيّل له أنهم جاءوا للفرجة! وكممثل في مسرحية من ذاك النمط الذي يتدخل فيه أناس لا علاقة لهم بالمشهد فيصبحون جزءاً منه، وجد نفسه يسأل عما يجري في الدار وعن مريضة فيها. ويكرّر السؤال فيشير الأولاد إلى الشابة الممدّدة على الكنبة.. هكذا وعلى الفور أمر بفتح النوافذ وإطفاء البخور ثم طلب الاسعاف ونقل المريضة إلى المستشفى.

منصورة التي كانت في ما مضى مربية ريما، أيقنت أن مرض الشابة وغيبوبتها التي دامت ساعتين إنما سببها إصابة من عين زكريا الأعمى، زوج ماتيلد نازعة الشعر!

تقول هذا، لتكتشف هي بنفسها، أن إصابةً من عين أعمى تفوق خطورةً، بما لا يقاس، إصابة عين ترى!

كانت قد حدست أن مكروهاً مثل هذا صار وشيك الحدوث. ذاك الصباح حين وقف زكريا قبالة ريما تلك الوقفة الخطيرة، مذهولا! يتأملها من خلف نظارته السميكة السوداء، بدهشة من يرى ويتأمل جمالها بالفعل. هذا الذي زاده تألّقاً، أنها كانت خارجة لتوّها من الحمام، متوّهجة بحناء شعرها الطازج!

لم يكن زكريا هو نفسه قد شاهد، بالطبع، فيلم «عطر امرأة» لآل باتشينو أو ذاك الذي ظهر قبله بسنوات لفيتوريو غاسمن. ولا زوجته التي اصطحبته خصيصاً ذاك النهار ليتفرج على ريما أسوة بغيره، رأت الفيلم. والصبيّة نفسها، بعيدا عن تأثرها بالفيلم الذي حضرته في نادي السينما مع أستاذتها، قدّرت مشاعر الرجل وتضايقت من توجّس منصورة ومن سلوكها الفظّ، خاصة حين اندفعت نحوها لتخطفها من أمام الرجل وزوجته، وأسرعت تبخّرها على مرأى منهما وترقيها بأسماء الله الحسنى

لتدرأ عنها إصابة محتملة من عين زكريا المسكين. العين، التي في ظنّها، لم تنفع معها التدبيرات فخرّت الشابة تحت وطأتها مغشياً عليها!

في خروجه من البيت إلى المستشفى كان على الموكب أن يشقّ دربه وسط حشد الناس الذين تجمعوا عند الباب وعلى السلالم وأمام مدخل العمارة. وسط اللّغط بأن الفنانة ذات الجمال الفريد قد ماتت! مثلما تموت البطلة في بعض الأفلام لتخلّف في نفوس الناس غمّاً بالغ الأثر. لا غمّ يضاهيه سوى أن تكون الميّتة ابنتهم الغالية وقد نزلت بها النازلة في غير أوانها. ولا عزاء فيه سوى القول إن عالماً مثل هذا غير جدير بالمخلوقات النادرة مثل هذه الفنانة الرّائعة التي ستتحدث بها الأجيال.

الطبيب، ذاك اليوم، لم يتنبّه لصمت مريضته.

لا لضعفٍ لديه في حدس الأمور النفسية أو دلائل الإعاقات، بل لأن المريضة حين صحت من غيبوبتها، أجابته تقريباً على جميع الأسئلة ذات الدلالة التي ألقاها عليها. ولأنه أوعز ضعف صوتها واضطراب كلامها واستخدامها الإشارات، إلى ضعفها العام وغيبوبتها التي أفاقت منها للتوّ. ولأن الصبية، في آخر الزيارة، شغلته بصمت آخر: صمت أختها دالية.

دالية التي صارت، قليلة الكلام. وصوتها الداخلي، الذي اعتادت سماعه في أشدّ الساعات صخباً، قد انطفأ!

تقول هذا وهي تشير إلى أعماق صدرها. وقلق عظيم ارتسم على محياها وألم! الألم كلُّه، في خلد الطبيب، لاح على وجه الصبية البديع وهي تسأله إن كان سيعاين أختها دالية. أختها التي تغيّرت حتى أنها لم تعد هيَ هيَ.

لم تعد هيَ هيَ حتى استحال التواصل بينهما وانعدمت الرؤية.

من ناحيتها تحاول أن تصغي.. تحاول أن ترى.. لا فائدة. فأختها لاذت بالصمت حتى صارت بالكاد تتكلم!

تقول هذا وحيرة الطبيب تفوق عطفه. فالصبية تشكو صمت من يعهدها من الرّائدات! الطبيبة التي، رغم ضجيج الحرب، علا كلامها وانتزعت للأيتام حقوقاً، أختها تشكو صمتها! تنتحب وتتوسل إليه أن يتدخل. تستعطفه أن يفعل شيئاً، أيّ شيء، ليخرج أختها دالية عن صمتها الرهيب الذي بات لا يُحتمل!

الأب، أيضاً لم يتنبّه إلى أن ابنته في فترة خطوبتها ازدادت صمتاً حتى صارت بالكاد تتكلّم.

وكما فات زوجته أن تسأل ابنتها رأيها بالزواج من الفنان، هكذا فاته هو أن يسألها، كما ينبغي أن تُسأل أيّ فتاة وكما يقتضي شرع الإسلام أن يفعل ليسمع منها، قبل الشيخ، جواب القبول، الساطع الأكيد كي لا يكون زواجها باطلاً.

دالية، وفي حمى غضبها، حين وقفت كالعارضة بوجه المشروع، كانت الوحيدة التي سألت ربما ذاك السؤال، أما هو فلم يفعل. لا لأنه غير مقتنع بضرورة مشورتها، بل لأن السؤال لم يخطر له.

لا غرابة..

إذ لطالما أربكته هذه الابنة التي وهبها الله جمالاً يصعب عليه استيعابه أو تحمّل مسؤوليته! ولطالما حيّره لون عينيها الذي يتراوح ما بين شهد العنبر وأعماق البحر.

هذه، التي لا تشبه أياً من جميلات العوائل المتحدرة منها واللواتي حُفظت صورهن في الألبومات وفي الذاكرة. كما لا تشبه أيّاً من رجالها. ومع هذا، فهو منذ أن وقع بصره عليها بعيد ولادتها، ورغم المفاجأة، غمره إحساس غريب بالألفة. وشعور خاص، مزيج حزن وفرح: كأنما سبق له رؤية هذه الفتاة وأَلِف من قبل محياها! في زمن آخر، سابق على

التجربة، وكان لها إذاك أباً وكانت هي ابنته. وأن ما يجري له الآن تكرار.

ويحاول أن يتمعن بالموقف. . وإذ يطيل النظر إليها تسارع إلى غض طرفها. لولا هذا لسبقها هو إلى غض الطرف!

يحاول. . وإذ يراها خارجة من البيت تستيقظ في خاطره الذكريات! كأنها لا تطوف في دروب مدينة آنية بل في أروقة التاريخ. مرتديةً ملابس ذاك العصر، تلك الطويلة الفضفاضة، عاقصة جدائلها تحت غطاء رأسها الزّاهي. تواصل ترحالها الممتد أبداً. . وهي في كل حقبة من الحقبات تحطّ عند مخلوق من بني البشر. سلطاناً، رجلاً غادياً كان أم حطاباً. وقد شاءت الأقدار أن تعبر حياته، هذه المرّة، ابنةً له وهو أبوها.

أو أنها في زيارتها هذه لم تكن فقط ابنته بل أمه وقد جاءته ثانية بهيئة ابنة، بالتقمص الذي يحكون عنه. لكنّ الزمن قد رتّب المسار بهذه الصورة العجيبة. وبدل أن تتوالى هذه وتلك على الدنيا تزامنتا فيها وكان هو واسطة اللقاء!

كلّما امتدّ به العمر تعمّق لديه الإحساس بالرّجع والرّجوع وتكرّر في خياله المشهد :

أمه ربما جالسة في أعلى درج الفيراندا الرخامي الأبيض، عند مدخل بيت أبيه، فاردةً شعرها البديع على كتفيها. وهو راكع يغسل قدميها بماء الورد. يصبّه من إبريق الزجاج الكحلي الشفاف، ذي العنق المخصور والسطح المشغول بالرسوم وبالألوان. وتبدو هي في جلوسها مستسلمة لفعل الطاعة والإيمان يؤديه ابنها عبدالله بخشوع. يبكي اللقاء والفراق ويبلّل قدميها بالدموع.

ويخطر له أن يحدّث زوجته بما يهجس له. لكن ماذا بوسعه أن يقول؟

أيقول لها إن ابنته هي أمه؟

لو قال لها هذا فكيف سيبدو بنظرها بعد ذلك؟

أم يقول لها إنه رأى هذه المخلوقة من قبل في منمنمة فارسية تعود إلى العصر العباسي. وأنه لهذا يهوى السفر وقصص التاريخ وجمع الصور القديمة والمنمنمات؟

قرأ ذات مرة أن أصحاب الهوايات ذوو قلوب سعيدة. لكن لِمَ قلبه هو فارغ متعب؟ لِمَ لا تفتأ تراوده تلك الفكرة وذاك المشهد.. أنه سيحدث له ذات يوم ما قرأ مثيله في الحكايات وأنه في ليلة ظلماء سيهرب هو أيضا من المدينة اللاهثة وراء جمال ابنته، ليخلّصها من رجال يطاردونها ومن زحمة الخطّاب وليواجه وحده وإياها بعدئذٍ فراغ العالم!

٦

أسئلتك دليلك إلى الحقائق

في فترة النقاهة، أخذت دالية تبحث عن محور أمان.

إن كان لكل إنسان محور، مثل جمال ريما وعذريتها، مثل شذوذ هذا الرجل أو افتتان ذاك بنفسه، مثل دعوة صديقتها دنيا لتحرير نساء العالم، فما هو محورها؟

ولما تعافت كانت قد قطعت الشوط الأكبر. والكلام الذي طالما سمعته من صديقتها دون أن تلتفت لمعانيه، انتظم في إطار والإطار في رؤية. هكذا وجدت نفسها في دائرة النضال من أجل تحرير المرأة، كما في دائرة العمل الانساني. تقوم بهما من خلال المستشفى كما من خلال المؤسسات التي تزايدت أعدادها في الحرب. واجدة في دربها الجديد العزاء والمخرج. فهي بعد مقتل الرجل ورؤيتها صوره في الصحف، غارقاً في دمه وفي بيجامته المقلّمة ما عادت قادرة على إمساك المشرط.

شُلت يدها.

ما يخيفها ليس المشرط بل الكائن المبنج.

مبنج وممدّد على الطاولة!

لو كانت تجري عمليةً لصاحِ لقامت بأعظم جراحات العالم. لكن أن يكون المريض ممدّداً شبه ميت، فهذا ما بات يرمي في قلبها الهلع!

كان كبير الأساتذة في الكلّية معجباً بوقفتها الصلبة أمام طاولة

العمليات، والمريض مستريح بين يديها. كأنها لا تجري له عملية بل تداوي علّته بتدليكٍ ابتكرت هي أصول فنه.

أين هي من ذاك الآن؟

واندفعت إلى أنشطتها الجديدة برعاية صديقتها دنيا. وما لبثت شهرتها أن فاقت شهرة دنيا بعد يأس تلك ورحيلها عن البلد. وسرعان ما صارت هي أيضاً، من الرائدات. تُدعى للمؤتمرات وتحاضر وتشارك في ندوات الاعلام. مسألتان تستميت في الدفاع عنهما: الأطفال المتروكون والفتيات المعرّضات لجرائم الشرف. وحين انتشرت ظاهرة خطف الرّضع، تصدّت للمتسلّلين إلى المستشفيات، أولئك الباحثين عن رضيعٍ لأمٍ ماتت أو فقدت صوابها. أو شاردةٍ أنكرت طفلها. ترعى هؤلاء لحينِ العثوَر لهم على الحل الملائم. تقيم الاتصالات مع ذوي النفوذ والمنظمات، يساعدونها في تدبير شؤون هذه الكائنات الضعيفة المتروكة.

وكتبت أكثر من مقال حول سلوكيّات الناس والمؤسسات تجاه هؤلاء الأطفال، ساخرة من عبارة «طفل غير شرعي.» أو «مجهول الأب»: لا، ما من مولود في الدنيا غير شرعي وما من أحد والده مجهول!

وأسّست رابطة للدفاع عن النسوة المضطهدات وأصبحت لكثير منهنّ مرجع تَظلُّم. يشكون لها ظلم الأب والزوج والأبناء وغالباً ما تساعدهن في العثور على الحل.

وصارت داعية دؤوب للتحرّر من الموروث وما يكبح الأنثى ويدمر قدراتها. وبعد رحيل دنيا، صارت هي الدّاعية. واشتهرت في أوساط عدة. وفتنت رجالاً كثيرين بشخصية رسم معالمها فنّان دخل حياتها خطفاً وخرج. وبزيّ خاص تدرك أثره على ذوي الجنوح للهوى من النظرة الأولى: تنّورة بالغة الاتساع أو بنطال بالغ الضّيّق مشدود عند الخصر بحزام جلدي سميك يغالي في الإشارة إلى استدارات الجسد.

وغيّرت تسريحة شعرها لترسله على كتفيها، لا كما في السابق، أملس رصيناً يستغرق تدليسه ساعات، بل لتتركه على طبيعته أجعد فائرا. هكذا إثارة من نمط خاص يكتنفها الغموض، لامرأة من سلالة نساء ذوات أمزجة، تواكبن على هذه الأرض، عبثن بالمألوف، وأطلقن العنان للدوافع حتى قاربت الفوضى.

فتنت الكثيرين.

والعين للوهلة الأولى تخطئ التفسير. فلا يدرك صاحبها إن كان إزاء امرأة متطرّفة في تحرّرها، أم غاوية بالغت بغوايتها للإيقاع برجال مكروهين لديها.

اشتهرت في بيروت العليا كما في السفلى.

في النهار تنشغل بالأمهات والأطفال.

وفي أوقات فراغها تعاشر المتنكرين، أولئك الهامشيين اليائسين، الباحثين عن عدالةٍ صعبة تأججت الدعوة إليها في ذاك المنعطف التاريخي الصعب من حياة المدينة!

أولئك الذين حوّلتهم ملابسات الحرب إلى قدامى مناضلين، يجترّون معاً مرارة الخيبة.

وجاهرت برفضها الزواج.

وفي تلك الآونة، التقت بشاب مع مجموعة الهامشيين. أسامة. يصغرها ببضع سنوات. وسيم خجول وقليل الكلام. حتى أنها أوّل تعارفها بها وجدته أشبه بأختها ريما. ثم ما لبثت أن اكتشفت الجانب الآخر، الظريف الثرثار من شخصيته. فصمته برج مراقبته، حتى إذا ما أجرى ترتيباته الذاتية واطمأنّ اندفع في الحكي والنكات. وفي حديثه عن الحرب يمجّد غوايتها: ما أعدلها تؤاخي بين البشر. الجميع في نارها سواسية. الجميع هرباً من جحيمها يلوذون بالمخابئ. يرتعدون لحمم

الصواريخ. ما أعدلها لا تميّز بين غنيّ وفقير أو بين سيّد وخادم. لن تحصدك لأنّك أعظم شأناً أم أقلّ.. بل تأخذك بنارها هكذا مصادفة وتؤول بك إلى العدم. مثلما أخذت ذاك المليونير وعفّت عن خادمه الحبشي. القذيفة مرّت بمحاذاة الخادم لكنّ دَفْع لهيبها أزاحه من الدرب ليجتاح سيّده. هكذا العدل في جوهره أعمى. بريء من الحسابات. مثل الذي كان ينشده وهو وصحبه يوم دخلوا الحرب أوائل السبعينيات. مناضلين في معترك وهميّ، أصابهم زهد بمجد الدّنيا فترفّعوا عن الذاتي ليتماهوا بقضايا العالم.

ولما بان لهم الزيف انسحبوا.

ماذا كان في وسعهم أن يفعلوا بعد ذلك؟

مَن خابت مراهناته لهذا الحدّ أين سيجد العزاء؟

في مساءلة النّفس. في اجترار الخيبة. إذ لا أحد منهم يمكنه زعم البراءة. جيل بأكمله، في حمى الطيش والتهوّر، أوقد نار الحرب. لم يترك وسيلة لدكّ الحاضر لم يلجأ إليها. فالثورة في خلده قد اجتاحت العالم وضربت الأبواب وما عليه سوى كنس بقايا الحاضر لاستلامها.

ويضحك أسامة ويقول:

وفي حمى اندفاعك تحطّم ما يقع في يدك. بلاط الأرصفة، الإشارات الضوئية، واجهات المحلاّت وإطارات السيارات.. كلّها تغدو أعداء لك.. لذا لا عجب أن تنتزع مقاعد السينما المخملية الحمراء وتخرج هاتفاً ضد الوطن حارقاً العلم. هكذا إثر مشاهدته فيلم «حالة حصار» لغوستا غافراس خرج ورفاقه من السينما حاملين مقاعدها. وساروا في شارع الحمراء هاتفين ضد السلطة. الحادثة التي اعتُقل بسببها وطوّبته بعد ذلك قائداً للمظاهرات، ووجهاً مألوفاً في صحف المعارضة، مواظباً على زيارة المخافر..

شيئاً فشيئاً وجدت دالية نفسها منجذبة إليه. تجذبها أفكاره الطريفة ضد السلطة. «أيّاً كانت، فكل من يصل يفسد. تفسده العلاقة الشاذة القائمة على انصياع الضعيف للقويّ والصغير للكبير والمحكوم للحاكم. سيأتي زمن يتذكر فيه بنو البشر هذا تذكّرهم عصور الظلام. لا فائدة من التذنيب. لا فائدة ما لم يُربَّ الإنسان على وازعٍ داخلي يتمثّله عبر العصور، ليصبح جزءاً من ذاته. كما تَمثّل سائر المحرّمات وعَفّ عن زِنى المحارم وعن لحم البشر.»

منذ لقائها الأوّل به، لاحظت دالية اهتمامه بها ودأبه في استراق النظر إليها. تساءلت طويلاً عن دوافع هذا الاهتمام! أتراه عاشقاً لا يسعه رفع بصره عنها؟ أم أنه مجرّد فضوليّ يراقبها ليفهم مغزى وجودها الشاذ بينهم؟

وذات يوم فاجأها بحضوره إلى العيادة بلا موعد. واعتذر عن اقتحامه بالقول:

ـ لديّ مشكلة تؤرّقني يا طبيبتي العزيزة.. والبارحة لكثرة ما ألحت عليّ لم أنم. لذا وجدت نفسي اليوم في طريقي إليك.. غالباً ما تقودنا أقدامنا حيث علينا أن نذهب. فإن كنت مستعدة للاصغاء..

ضحكت دالية وقالت:

ـ هذا يتوقف على المشكلة.

ـ حسناً.. الطموح يا عزيزتي هو المشكلة. والطموح.. كما تعلمين كالحب، قاتل. فما بالك بمَن ابتلى بالآفتين معاً مثلما هو حالي الآن؟

ـ حالك الآن؟

ـ نعم.. إذ تراني وقعت في هوى أجمل نساء الأرض. طَموح لا يتراجع إنّما وفي ذات الوقت جبان لا يجرؤ على المصارحة..

فاجأها الموقف وتردّدت في ما عساها تقول. هل تتجاهل تلميحه؟ أم تسأله المزيد؟

وفيما هي تراجع الاحتمالات، نهض هو واتجه إلى الباب. . وقبل أن يغادره التفت إليها وقال:

ـ ها أنتِ عرفت المشكلة. . لا تستعجلي الرّد فأنا غير مستعجل. أمامه العمر كلّه من أيقن لهذا الحدّ من أصالة مشاعره.

في بادئ الأمر استبعدت دالية إمكانية تجاوبها معه.

فهي، حين درجت على عشرة الشلّة كان بعيداً عن خاطرها أن يكون لها من بينهم رجل. جلّ ما كانت تبغيه، قضاء فسحة من الوقت مع أناس ظرفاء ومختلفين عن النمط السائد في الوسط الطبّي المتزمت. هؤلاء الهامشيين الدؤوبين في البحث، المتعطشين للمعرفة خارج الحسابات، غيرهم أولئك المتعالين المكتفين بذاتهم ومعارفهم والمنكبّين على الحسابات. .

تجاهلت الرّد. ثم وبعد ذلك بأشهر حدث ما أوحى لها به:

كانت في رحلة إلى اسبانيا تتسوّق من إحد المخازن الكبرى، حين وقعت على ملابس تنكّرية لمشاهير التاريخ. ولمعت في رأسها الفكرة: أن تختار لنفسها زيّ كليوباترا وتختار له زيّ أنطونيو. هكذا كان جوابها محاكاةً طريفة، وإعلاناً مسرحيّاً فاجأته به وفاجآ به معاً أصدقاء الشلّة.

ورغم هذا ظلّت تستبعد فكرة الزواج. تحتجّ بأن الزواج يؤدي في الغالب إلى إخضاع المرأة. وهو كمؤسسة، فَقدَ جدارته في إسعاد الناس، إذ تراه منافياً لطبيعة البشر ذوي الميل الفطري للتغيير ولتعدّد العلاقات.

وعُرفت بين المقرّبين على أنها صديقته. هكذا. . ارتباط من نمط حديث يعزّز كيان الشلّة المهمّشة ويمنح أفرادها العزاء.

لو طُلب إلى الواحد من هؤلاء أن يفتح جبهة للذّود عن الطبيبة الشجاعة لما توانى. تلك الزاهدة بمجد الطب. الصامدة أمام إغراءات الزمن الصعب. المتصدية للعصابات الحائمة حول المستشفى.

الأمثولة الأخيرة لأحلام ذوَت.

لو قيل لأحدهم إنها كانت تُضرب وتُغتصب من ذاك الرجل لما صدق. لما صدَّق أنها ما زالت ترتعد للجريمة وتفاصيلها.. وتبدأ نهارها بالتنقيب بين السطور في صفحات الحوادث.. لا تترك صحيفة إلاّ وتدقّق في سطورها مخافة أن تفوتها شاردة ذات دلالة.

كأن يكون لهذا الشقي زمرة تُطاردها.

كأن يصرّ أهله وخطيبته التي نشرت الصحف صورها، على كشف هوية الفاعل.

كأن يُشك بأمر زيارتها له قبيل الحادثة فتُستدعى للتحقيق أو للمحاكمة.

كلما اشتد أرقها بالغت بالسهر مع الشلّة. تشاركهم الكيف. الماريجوانا والحشيس والكحول وأحياناً المخدّرات الثقيلة. ما كان مرتبطاً في ذهنها بالانحراف أصبح المتعة التي تلوّن أمسياتها بعد يوم مثقل بالعمل والهموم. تجدها أقلّ ضرراً من العقاقير التي يصفها الأطباء لتمويه المرض وإخضاع المرضى. بل وتجدها أكثر أصالة. إذ تفضح لك زيف الحدود. وتمنحك جرأة التعبير. وتكشف لك أعماق نفسك التي أمضيت حياتك تنسج بشأنها الأقاويل.

أستاذة الفن، لا يقلقها في تلميذتها الجمال ولا الصمت.

ترى في هذا التزاوج الفريد بين الصمت وتعبيره الخلاّب إبداعاً يصعب على غير تلميذتها بلوغه. لا تقلق فالصمت كلام بليغ:

«كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» كما يقول شيخ المتصوفين الشهيد الحلاّج. وكلّما ضاقت تلك تفتّحت لدى تلميذتها المشاهد. ففي تلك الآونة بدأت ربما تبتكر مشاهدها بنفسها لتستلم كامل الدور فتغدو هي المؤلفة والمخرجة والمؤدية معاً. وتضع الأستاذة في الجهة المقابلة من لعبة الفن: المشاهِدة التي تتوجه إليها بالتخاطب.

في البدء ظنّتها الأستاذة ترتجل. ثم تبيّن لها أن أداءها، رغم تحرّره من القيود المعروفة، ينبع من نظام. فتأكد لها بأن الكفاءات تتغذّى ببعضها البعض. ضعيفها بقويّها وحاضرها بغائبها. هكذ يمكن للكفيف أن يرى والصامت أن يتكلّم. حين كان ممثل أبكم يرفع ذراعيه، على الخشبة، ملوّحاً بالويل لقتل الأب، كان المشاهد يسمع صراخه أشدّ بلاغة من مغنّي أوبرالي. وحين الكفيفة تندفع من مكانها وقد تهلّلت أساريرها يدرك المشاهد أن عطر الغائب يبشرها بقدومه.

لا يقلقها الصمت ولا إصرار تلميذتها على رسم المشاهد. ولا أن تتبادل وإياها الأدوار.. ورغم هذا فهي شديدة القلق! تقلقها التغيّرات التي طرأت عليها حتى لكأنها ما عادت هيَ هيَ، الراقصة الرهيفة التي

تتحرّك بلا خطى وتحلّق بلا ضجيج. بل أمست مخلوقة مزاجية تخبط الأرض بأقدام مستفَزّة، وتضرب الفضاء بأذرع متوترة ووجه غاضب، غضب راقصة فلامنكو مجروحة النفس بالخيانة.

كيف تغدو حورية جنيّة؟

وأين، في هذا المناخ الشيطاني، يمكنها أن تضع دعوة الفن والسلام؟

كيف والراقصة تتقاتل وتهذي؟

بحركات موتورة وشعر متطاير وتعابير وجه بالغة القسوة.

أيّ جنية خرجت من هذا الكيان الملائكي؟

كانت من ماءٍ وهواء صارت ألسنةَ نار ولهب. تتلوى على الخشبة أو تهبّ احتجاجاً بوجه الأستاذة. تخاطب فيها أنثى غائبة!

من تكون هذه الغائبة يا ترى؟

وتحاول الأستاذة أن تستفسر فتُقابَل منها بكلام كالهذيان. وبحركات فاضحة. وصراخ بلا صوت، تصيح بطيف الغائبة، تسألها:

لِمَ هي منفوشة الشعر هكذا كأنما تضع باروكة؟

ولِمَ ترتدي هذه الملابس الغريبة المبالغ بها؟

وهذا البنطال الضيق المبتذل الذي تبدو فيه كأنما تلبس حفاظ التبول اللاإرادي؟

ولِمَ هذه الضحكة الهستيرية؟

ولِمَ الرؤية بينهما صارت ضبابية؟

لِمَ هي في البيت متمنّعة صامتة كما لو أصابها بكم؟

لِمَ لا تصغي ولا تتسامر معها كما في السابق؟

ولِمَ انسحبت من المنزل كما لو أن بينهما قطيعة؟

ولِمَ تستهتر بهذا الشاب الدمث الذي ارتبطت به وتعامله معاملة الصِبية؟

لِمَ لا تتزوجه وتستقر؟

ولِمَ تأتي إلى الحفلات والبروفات بهذا الوفد الصاخب الذي يبالغ أفراده بغرابة أزيائهم وسلوكهم؟ يصفّرون بالإعجاب تصفيراً يخرق الآذان ويصفقون ويهتفون مثل مخبولين؟

تهذي ريما بكل هذا.. أمام اندهاش المدرّسة. وهذه تتساءل إن كان هذيان الشابة عارضاً يَشي باضطراب فظيع أم هو دور لبسها وأُخذت بأدائه؟

وإذ تخشى المساس بتلقائية المشهد، تقف بعيداً على طرف الخشبة متأملة حائرة. وإذا بتلميذتها تنقلب على نفسها، فتتحول عن الغضب إلى طلب الرّحمة. استرحام كلب أليف لقي صاحبه بعد طول هجر. تجثو أمامها. تستعطفها أن تعود بينهما الأيام كما كانت في الماضي قبل الصمت والانسحاب. تعزفان وتغنيان معاً في المساء أغنيات الحب الرومانسي..

وإذّاك تطبق ريما القول بالفعل فتأخذ الكمان وتعزف. أغنيات جديدة وقديمة. وأخرى أكثر قدماً. وعلى وجهها كل الألم.. كل الوَجد الذي يمكن لهذه الأغنيات الرومانسية أن تحرّكه في نفس سامعها. ثمّ لا تلبث أن توقف العزف لتتساءل، بكل الحزن البسيط الذي يخالج روحها، عن حائل يقف بينهما. تقسم أنه لو كان عليها أن تقتلع الشجر من الغابات لتحوّلها إلى صحارٍ تسطع فيها الرؤية، لما تردّدت في أن تفعل نظير أن تعود إليهما أيام الماضي الجميل..

هذه المناجاة التي لا يختلف اثنان على أنها مناجاة عاشقة أقلقت الأستاذة. وكادت تجنح في التفسير، إذ راودتها فكرة أن تكون لتلميذتها ميول مثلية وأن تكون مناجاتها مرسلةً لامرأة تحبّها. وتعزّز شكها بسير

الأحداث. تلميذتها، في تلك الآونة بدت أكثر فأكثر معرضة عن الزواج. تقول إنها تمقت سرير النحاس الذي أُعد لزواجها وتمقت ستائره الدانتيل التي ستغلّف النائمين فيه لتزيدهما اختناقاً وعزلة.

كان تصريح ريما بشأن السرير أول إشارة إلى أن ريما تمقت الزواج من الفنان. موقفاً أكّدته في المشهد الأخير. وفيه تظهر شابة مربوطة إلى قدم السرير بقماط أبيض، تستغيث أن يُفك رباطها. لكن لا أحد في هذا الصخب يسمع استغاثتها..

كان من الصعب على الأستاذة أن تفكّ لغز المشاهد. فيما تخشى أن تبالغ ريما بشطحاتها فتؤدي مشهد التبوّل على المسرح.

أو يفلت الأمر من يدها وهي تتدحرج على الخشبة فتقع.

أو تضحك تلك الضحكة الهستيرية.

أو تكشّر هذه التكشيرة التي يرسمها الكاريكاتوريون على وجه الساحرات!

ورغم هذا وجدت الأستاذة نفسها مجبرة على الامتثال. تمتثل للفن في أعقد صوره. أن تقوم بأدوار لا تفهمها، ترسمها لها فنانة عصيّة مضطربة المزاج.

وإذ حضر التدريبات صديقها الناقد الذي تستأنس عادة برأيه، طمأنها حين قال إن المشاهد التي تبدو للوهلة الأولى تعبيراً لأزمة بين امرأتين، تتراءى له أشبه بمرثية بليغة للانقطاع الفظيع الذي يعاني منه العالم.

أُعلن عن إقفال الملف.

قيل لعدم توفر الأدلة. وقيل إن القاتلة، بعد أن فعلت فعلتها هربت خارج لبنان.

ونَعِمت دالية بعد ذلك بالراحة. وانطلقت في أنشطتها. كانت مزهوّة بشخصيتها الجديدة، سعيدة أن تكتشف أبعادا في ذاتها وفي المدينة. كانوا على حق: صورة أنت لمدينتك صورة لزمنك. وزمنها زمن الصخب والعنف والصراعات الفاجرة. ومدينتها منذ عقودٍ تغلي فيها الأفكار وتتصارع القيَم. نزاعات الدنيا كلها تتراءى لك على شاشة بيروت.

تعيش فيها لكأنّك تحيا في قلب العالم

مدينة مفتوحة قيل فيها الشعر والغزل والشتائم وشتى التحليلات..

إن كنت طموحاً تنشد المال،

إن كنت مشتاقاً للحرية تنشد الثورة،

إن كنت خائفاً تنشد الملاذ،

إن كنت جامحاً تنشد اللذّة،

إن كنت من معذّبي الأرض تنشد العدل فاذهب إلى بيروت.

أهواؤك، كلها.. ضالاتك، تجدها في هذه البقعة المكثّفة من العالم: وريثة ثقافات الدّنيا عبر العصور: من فلاسفة اليونان والحقوقيّين الرومان

إلى شعراء العرب وعلماء الفرس. . شعوب الأرض كلّها تلاقحت في هذا الممرّ البرمائي المنبسط بين آسيا وأوروبا. حضارات العالم كلّه تتفاعل فيه منذ فجر التاريخ. ما يُنشر في أوروبا بالأمس تسمع صداه اليوم هنا. أو تَراه مجسّدا على خشبة مسرح أو في الصالات. مهرجانات واحتفالات ومعارض وكتب. ومقولات تنشد العدل وتدين الظلم وتحلّل تاريخ الإنسان وتاريخ البشرية وتاريخ الأمم وتاريخ الأديان وتاريخ القبائل وتاريخ العرب وتاريخ الوطن وتاريخك الشخصي.

إنّك في قلب المنطقة: بلدان مترامية تمتد من عمق الصحراء حتى شواطئ المتوسط، كلّها تتصل ببيروت اتصال الأنهر بالبحار.

كلّها تعكس على شاشتها ما يتأجّج في باطنها وما يغلي في كواليسها من تيارات. أيديولوجيات تهدّد السائد. تُسقط أنظمة وترفع أنظمة. وتلغي الحدود. نعم ما عادت المواطَنة وقفاً على الأوطان!

وحركات تنادي برفع الوصايا عن المرأة. وبحقها في الجنس مثل حق الانسان في الطعام والشراب والملبس. وبحرية غير منقوصة. هذا الجسد لا أحد يملكه. لا عائلة لا زوج ولا مؤسسة. هذا الجسد وحدها المرأة تملكه.

ما كانت دالية تسمع به في فرنسا وتظنّه وقفاً على الغرب، عادت لتجد صداه هنا في بيروت. فالمدينة على غفلةٍ منها تغيّرت! بل إن العالم بأسره، في هذا الزّمن الصاخب العظيم،تغيّر وتحضّر لمنعطف هائل. يُستبدل فيه نظام قديم بآخر جديد. يتساوى فيه القوي بالضعيف والغني بالفقير وصاحب السلطة بالبوهيمي والمرأة بالرجل. ويهزم فيه بنو البشر الإحساس بالإثم، ذاك الرهيب الذي يعتقل الحرية ويدمر الابداع.

فُتِنت بزعزعة الأنماط وبالأفكار الموحّدة للعالم. هذا الذي غدا في خلدها صغيراً كالبرتقالة. فُتِنت بها وراحت تدعو لها وتفتن بها الآخرين.

كثيرون وقعوا في هوى الطبيبة الرائدة الدّاعية لتحطيم القيود والخلاص من الموروث.

ثارت على تقوقعها القديم وأطلقت الأفكار من معاقلها. نعم يقينك ملاذك.. لكن حاذر أن تخسر تجربة حياتك التي لن تتكرّر.

ودخلتْ في مراجعة طويلة لسيرة حياتها. وفي حساب متواصل مع أمها وأبيها. هذه، التي استراحت طويلاً على مهد مراهقتها. وذاك الذي، رغم ثقافته، ارتضى أن تخطب له أمّه فتاة غير بالغة، مدّة عامين، بانتظار أن تبلغ ليتزوّجها. عجباً! ما الذي دعا جدّتها لأبيها أن تفعل؟ سيّدة جسورة شقت الحجاب ومشت في تظاهرات السفور الجماعي أوائل القرن.. تسلك سلوك امرأة ذات قناعات قرن أوسطية لتدفع حفيداتها بعد ذاك الثمن!

ثارت على كلّ هذا كما على الطب التقليدي:

ماذا علموك؟

كيف تقطع وتصل؟

كيف تواسي مريضاً ميؤوساً من شفائه أو مريضة سيبترون ثديها؟

كيف يحدّدون لمرضى السرطان ساعة رحيلهم؟

ماذا علّموك عن الحدس والمشاعر؟

ماذا عن قواك الخفيّة؟

ماذا عن قوى الآخرين.. تلك الجديرة بأن تفجّر سرطانهم في أحشائك؟

وماذا عن التواصل بين البشر، في هذا العصر الذي يوماً عن يوم يزداد أناقة وَصلفاً؟

ويزداد فتكاً!

عجباً! يخترعون المرض ثم يبذّرون الباهظ من الأموال في البحث عن الدواء! وهل يحتاج الناس للتمتع بالعافية، أكثر من حياة سويّة وأذن صاغية من طبيب رحيم؟ ما المبضع والتخدير إلاّ في الغالب تدخلات من شأنها أن تُصلح ما أفسد الدّهر أو عَبَث به طبيب متغطرس.

وراحت تبحث في الاتجاهات البديلة: الطب الصيني وطب الأعشاب. وتدرّبت على العلاج بوخز الإبر على أيدي أطباء آسيويين وأوروبيين ممن جذبتهم تجارب بيروت، أو ظلّوا لسبب ما، رغم الحرب، يعيشون فيها.

وعززت كثرة الانهيارات، خلال الحرب، إيمانها بالبعد النفسي للأمراض. وقناعتها بخصوصية كلّ مريض. نعم! ما من عاقل لم يحلّق ولو مرّة في رحاب الجنون! وأنت لو أصابتك حالة تعاملوا معك تعامل القرون الوسطى مع مرضى الطاعون. ولو أصابك مرض هندسوا لك العلاج هندسة المصانع قطع الغيار. لكن لا. فما من مريض طبق أصل لآخر. وما من مرض إلاّ ويلزمه تواطؤك للدخول.

هكذا صارت شهرتها كرائدة لنمط مغاير في الطب تضاهي شهرتها كداعية لتحرّر المرأة.

وَغصت عيادتها بالمرضى.

شتى حالات المرضى. الميئوس منهم والقابل للشفاء.

وجمعت أطراف المجد. كانت من قلائل الطبيبات اللواتي دخلن قلوب الناس من مختلف الفئات. في الطبقات العليا كما في البسيطة منها. هذه تعتز بأن يكون لها ابنة تحاجج وتصدم بآرائها الجريئة. وتلك ينالها العزاء أن تقيم طبيبة الجسور وتردم الهوّة التي تفرّق بين البشر. حتى الفئات المحافظة أفسحت لها بينها مكاناً. ما كنتَ ستجد كلّ يوم طبيبة فاتنة وكاشفة يخطب ودّها الشخصي والمهني المسلمون المحافظون، لتصبح

الجرّاحة النسائية الأكثر شهرةً في المدينة. تُطلب من السيدات المحافظات. المحجّبات منهنّ أو غير المحجبات، اللواتي يحاذرن أن يكشف عليهن رجل، واللواتي كثرت أعدادهنّ في الآونة الأخيرة في لبنان.

جمعت أطراف المجد. لا ينغّص عليها سوى الخلل الذي أصاب علاقتها بدنيا بعد رجوع تلك من كندا. هي التي ما خيّل لها أن شيئاً مهما عظُم يمكنه أن ينال من هذه العلاقة! لكن، دنيا التي وَسع صدرها لترّهات صديقتها مع الرجال، ضاق بالجسر الذي أقامته تلك في مهنتها مع المحافظين.

ما مغزى صلاتها بأناس لا يشبهونها ولا تشبههم!

ودالية تجيب:

- الناس على اختلافهم يتشابهون. الطبيب حيث يُطلب يذهب. فهذا قَسَم المهنة.

ودنيا تعقّب على الفور:

- لا بل هو حيث يذهب يُطلب. وأخشى أن يجرّك البحث عن الشبه للوقوع في التيار.

وبين جدّ وهزل تضيف:

- من يدري.. لعلّك تعودين إلينا ذات يوم بالشادور. أو تفاجئينا بمعالجة المرضى بالآيات والأحجبة!

- لا تقلقي، تجيب دالية، لن تلبس صديقتك ما خلعته جدّتها في مطلع القرن. وبالنسبة للعلاج.. فالدواء شأن الطبيب. أمّا ما يُستعذب قوله على فراش المرض أو الموت، فهذا شأن كلّ مريض.

يحزّ في نفسها توتر علاقتها بصديقتها. وتضيق برؤيتها المجتزأة للأمور.. ودنيا تحاول التأثير عليها من خلال أسامة. وهذا يضحك. يغمز دالية بطرف عينه ويلتفت إلى دنيا ممازحاً:

ـ واللّه، لو صدق ظنّك فسأشتري لها الشادور بنفسي. .

تضيق بكلّ هذا. غير أنّها وبيقين لا يتزعزع حافظت على موقفها. وظلّت حيث تُطلب تذهب. ولما، في إحدى هُدن الحرب ومحاولة المستشفى إصلاح شأنه، صنّفوها مساعدة جرّاح كأنما ليدفعوا بها خارجه، لم تكترث. ما همّها أن تخسر ما كسبت أهمّ منه؟

فأحوال المستشفى على أي حال في تدهور. هذا المنشأ العريق، الذي تجاوزت شهرته حدود لبنان إلى العالم العربي، قد هوى!

وتتردد عنه أخبار يصعب تصديقها.

يُقال أخضعته الميليشيات لسلطتها فأصبح ملجأً لمرضاها وجرحاها ولزعمائها. بل ولعشاق وعشيقات زعمائها.

ويُقال أكثر من هذا: إن الميليشيات تخبّئ فيه مخطوفيها وأسراها من لبنانيين وأجانب. وإن بعض المعارك الرهيبة التي تدور حوله، إنّما تدور أحياناً لاستعادة هؤلاء المخطوفين!

وجاءتها زميلة لها يوماً بصورة أحدهم: شاب عميق النظرة وسيم. وضحكت زميلتها وقالت:

ـ أين هم هؤلاء المخطوفون الذين نعيش معهم دون أن نراهم؟ لعلهم من جنس العفاريت!

أمسكت دالية بالصورة تتأملها. ولم يسعها أن تشارك زميلتها المزاح. عجباً! كأنما سبق لها أن رأت هذا الشاب. تقول الصحيفة إنّه يعمل مع إحدى منظمات النشاط الإنساني. وقد جاء إلى لبنان للتخفيف عن آلام الجرحى والمعذّبين.

أين تكون قد رأته ليبدو وجهه أليفاً لهذا الحد؟

وسألتها زميلتها لِمَ هي ساهمة؟

وسألتها إن كانت تجد الشاب وسيماً كممثل سينمائي. ودالية أجابت شاردة الخاطر:

ـ إنه بالطبع وسيم.

وقالت زميلتها ممازحة:

ـ ما عدتِ تبالين بالرجال. لا عجب فلديك من يشغل عقلك..

بل عجباً.. كأنما التقت بهذا الشاب من قبل!

لعلّها واهمة. أو لعلّ الشاب يشبه أحدا ما تعرفه ولا تقدر على استحضار هويته الآن. ما يستوقفها ليس فقط الشبه بل النظرة.

هذه النظرة.. كأنما طالعتها من قبل. نظرة استعطاف سبق لشاب ما أن ألقاها عليها. غريب!

وصديقتها سألتها:

ـ ما هو الغريب؟

وقالت هي:

ـ لا شيء.

لم تكترث لقرار المستشفى. ولولا مسؤوليتها تجاه المغلوبين على أمرهم، لما وجدت نفسها راغبةً بالاستمرار فيه. مستشفيات المدينة كلها فُتحت لها! ولمع اسمها في سماء بيروت كما تنبّأت لها، في إحدى الزيارات فاطمة البصارة بقولها، أرى شابة جالسةً على غيمة فوق منارة بيروت والناس من حولها يصفقون. في حينه استخفّت بكلام فاطمة وَضحكت وقالت :

ـ لعلّ الحرب ستنتهي وينتخب الناس أوّل رئيسة جمهورية توقّع معاهدة أبدية ضد الحروب.

لمع اسمها ولُقبت بالعازفة لرشاقة أناملها. وسار لقبها في الأوساط وأصبحت تُستدعى للمشاركة في الجراحات الدقيقة.

وجاءتها عروض مغرية للعمل في المستشفيات النسائية في بعض البلدان العربية. لكن ما من شيء بعد الآن يغريها بترك المدينة. وما عادت تفكر بالعودة إلى باريس. فهي تعشق بيروت. هنا عرفت الحياة والنجاح ومتعة الصراعات. هنا اكتشفت أعظم الكنوز: الحرية. والنتيجة تبلورت في ذهنها. مبتغاها ليس الحرية. بل حريتها في بيروت هو المبتغى.

رغم شقاء الحرب وشقاء تجربتها تعشق هذه المدينة.

حتى وإن تهيّبتْ اقتحامها في بادئ الأمر، بعد عودتها من باريس. هي ابنة بيروت تهيّبت ذلك! كثيرون يتهيبون اقتحامها. فأنت إذ تلجها إنّما تلج أعماق نفسك.

إن دخلتها فلن تعرف بعد ذلك باب الخروج.

لكن لِمَ الخروج؟

أين كنت ستعثر على هذا التيه الجميل؟

أيّ المدن كانت تطالعك بهذا التكثيف البهيّ؟

بهذا التناقض الفتّان؟

بسحر حداثتها العجيب! امرأة محجبة تسير جنباً إلى جنب مع أخت لها تخرج إلى الشاطئ بمايوه بكيني شبه عارية. أو عارية تماماً تتبختر على رملٍ أبيض في نادي العراة.

مثلما فعلت هي في رحلتها الأخيرة إلى أوروبا: سمراء، ذات نهدين عاليين بلون الكاكاو، وحلمتين مستديرتين بلون البن. وجسد توحّد بماء البرونز. تتبختر والهواء يعابث شعرها الأسود الكثيف ويدغدغ جلدها المشدود كجلد زنجية!

يدغدغ إحساسها بالانطلاق حرّة من ملابسها!

ورغم هذا فلا بديل لها عن بيروت.

يقولون حرب وضرب، تقول وطنك ليس خيارك. وطنك ليس ثوباً تفصّله على ذوقك ومقاسك.

يقولون تناقضات لا تعرف الرحمة فتجيب: أيّ بؤس أن تحيا في زمن أملس، أهله متشابهون أو متّكئون على اتفاقهم العذب القديم. لا يختلفون على أكثر من مذاق الحساء ولا يقضّ مضجعهم سوى عوامل الطبيعة. يصحون معاً في وقت مبكر ويخلدون في ذات الوقت إلى نومهم الهانئ العميق. هكذا في تكرار ممل مثل أوراق الدفتر البيضاء.

أُطلقت الأفكار من معاقلها وما عاد شيء ينغص عليها. ولا حتى خطوبة اختها، إذ امتثلت لتلك القناعة، بأن هذا الزواج، في زمن أُسلِمت مقاليده لسلطة المال، هو الملائم لريما. القلعة المنشودة لحمايتها في موقعين كلاهما صعب: جمالها وفنها.

زواج مثل هذا، من شأنه أن يرعى الحلف المعقود بين الأم وابنتها المفرطة في الدلال!

ما الغبن في ذلك؟

إذا ما كانت الأطراف المشتبكة سعيدة، فما الدّاعي إذن لفك اشتباكها!

واستمرّت في تشجيع أختها على انطلاقها في الفن وحضور حفلاتها. إلاّ أنّها ظلّت مبتعدة عن البيت. إذْ ما عادت تجد متعة في التسامر مع ذويها. وبدل العودة إليهم في المساء، صارت تمضي أمسياتها مع أصدقائها، وتبيت معظم لياليها في العيادة.

أكثر فأكثر ابتعدت والحائل بينها وبينهم ذاك الفنان. لا لأنها في فترة ما أحبته وأنكرها، بل لأن روحها صارت تمقته وتمقت فتنة أمها به. لكأنه حين يمشي في البيت يمشي على صدرها!

تمقته كما تمقت صالات البيت شبه الفارغة.

كلما قرّرت أن تذيب الجليد، اصطدمت بالصالات الواسعة المشرّعة

وانقبض صدرها. وتضع اللائمة على أمها التي استجابت لمزاج فنان مؤتور وأباحت له أن يهندس هذا الفراغ، الذي ترى فيه نفياً لها. بل وترى فيه نفياً لعائلة بأسرها.

وظلّت رافضة الزواج وجاهرت بنصرتها الرابطة الحرّة. وحافظت على علاقتها بأسامة الذي صار يُنسب إليها وتنسب إليه. والشلة تتعامل معهما كزوجين من نمط معاصر مثل أوروبيَيْن اختارا ارتباطاً بغير رباط. وذات مرة قرأت مقالاً مفاده أن العشق، بمعنى ما، مرض يصيب الإنسان فيجعله جامحاً متملّكاً. وأن البعض يقتله هذا الشعور والبعض الآخر يُشفى منه بمرور الوقت وتراكم الخبرات والخيبات!

أعجبها المقال!

نعم، ما العشق وحب التملّك سوى أعراض أمراض يجدر بالإنسان الناضج أن يتخلص منها. فما من عشق جامح إلاّ وبطانته أذى الروح. وهي من ناحيتها، بعد التقلبات والخيبات نزعت المرض من روحها. شُفيت وعرفت السكينة.

يا إلهي، أيّ ثمن تدفعه المرأة لقاء استلامها للهوى وللأهواء؟

شُفيت وقرّرت أن تعاشر هذا الشاب الذي، منذ تعارفها به، استلطفته واستلطفت لحيته البنية الكثيفة غير المشذّبة. لحيته الطويلة التي تكاد تصل إلى منتصف صدره. يزكي نرجسيتها المثخنة، أن يكون لها بين الناس صديق معلن. وسيم ومثقف تتنافس عليه شابات يصغرنها سنًا ويفقنها جمالاً. وأن يقول لها كلام الغزل ذاته الذي كانت تقوله لرجلين استباحا مشاعرها وأنكراها.

يزكي نرجسيتها أن يجدها أجمل نساء الأرض.

وأقبلت على علاقتها الجديدة بمرح. فقط تعاشره بلا جموح ولا مرض. لا تدري إن كانت قد أحبّته فهي ما عادت قادرة على تعريف

الحب. جلّ ما تعرفه أنه يجذبها بعالمه الفوضوي وأفكاره المبتكرة وانحيازه العنيد ضد السائد والأسياد وضد السلطة. الجائرة منها أو الرحيمة. كلها في ترويض الإنسان واحدة. كلّها سواء في تشويهه. السجن والمدرسة. الجامع، الكنيسة ومركز الشرطة. رجل الدين أو رجل السياسة. كلها أنقاض عهود ووجوه تنتظر ثورة تكنسها عن سطح العصر كما تكنس الجائحات ضعاف البُنى.

يجذبها هذا الذي يسبقها إلى وضع علامات الاستفهام في مواطن أرقها: أسئلتك دليلك إلى الحقائق. هذه التي كالأمراض لا فائدة من نكرانها. كلّما فعلتَ توغّلتْ في أعماقك، لتفاجئك بظهورها وتدكّ ذات يوم عرشك البهيّ!

الأسئلة التي قادتها إلى موقعها:

ما نفع أن تتقوقع طبيبة متمرّدة وباحثة عن العدالة، في حيّ سكانه قادرون على شراء الصحة في أرقى مستشفيات أمريكا وعلى السفر إلى أقاصي الدنيا لحل مشكلاتهم؟ هذه المشكلات التي في الظاهر تضاءلت إنما لتزداد في حقيقة الأمر تعقيدا. شأن البلدان المبتهجة بحداثة استقلالها. جريمة الشرف، في تلك الأوساط المتبرجزة تلاشت. ما عاد يرتكبها أخ أو أب، إذ أُوكل عقابها للضحية ذاتها. هكذا في نمط مازوشي غريب، على شاكلة هذا العصر الذي يستهلك الإنسان من داخله.

وتحتار هي بتعليل كلامه. أَتراه يقصدها؟

من المؤكد أنه لا يقصدها إنما لكأنها، في ما يقول، قصد الكلام!

رغم استمرارها في رفض الزواج، ما لبثت دالية أن وجدت نفسها مخطوبة.

حدث ذلك حين نجح رفاق الشلة في حثّها هي وصديقها على الارتباط. في بادئ الأمر استبعدت الفكرة. ثم وبعد ذلك لاح لها الجانب المغري منها. الذي من شأنه أن يزكي نرجسية كل امرأة: أن تكون لهذا الحد مطلوبة!

أن يُردّ لها الاعتبار بعد الإنكار.

أن تكون متزوّجة في مجتمع جميع أفراده مطالبون بالزواج.

كانت في سهرة مع صديقها والشلّة. من تلك السهرات التي أعادت لها الأجواء الأولى لتعارفها بهم. أسامة وأكرم وزينات والآخرون. شربوا وتسامروا ورقصوا. منذ وقت طويل لم يحدث لها هذا!

وإذا بأكرم، يقف رافعاً كأسه ويهتف:

ـ مدعوون جميعاً الليلة للاحتفال بالعروسين دالية وأسامة.

وضحكت هي لطرافة الفكرة والتفتت إلى صديقها الذي شدّ على كتفها وضحك بدوره وأجاب:

ـ أنا موافق. فلنشرب نخب العروس دالية وعريسها أسامة.

إذاك صاح الجميع:

ـ نخب العروسين أسامة ودالية.

وعلا صوت الموسيقى ودار الرقص وتعالى ضحك الحاضرين وشاعت البهجة. وخرج أحدهم وعاد بالطعام والشراب فيما كانت هي طوال السهرة مرحة تتسامر وتضحك.

ونامت في أحضان صديقها مخطوبة لتصحو في الصباح التالي مكتئبة. ولازمها اكتئابها أياما. ومقتت هذا الشاب الذي ظلّ يحلم بالارتباط الرّسمي بها حتى انتصر عليها. وها هو مستمر في إلحاحه لجعل الخطوبة رسمية أمام أهلها والناس. منذ تودّده لها أخبرَتْه أنّ غايتها ليس الزواج بل الحب. فقال، سيّان عنده الصّيغ، فهيامه بها هو في حدّ ذاته غاية. ووجودها في حياته، مبرّر للوجود.

وإذا به الآن يخلّ بكلامه ويوقعها في شرك الارتباط!

وذات مرة، لكثرة ما ألح عليها، ثارت بوجهه وذكّرته بالمسؤولية والعمل، فأقسم لها على أنه سيعثر على الحل.

وما هي إلاّ أسابيع حتى جاءها حليق الذقن، وأخبرها أنه أجرى مقابلة للعمل مع إحدى شركات البترول في صحراء الخليج وأنه قُبِل. وهو الآن يستعد للسفر.

لأوّل مرة حليق الذقن!

ووجهه، بلا لحية، بدا لها منحوتاً بصورة بديعة. وبدا أكثر طفولة وأشد بياضاً وعيناه أكثر عمقاً وسواداً وشفتاه أكثر اكتنازاً ولسانه شديد الاحمرار.. ووجدت نفسها تفكر أنها تمقت وجهه الطفوليّ الحليق وتمقت حمرة شفتيه ولسانه وأنها فقط تنتظر سفره لتقطع علاقتها به. تقطعها بلا رجعة!

وتعاودها فكرة القطيعة لتتردّد وَتؤجل التفكير بها.

ولما قبيل سفره سألها أن تفاتح أباها أثناء غيابه بموضوع الارتباط وعدته خيراً.

كان يمكن للنتائج أن تأتي لصالح الوعد، فالفكرة ما زالت تدغدغ غرورها والشاب مندفع إليها ويغريها بالقبول. وأهله، رغم أنها تكبره سناً، مندفعون إليها أيضا. والده قال إنه على استعداد لأن يضع جميع إمكانياته لتزويج ابنه الوحيد.

وأنه لا داعي لأن يهاجر للعمل فالأشغال رغم الحرب متوفرة. وابنه، رغم بساطة الحال، الوريث الوحيد. سيبيع قطعة أرض في البلدة ويشتري له بثمنها شقة في بيروت ويجهّزها أجمل تجهيز. وأمه أيضاً مستعدة لبيع مصاغها والأرض التي ورثتها عن أبيها. قالت ستشتري للعروس السوليتير الذي يليق بها. من الماس طبعاً. وتقيم لها عرساً في أرقى فنادق المدينة. وأخته قالت إن زوجها الثري سيهدي العريس سيارة. منذ سنوات وهو يشجعه على الاستقرار. قالوا هذا. وهم الآن ينتظرون إشارة لطلب يدها من أبيها لجعل الخطوبة رسمية.

دوافع كثيرة تغريها بأن تلعب الدور.

جميل أن تستعيد إحساسها بشبابها الذي ابتعدت عنه لتغرق في كواليس المستشفيات والجمعيات ومشاكل البائسات. جميل.. ولا شيء يعكّر عذوبة الفكرة سوى انجراف الشاب نحوها، ذاك الانجراف العنيف! فهو منذ الخطوبة بين الأصدقاء بات لا يكفّ عن الحلم بالإنجاب معظّماً رابطة الدّم التي لا شيء برأيه يضاهيها في جعل العلاقة بين المرأة الرجل أبدية!



كلٌّ يعزف موسيقاه والجميع معاً يعزفون السمفونية

الأب والأم وريما وجوقة العرس وأسامة ودالية.

هذه التي بتراكم الأيام والخبرات، بدأت مشاعرها تجاه بيروت تتغيّر! مهما بلغ بك الشغف تضيق نفسك بالترّهات.

وهذه المدينة أمّ الترّهات! ما إن تقول، هذا أفظع ما تصل إليه حرب حتى ترميك بأفظع منها. وتأخذك صُعداً في دوّامتها تائه المصير.

لكأنّك سيزيف وهي قدرك.

هذه مدينة الإشارات الملتبسة: كلّما ظننت نفسك فهمت تبيّن لك أنّك لم تفهم.

مدينة الإشارات الكاذبة! شاباتها في العشرين يافعات وفي الثلاثين عوانس!

مدينة متعسفة: طبيباتها منشغلات بقضايا القرن العشرين انشغالهنّ بمعالجة جرائم الشرف!

مدينة النقائض القصيّة. هنا ستجد امرأة غارقة في الشادور وهناك مَن تتحدّاك بعري يتلألأ في الشوارع كما في وسائل الإعلام. هكذا يُختَزل كيان المرأة. ما أفقره من كيان لا يُرى فيه سوى وازع غواية أو شيطان يقودك خارج رشدك!

مدينة صلفة تسألك كم تملك لتُخبرك كم تساوي.

غرّيرة، تُغوي ثم تغرّمك جزاء استسلامك للغواية.

لا همّ ما يبيحون من أفكار ولا كم يعبثون بالأحلام حتى ليخيّل لك، أنها قاب قوسين من التحقيق.

لاهمَّ ما ينشرون في صفحات الإعلان والإعلام: عارضات شبه عاريات وشبان ذوو فتنة، يدعونك للذهاب معهم إلى دنيا الكمال والمتعة! خارج واقعك الشاحب البغيض. هناك حيث الشواطئ ساحرة كما في الجنة. ويخوت كالبيوت وسيارات أشبه بالطيارات وموتوسيكلات ضخمة فاقعة الألوان للمغامرين الأشدّاء.

ما أبدع تدابير هذا العالم السحري!

حب ومغامرات وتجارب وآخر صيحات الموضة!

آخر تقليعات الماكياج والإكسسوار والتسريحات. ومجوهرات فالصو وأخرى حقيقية يفوق ثمنها ما تطعم به أولادك مدى العمر.

لكن لا تبتئس فهي ترخص لك!

إن كنت مستعداً للتخلي.. إن كنت ميالاً للتهوّر.. إن كنت من ذوي الطموح.. فمن المؤكد أنها ترخص لك!

أو تُقدم لك مجانا.

لكن حاذر، فالصحف تترصد خطاك لتطالعك في اليوم التالي بآخر الفضائح: فتيات قاصرات وقعن في فخ هذا الطموح. وفي شبكات تمرّست بتشغيل اليافعات. وتفاجئك الصحف بنشر الأسماء!

عجباً لهؤلاء! إن كانوا يشعلون المهرجان لجذب ضعاف النفوس فلمَ تراهم يقبضون على الجانحين؟

أجمل مراهقة دون الخامسة عشرة!

أجمل عارضة للملابس الداخلية في الثالثة عشرة!

ويافعة لملابس السهرة أو الشاطئ!

صاحبة أجمل ساقين وأحلى ابتسامة!

يعرضن مفاتهنّ والملابس مثل أطيافٍ مسرنمة.

كان في ودها بعد الفضيحة الأخيرة أن ترسل برقية تهنئة لمسؤولي الإعلام على نجاح مهمتهم! ما همّ لو سقط الضعفاء، إذ لا بد لكل تجربة من سقطات وساقطات: الفضيحة والسجن أو الموت لمن خرجت عن صورة سيدتنا مريم العذراء.

منذ أن فتحت عيادتها والخارجات عن القداسة يأتين إليها.

يتوسلن أن تُجري لهنّ العملية تلك ليرجعن بكارى. هل نحن في القرون الوسطى أم أنّنا نتحضّر لاستقبال الحادي والعشرين؟

في البدء كان جوابها الرفض والنصح. تحذّر الفتاة من أن تبدأ حياتها الزوجية بكذبة. وتحدّثها بدور المرأة في تغيير السلوك العام والقيم:

- صارحي خطيبك بالحقيقة. واجهي نفسك بالحقيقة. هذه طبيعة البشر وهذا حقك.

غير أن مقاومتها لن تطول كثيراً.

إذ ستتحطم الثقة بين هدى، التي امتثلت للنصيحة، وبين زوجها، لتعبث الشكوك طويلاً وكثيراً برأسه ويُحوّل حياتها إلى جحيم.

وسترجع أسماء زوجة علوان إلى أهلها ظهر اليوم التالي لزواجها مورّمة الوجه مزرقة الجفون بالكدمات فلا يتأخر أهلها في تخمين السبب ومعرفة التفاصيل. أمضى الليل يحقق معها وهي تقسم له على براءتها وهو بين السؤال والجواب يضربها ويبكي ثم يثور فيحاول اغتصابها وهي تقاوم فيشتمها. يشتم فيها العاهرة التي تفتح فخذيها بالحرام لعابر سبيل أما لزوجها بالحلال فتتمنّع!

وسينتقم عريس سامية منها إذ خدعته بوجهها الملائكي فشوّهه بماء

النار. نعم، فلتواجه المنافقة العالم طوال حياتها بعلامة العار. ولتحمل دالية وزر الوجه المشوّه. فتعدل عن قرارها وتقود أول حملة للتشهير بالفاعل. وتؤلّف جمعية لحماية الفتيات من جور الممارسات والضغط على القضاء لإلغاء ما يدعونه بالأسباب التخفيفية. يزعمون فقدان الصواب وينالون أقصى حيثيات التخفيف: بضعة أشهر لمشوّه الوجه وسنتان للقاتل. أو يمضي بلا عقاب، إذ يقتل بلا جلبة وبالتواطؤ ليسرح بعد ذلك ويمرح ولا أحد يبلّغ! هكذا وجدت نفسها تستسلم وتتدرّب على إجراء عملية «الشرف»، ذاك الخنجر المسلّط على الرّقاب.

وصارت تأتيها فتيات من شتى الفئات. من الأرياف والمدن. الصغيرة منها والكبيرة. من العاصمة: أسفلها وأعلاها. وفتيات من خارج الحدود: أميرة وسميرة وجميلة ومريم وزينب وفاطمة وزهرة وخديجة وماري وجورجيت وأنطوانيت وآنجيل وريما وسيما ودينا. صبايا في عمر الورود من شتى الأديان والطوائف والفئات والمناطق. منهن من تأتي بمفردها. ومنهن تأتي متكئة على صديقة مخلصة أو بصحبة أم غاضبة أو أخرى متعاطفة دامعة.

أو تأتي مع الرجل ذاته الذي نال منها.

يأتين ذليلات باكيات متوسلات أو هلعات مثل ياسمين التي كانت تنتحب وتلطم خسارتها. فهي ما فكرت بالفعل السيئ وما كان فعل كهذا سيخطر لها أبداً، إنما جُرّت إليه جرّا، حين فقدت هي وصديقها السيطرة تماماً على شهوتهما. تلطم وتقسم بالتوبة وتعاتب الدنيا على قسوتها! يا ربي. .إن كان هذا محرّماً فلمَ زرعتَ في دمنا الشهوة؟

وتركع عند قدميها ترجوها أن تصف لها دواءً يقتلع من أحشائها هذا الشيء البغيض. وفي صحوتها من البنج تهذي: ليت أهلها ألبسوها حزام العفة الذي يحكون عنه. .ليتهم أخاطوها. .أو يا ليتها ماتت قبل هذا.

ماجدة، كانت من بينهنّ الأكثر هلعاً إذ جاءتها فور فقدانها العذرية،

نازفة بدمها تتوسل إليها أن تفحصها. لعلها لم تفقد بكارتها تماماً. لعل هناك بقية ما متبقية يمكن إنقاذها.

ويفقن من المخدّر منهارات خائرات القوى يشهقن بالبكاء والندم. وهي صارت تكره صحوتهن فتتركهن للمرضة وتخرج. تخشى أن ينقلب التعاطف إلى كراهية كما حدث لها مع ماجدة التي، لا تدري لِمَ لهذا الحد تضايقت أن تأتيها نازفة بدم بكارتها ورفضت أن تمتثل لطلبها بإجراء الفحص.

ضاقت بكل هذا. وأصبحت تراودها فكرة الرحيل. ترحل عن هؤلاء العذراوات البائسات فلا تسمع توسلاتهن ولا ترى مريم وقد أجهشت وهي تصحو من المخدّر تطلب الصفح من طيف أمها. تقسم لها على أنها طاهرة الجسد والروح طهر سميّتها مريم العذراء.

ترحل إلى مكان لا تسوق فيه الأمهات بناتهن إليها لتكشف عليهنّ. مرتابات بأمرهنّ أم متأكدات.

أوّل مرة جاءتها سيدة بابنتها المراهقة فقدت أعصابها وكادت تطردها. ثم خطر لها أن تسأل البنت نفسها إن كانت راغبة بالكشف فانفجرت هذه باكية محتجة على هذا الفحص الشنيع، فيما الأم تتوسل إليها أن تطمئنها بعد أن ضبطتها في عناق مع ابن الجيران. والبنت تخبط على صدرها وتصيح: عناق.. يا ناس عناق! والأم لا تصغي لاحتجاج ابنتها مستمرّة بالتوسل للطبيبة. إذ لا أحد يدري كيف يمكن للشيطان أن يوسوس ولعله قد وسوس لها من قبل لتخسر مستقبلها إلى غير رجعة.

ترحل عن هؤلاء وغيرهنّ. حالات متشابهة وأخرى مختلفة عجيبة مثل سليمان الذي سمعت بحكايته من زميل لها والذي، حين صارحته عروسه بالحقيقة انهار يبكي. هو الرّجل بكى ولطم وأرجعها في الحال إلى بيت ذويها. بخلاف سعيد الذي ظلّ رابط الجأش.. كان يتمنّى لو يغفر لعروسه التي يعبدها، لكن الموقف كان أقوى منه. وبدل أن يصطدم بالحاجز المنيع

وقع في الفراغ الرّهيب. ورغم هول الصدمة تماسك وأجرى التحقيق اللازم بهدوء اليائس. ولما عرف السبب قرّر أن يرأف بعروسه ويصرفها بلا فضيحة. أبقاها عنده فترة عاشا معاً عيشة أخٍ وأخته. ثمّ وبعد أشهر سافر وأرسل لها ورقة الطلاق. شهم رحيم يعوزه القبول، فضّل أن يُتهم بالنذالة على الاحتفاظ بزوجة يعبدها وقد سبقه إليها رجل.

رغم تعاطفها بدأت دالية تضيق بالنادمات كما بالوقحات كما بالحكايات التي يراها أسامة مسليّة. مثل حكاية ميّادة التي لفّت ساقاً على ساق لتنطق بكلمتها:

- الزواج في حياة الفتاة الشرقية، يا دكتورة، أعظم حدث. والزفاف أجمل المناسبات.

ما يحدث قبله وبعده.. كلها زوائد.

زمن القداسة يا دكتورة قد ولّى. والصدق في هذه المسألة جريمة ترتكبها الفتاة بحق عريسها، إذ تنزل به الجرح الذي لا شفاء منه. سيأتي يوم يتذكر الناس فيه هذا ويضحكون تذكّرهم شرائع حمورابي أو عبادة الأصنام. لكن.. إلى أن يحدث هذا.. فلنستمتع بما وهبنا إياه الخالق. ولننعم بتقدم الطب وبهذه العملية التي اهتدى إليها والتي من شأنها أن تُوزع السعادة على الجميع:

في أجمل مناسبات العمر، أهلي يستقبلون اليوم التالي مرفوعي الرأس.

وأنا أجلس على العرش جلوس أميرة. لا خوف. لا قلق. لا تساؤلات.

وعريسي بجانبي يزهو بنفسه هو أيضاً زهوّ أمير.

وحين يختلي بي ويفض بكارتي، لك أن تتخيّلي كم سيزداد بي هوىً ولي امتناناً لهذا الشرف العظيم الذي وهبته إياه!

يكره الإنسان ما يعجز عن فهمه.

ودالية، باتت عاجزة عن فهم ما يجري حولها. في المدينة كما في المستشفى. عاجزة. .بعد أن تأكد لها وجود المخطوف فيه، وباتت هي نفسها مورّطة بالسرّ. والصورة التي، أوّل ما رأتها على الصفحة الأولى من الجريدة وأصابتها بالحيرة، ما لبثت أن دخلت في إطارها واتحدت مع أصلها الذي عرفته.

كان الوقت ليلاً حين دخلتِ غرفة العمليات. كانوا قد استدعوها لجراحة عاجلة. وكانت تلك المرّة الأولى التي يتجاوز فيها المستشفى قراره. كلّمها المدير بنفسه ورجاها أن تقوم بالعملية. وهي عابت على نفسها الرفض والليلة عيد وما من جرّاح حاضر في تلك الساعة سواها.

دخلت وكان المريض جاهزاً ممدّداً على طاولة الجراحة.

ابتسمت له ورحبت به. واستغربت أن يكون رغم جراحه كامل الوعي. ولحظة مدّ ذراعه لطبيب التخدير نظر إليها تلك النظرة! كل الاستعطاف. .كل الرّجاء فاض من عينيه! مثل محكوم يساق إلى الإعدام جاءت مخلّصته في اللحظة الأخيرة بأمر العفو.

بالطبع سيستعطف مَن كان مثله مثخنا بالجراح!

لكن لِمَ هو رغم وعيه مستغرقاً في الصمت رافضاً الكلام؟

وخطر لها أن تسأله عن اسمه وعن ذويه. ثمّ وجدت نفسها تشجعه وتسأله أن يعدّ للعشرة غير أنه لم يتجاوب. إذّاك عدّ الطبيب بدلاً منه للثلاثة وكان الجريح قد غاب.

استغرقت العمليّة ساعات. وعند الفجر ذهبت للنّوم. غفت فيما نظرات الشاب تعبر مخيّلتها. وفي عصر اليوم التالي عادت إلى المستشفى لتطمئنّ عليه. ولعجبها قيل لها:

- تعب بعد العملية. حدث له هبوط بسيط في القلب. وطبيبه، من باب الحرص، طلب نقله إلى العناية المركزة في مستشفى الجامعة الأمريكية. وحال يتحسّن يعود.

وخطر لها أن تسألهم عن اسمه لتذهب وتطمئن عليه. لكنها ما لبثت أن أقلعت عن الفكرة. وإن بات من الصعب عليها أن تنسى وجهه بعد ذلك. كلّما لفّت غرف المستشفى لزيارة المرضى خيّل لها أنها ستراه راقداً في أحد الأسرة يلقي عليها نظرة الرجاء تلك.. وها هي الصحيفة تعيد نشر صورته وتلمح إلى زنزانات ومخطوفين..وزميلتها تسألها رأيها بهذه الإشاعات وهي ثانية تُتمتم: غريب.

تقول غريب في ذات اللحظة التي اتحدت الصورة بأصلها.

صورة الشاب الذي أجرت له العملية والذي تشير الصحيفة إلى أنّه مخطوف ومسجون في مكان ما من المستشفى.

ستنتظر شهوراً قبل أن تكتشف وجوده بنفسها. شهوراً ليفتح لها ثانية الباب على عالم المشاعر والحب الجامح الذي ظنّت نفسها قد برئت منه.

في هذا العالم الصاخب، كان كلٌّ يعزف موسيقاه..

الأب أسلم أمر ابنته الهشة وذات الطموح الفني إلى من جاء يستلم منه الأمانة. لكن الحرب تجدّدت وتأجل الزفاف سنة جامعية أخرى وعاد الخطيب إلى روما.

والفنانة الشابة، بعد سفر خطيبها وإقفال المطار، نَعِمت بهدنتها الشخصية. تجد نفسها مخطوبة بلا خطوبة وترى في زواجها المؤجّل حدثاً بعيد الحدوث. هكذا، فترة التعثر عَقِبَتها فترة ازدهار. كانت أثناء انهيارها قد انتقلت إلى منزل أستاذتها لتمضي نقاهتها بعيداً عن زحمة العمال والزائرين. ولما عادت إلى ذويها، كانت عودتها شكلية، إذ صارت تقضي نهارها في المسرح. وبعد انتهاء التدريبات تلازم أستاذتها. تساعدها في عمل ما أو تذهبان معًا لمشاهدة فيلم أو عرض، فلا تعود إلى البيت إلاّ في المساء.

والأستاذة، في هذا الفاصل، بين وصاية انتهت وأخرى لم تبدأ، كثّفت التدريبات. طموحها، قبل سفر البطلة أن تسجل مشهداً دامغاً في تاريخ المدينة. هكذا استسلمت لشطحات تلميذتها. ولغرابة ما ترسم. ما عاد يشغلها الجانب الشيطاني منه، طالما أنه تعبير بصري ساحر للانقطاع المرير الذي يعاني منه العالم.

والأم في غمرة انشغالاتها لم تحضر أياً من تدريبات الحفلة الأخيرة التي

ستقدّمها ابنتها. بل انصرفت، بعد إرجاء الزواج إلى أمورٍ تبغي إنجازها بانتظار الموعد. كان آخر عمل قامت به قبل دخولها السرّي إلى المستشفى، أنها طلبت من النّحاس تلميع سرير النحاس القديم المشغول بموتيفات من الفضة، ليصبح سرير ابنتها ليلة زواجها. وأعادت تركيب ستائر التول الأبيض والدانتيل الموشّى بخيوط الذهب، والذي سينسدل من الإطار العلوي ليغلّف العروسين في نومهما الهانئ. ولما نُقل السرير إلى الشقة التي ستصبح شقة ابنتها، كان في أبهى صورة لقطعة أنتيكا تحمل جاه من سبقها إليه. هكذا دخلت الأم المستشفى مطمئنّة البال إلى أنها متى خرجت منه، ستكون حاضرةً لإقامة العرس في أيّ وقت يعود فيه الفنان من إيطاليا.

الكلّ يعزف موسيقاه والسمفونية تبلغ الذروة. إذ سيتوقف العزف فجأة ويسود الصمت ويُصاب العازفون بالذهول ويصيخون السمع إلى وجيب المأساة! فالأم في المستشفى وقد دخلت في الغيبوبة الممهّدة للموت.

تساءلت دالية كثيرا، عن السبب الذي جعل أمها تقوم بتلك المهزلة. نعم ما الذي دفعها لأن تفعل ما فعلت دون استشارة ابنتها التي تتسابق نساء المدينة لاستشارتها!

والأم نفسها، لو سُئلت عن الدافع وكان في مقدورها أن تحكي، لما وجدت ما تضيفه على القول بأن الظروف وحدها كانت السبب.

الظروف، تلك، التي بدأت بتأجيل الفنان الزفاف.

الفنان بعد جولة طويلة من الحرب استغرقت الصيف بأسره، والتهمت الفترة التي خُصصت للمناسبة وشهر العسل، اقترح تأجيل الزفاف إلى مستهل الصيف التالي. هكذا يمضي سنة جامعية أخرى في روما، تكون السبتية، يتفرغ بعدها لفنّه ولاستقبال عروسه في بلاد الغربة. ولم يحتج أحد، بالطبع، على هذا التأجيل ولا الأم التي وجدت فيه متسعاً من الوقت لتنجز ما لم تنجزه بعد، كأن تشتري بعض اللوازم لها ولزوجها الذي أهملته طويلا. أو تقصّ شعرها وتخيط فستاناً رسمياً ثانياً لها وآخر لمنصورة التي

كادت تنساها في زحمة الأحداث. أو. . تجري عملية قلب مفتوح لتغيير شريانها المريض!

الظروف وحدها. .

وإن كان الفيديو قد لعب دوره. لا سيّما السيناريو الخاص الذي وضعه صديق الفنان والذي سيجعل الفيلم أقرب إلى المسلسلات الأمريكية الراقية منه إلى شرائط الفيديو المعهودة. المسألة إذن، كما بات أكيداً لدالية، لا تخلو من اللوثة النرجسية، محرّكة التصرفات الطائشة التي تدفع بأصحابها غالباً إلى التهلكة. اللوثة التي يتساوى في الانصياع لها بنو البشر لحظة الغفلة. المزهوّ منهم بذاته، أو مَن أمعن في إنكارها وَوَضْعِها في تصرف الآخرين، شأن أمها التي، قلّما رأتها منشغلة بشيء غير التدبير المنزلي وغير وَلعِها بمناسبات ابنتها ريما.

الظروف. . وإن كانت ريما قد لاحظت على أمها في الفترة الأخيرة، زهدا في الهندام أشبه بالإهمال. وصارت تحثّها على المقاومة والعناية بنفسها، خاصة بعد أن ظنّتها زميلة لها إحدى شغالات البيت.

المصادفات أيضاً لعبت دورها. . المصادفات، قرينة العجائب التي تحسم الأمور المستعصية وَ ترتّب للناس ما أغفلوا ترتيبه، قد رتّبت هذه المرّة للأم لقاءها القدري بطبيبها الذي لم تره منذ خمسة عشر سنة. كانت في زيارة مستعجلة لصديقة لها في المستشفى حين لمحته في الممر، فهرعت إليه وسلّمت عليه وسألته متى عاد من أمريكا. وهو، رغم طول الفراق، هلّل لرؤيتها وسألها عن أحوالها فبشّرته بخطوبة ريما وبالعرس المرتقب ووعدته بأن يكون من المدعوين. قالت هذا ثم سألته إن كان قد تعرف بالطبيب الشهير مايكل دبغي. وسألته عن عمليات القلب وعن آخر المستجدات هناك. .

على الأرجح أن سؤالها هذا كان المفتاح إلى التهلكة.

إذ أخبرها أنه لطالما التقى دبغي وآخر غيره مصري الأصل مقيم في انجلترا، يُدعى مجدي يعقوب، وهو لا يقلّ عن نظيره ذي الأصل اللبناني كفاءة وشهرة. كما عرف العديد من جهابذة الطب من جنسيات مختلفة استقروا في أمريكا. غير أنه من ناحيته، قد اعتمد على نفسه واستحدث طريقة خاصة به سجلّها باسمه في سجل الابتكارات. وأنه عاد منذ يومين فقط ومعه شرايين من ابتكاره، تفوق تلك الطبيعية قدرة على التآخي مع قلب الإنسان، وفي نيّته تركيبها لأحد مرضى القلب في لبنان. لو شاءت فستكون صاحبة الأولوية بالتجربة حسب أخلاقيات المهنة. فهي أوّل مريض من مرضاه القدامى يلتقي به بعد عودته.

قال هذا ثم شجّعها على الإسراع باتخاذ القرار:

نعم، إذ آن الأوان لتتخلص من علّتها القديمة. هكذا تستقبل عرس ابنتها، حيوية، متجددة الشباب.

لو حكت الأم الحكاية لذكرت أن الطبيب في نهاية حديثه مازحها بالقول:

- حظك كبير. سيُكتب لك عمر جديد وترجعين صبية من عمر بناتك!

المصادفات!

صحيح أنها لم تكن تشكو من مرضها، إلاّ أنها في الفترة الأخيرة صارت تضيق بالإرهاق الذي يلمّ بها بشكل مفاجئ والذي أوعزته إلى العلّة القديمة في قلبها. أما عن تكتّمها في الذهاب إلى المستشفى فما كان وراءه سوى إدخال السرور إلى قلب زوجها وابنتيها بالمفاجأة: نجاح العملية والخروج منها بسلام.

كلٌّ يؤدي معزوفته. .

والأم، في غيبوبة ما قبل الوفاة، كانت تؤدي خاتمة الوصلة الأولى من حياة العائلة.

حين أُبلغت دالية النبأ، كان حدث مثل هذا أبعد ما يكون عن توقعاتها. ولما استوعبت الصدمة حلّ الغضب مكان الذهول. وهذه المرّة بسبب إقبال أمها على الموت قبل الأوان. يُقال: لا أحد يموت قبل أوانه. بل وفي يقينها أن كلّ أحد في واقع الأمر يموت قبل أوانه. مثل أمها التي ستنسحب من هذا العالم، قبل إتمام الزواج، تاركةً لها أختاً شبه معوّقة وأباً يودّع الدنيا برغبة جليّة في الرحيل.

أمها ثانيةً في المستشفى تغالب الموت. في المرّة الأولى نجت إنّما في هذه المرّة لا تلوح في الأفق إشارات النجاة.

المرّة الأولى، حين أولدت أختها ريما.

وهل يمكنها نسيان ذاك النّهار وأمها ببطنها الكبير تتحضّر؟ العائلة بأسرها كانت تتحضّر لمواجهة الخطر. الخطر الذي يلوح على الوجوه. وجه الجدّة وهي تلحق بابنتها من غرفة لأخرى. ووجه الأم وهي ترصّ ثيابها وثياب المولودة في الحقيبة. وجه أبيها المصفرّ الباهت. ويلوح على ابتسامته التي تنذر بالبكاء. كما لاحت في خطى عودته، بعد أسابيع إلى الدار،

وحيداً مهزوماً، والرضيعة على ساعديه، كياناً ضئيلاً من اللحم الأحمر الحيّ المتألّم بانتظار اليتم. غافية في ملفتها البيضاء. الرضيعة أختها التي أسموها ريما. إن كانت أمّها ستموت فلمَ أطلقوا عليها هذا الاسم الجميل؟

ورأت أباها يضع الطفلة على السرير. ويغيب في المطبخ ويعود وبيده زجاجة حليب أدخل حلمتها في الفم الصغير. أصغر فم رأته في حياتها.. والطفلة ما لبثت أن بكت. صاحت بصوت ناحل يرتجف له القلب. أشدّ نحولاً من صوت أيّ رضيع سمعته داليه من قبل.. كان بودها أن تساعد أباها.. لولا أنها هربت إلى الحمام وسجنت نفسها فيه لتبكي. من ذاك البكاء الذي يمزق الأحشاء. تبكي يتم أختها الوشيك ووحدة أبيها وتبكي ضياع روحها.. وقطع ضرب الجرس عليها بكاءها وراحت تصغي وسمعت والدها ينادي عليها بأن تفتح.. فهذه لا شك المربية منصورة التي ينتظرون وصولها للاهتمام بالرضيعة. وخرجت من الحمام واندفعت إلى باب الدّار وفتحت. وأشرق المكان بوجود منصورة..

ما عاشت ستدين بالطمأنينة لمنصورة.

لكن ماذا بوسع منصورة الآن أن تفعل؟

ـ لا أمل، قال طبيبها. لا أمل أن تخرج من غيبوبتها. ولعلّها ستبقى كذلك حتى يشاء الله..

إلى أن يحدث ذلك تتناوب دالية مع أبيها على ملازمة أمها في المستشفى. وإذا ما حانت منها التفاتة إلى وجهها، رأتها مستغرقة في هناء غيبوبتها: عنيدة ومنصرفة! وهي في هذا الإعراض تشبه أكثر من أيّ وقت مضى ذاتها الحقيقية! نعم، فلا أحد يعرف هذه الأم، التي انتزعت شهرة لا تضاهى بالتفاني، قدر معرفتها هي بها!

أمها التي بثرثرتها تمنعك من التواصل!

وبإقبالها الشديد عليك، تضرب بينها وبينك الحواجز.

وإلحاحها بالسؤال عنك يلازمه انصراف عن معرفة ما يجرى لك.

وتُعرض عن الاصغاء لروحك العطشى إعراض مراهقة غرّيرة عن كهل جنّ بها.

هكذا تتركك تتخبط في أتون وحدتك..

أو تتركك عرضة للأهواء كما فعلت بأختها ريما.

وفي مهبّ اهتمامها بك تذبحك بتعليق عابر. أو بضحكة تدمر كيانك مثل الضحكة التي استهلت فيها روايتها لحلمها الشهير عن خليل ابن الجيران رافع الأثقال. هذا الذي في المنام استعار مايوه دالية جلد النمر ليتبختر به على الحلبة!

الحلم الذي كرّهها بالمايوه وبابن الجيران وزادها نفوراً من هذه الرياضة الجلفة السخيفة.

يُقال لا أحد مسؤول عن أحلامه.

بل وفي يقينها أن كلّ أحد عن أحلامه مسؤول!

اليوم الوحيد الذي أفاقت فيه الأم من غيبوبتها رفعت رأسها عن المخدة وتطلّعت حولها وقالت:

ـ قلبي عم يغلي على دالية. وين دالية؟ جيبو لي دالية.

قالوا لها ستحضر حالاً. ثم عادت إلى غيبوبتها.

وبعد ساعة أفاقت ثانية لتقول:

ـ اسألوا دالية ليه ما عادت تجي عالبيت متل الأول وصارت ساكتة وحَكْيها صار قليل؟

وفي المرّة الثالثة هتفت بالسؤال الذي بدا للحاضرين عجيباً:

ـ اسألوا دالية ليه غيّرت تمشيطة شعرها وصارت كأنها لابسة بيروك؟

وفي الإفاقة الأخيرة قالت:

ـ اسألوا دالية ليه ما تجوّزت لحد هلق. يلعن أبو الطب والجراحة. قولو لها تتجوّز وتخلّف. ظفر ولد بيسوا الدنيا وما فيها!

وقال الأطباء:

ـ لا فائدة. لا رجاء. لكنها تقاوم.

عجباً! إن كانت قد ذهبت طوعاً إلى الموت فلمَ تراها تقاوم في الرمق الأخير؟

سمع الفنان النبأ فأتى على عجل.

وهاله أن تكون خطيبته منهارة وراقدة هي أيضا في المستشفى في غرفة مجاورة لغرفة أمها. مخدّرة بالعقاقير. وبين الحين والآخر تفتح عينين زائغتين لتواصل نحيبها أو تسأل عن أمها سؤال اليائس. ومنصورة تمسك بيدها تواسيها وتطمئنها بأعجوبة ستحدث.

كما هاله معايشة المدينة الحدث:

فإذ أشيع أن الفنانة التي أسرت أفئدة الناس، قد أصيبت بعارض إثر قذيفة اجتاحت دارتهم وأودت بحياة أمها، وأنها ترقد الآن في المستشفى بين الموت والحياة، تدفقت على المريضة المكالمات كما الزيارات وسلال الزهور.

إذا كانت خطوبة ريما قد أربكت محل الزهور المجاور لهم. . وإن كان الناس، آنذاك، قد أرسلوا لها الباقات لأنها جميلة ومخطوبة، فمرضها أربك محلات الأزهار في المدينة قاطبة. والناس، هذه المرّة، يرسلونها لأن ابنتهم الفنانة النائمة في المستشفى، تصارع الخطر.

الزهور تتدفق باسمها. يضعونها في غرفتي المريضتين وفي الممرات. يضعونها في الغرف المجاورة لسائر المرضى وفي الغرف الفارغة. يضعونها في ممرات الطوابق الأخرى وغرفها وفي المداخل. ويرجون الزائرين كما الأطباء والممرضات، أن يأخذوا منها ما يشاؤون. ما من فترة عاد فيها

الأطباء بالورود إلى زوجاتهم كهذه الفترة. وما سبق لزائر مستشفى أن دخله حاملاً باقة لمريضه وخرج منه حاملاً باقة لذويه! والفنان الذي أذهله ما يجري، صار يبذل جهداً كي لا يخرج عن طوره فيندفع إلى السلال وينزع عنها البطاقات ويرميها في الزبالة. يبذل الجهد كي لا يتصدى للصحافيين وغير الصحافيين الذين جاءوا للاطمئنان عن الفنانة الشابة وتغطية أخبارها، مكتفياً بتوبيخ الممرضات اللواتي سمحن بهذه الفوضى. وبتسخيف هذا البلد الجامح والمبالغ بالمظاهر والمشاعر. .وإذ تأكد له أن خطيبته لن تتجاوز محنتها، تذرع وسافر.

إن كان قد فتن بجمال الصبية، وتخيّل نفسه يلف بها العالم ويرتاد صالات الفنّ وهي بجانبه تشد الأعناق إليها وإليه. . فانهيارها على هذا النحو يلوح له بالورطة. هكذا فارق، على مضض، الصورة الجميلة التي أَسَرته فترة من الزمن، فراقاً لم تكترث له ربما لا في غيبوبتها ولا بعد أن صحت.

أما الصحافة فقد استمرت تتابع التطورات. لتذكر أن الفنانة الشابة الداعية إلى السلام ما تزال في انهيارها. وهي في حالة انسحاب. ممتنعة عن الطعام والكلام. وأستاذتها تلازمها ملازمة أم ابنتها. لا ريب في أن خلاصها، كما ذكر المقال، هو في الاستجابة لدعوتها وإيقاف هذه الحرب العبثية التي كانت الداعية إليها إحدى ضحاياها.

الأم في غيبوبتها كانت تناجي ابنتيها وتحلم.

لا علم لها باستذكارات دالية. ولا بتذنيبها لها على حكاية خليل ابن الجيران رافع الأثقال، وعلى طيشها العصيّ.

ولا بلومها أبيها الذي قرّر أنّ ابنة الخامسة عشر صارت زوجة وأمّاً لمجرّد أنها تزهو بلعب الدّور.

كما لا علم لها بانهيار ريما.

الأم.. في ذاك الممرّ بين الحياة والدّنيا السماوية استسلمت لعذوبة الرّحلة ولراحة ابنتها دالية! وهذه تسرّحها وتربط شعرها بفولارات ملوّنة وتمسح وجهها وجسمها بالماء والكولونيا.

في ذاك الممرّ استسلمت الأمّ لأحلام عذبة يشتهي كلّ راحل عن دنيا الأرض أن يطير على أجنحتها! مشاهد وذكريات خلاّبة عبرت خاطرها بخفّة قبل أن يحملها الموت الجميل على طبقه الوردي.

في ذاك المناخ الفاتن الفريد، دخلت عليها دالية لتتفقدها فسرّها أنها جاءت في الموعد المناسب. فاليوم عرس ريما، وهي لا تزال في المستشفى..

ـ عرس ريما؟

ـ أيوه يا دالية. . عملية القلب المفتوح نجحت. ثم أنه من غير المعقول أن أذهب قبل العرس. حدّدنا موعده غداً.

ـ صحيح يا ماما؟

ـ طبعاً صحيح. الأستاذة رتّبت كل شيء. أرسلت المنادي ينادي في البلدان يقول للناس. .للحاضر منهم أن يعلم الغائب، أن ريما بنت السلطان ستتزوج. وأنّ العريس دفع المهر و. .

ـ المهر؟

ـ طبعاً. من الأملاك، بستان اللوز وصحراء الزيتون وجبل التفّاح وجزيرة العنب والنخل والتين. ومن المال مائة وخمسون ألف ألف ليرة عثملي نقداً وعدّاً. .

ـ يا سلام!

ـ طبعاً! أما سمعتِ بما يجري؟ المحاربون رموا الأسلحة والمطربون يتسابقون لإحياء الاحتفال تطوّعاً. رقص وعزف وأكل وشرب وسكر في الشوارع ثلاثة أيام وثلاث ليال.

ـ سكر؟

ـ أيوه سكر. طلبنا من الباب العالي أن يحلّل الخمر يوم العرس فوافق.

ـ صحيح يا ماما؟

ـ طبعاً صحيح! الحكومة أعلنت هدنة. دعت الملوك والرؤساء العرب لحضور العرس كما دعت بعض الرّؤساء الأجانب.

ـ جميل يا ماما. .

ـ طبعاً. المنادي راح ينادي في طول البلدان وعرضها. يقول للناس، مَن كان عنده عربة فليحضرها وله مكافأة ونيشان. وتوافد العربجية من

الأقطار وأمرت أستاذة الرّقص فريقها المُدرّب أحسن تدريب بتزيينها بأجمل الزينة.

ـ يا سلام..

ـ.. بطاقات الدعوة طبعناها في مطبعة تكنو تكنو. كل بطاقة لوحة فنية! وجميعها تحمل شعار العرس!

ـ حلو! وأين هي البطاقات الآن؟

ـ أرسلناها مع الحمام الزاجل. لكل أمير وحاكم بطاقة مربوطة إلى ساق الحمامة بخيط من ذهب. لا تتخيّلي روعة المشهد وهي تنطلق في السماء مثل أسهم بيضاء. سألتهم أن يخبروك لتحضري فقالوا مشغولة في المستشفى، عندهاً حالة ولادة.

ـ كنت فعلاً مشغولة..

ـ الوفود بدأت بالوصول. البواخر تمخر عباب البحار. والخيول العربية الكحلاء..خمسمائة خيل! تصوّري منظرها الرهيب وهي تقطع الصحاري والسهول وصهيلها يضرب الآفاق!

ـ يا إلهي..متى تصل؟

ـ ليلة البارحة غادرت قلب الصحراء. وحال وصولها بدأ الفريق المختص بـ..

ـ وصلت بهذه السرعة؟

ـ طبعاً. فالخيل لم تأتِ ركضاً بل طيراناً على جناح السرعة. وهي ما كان بمقدورها أن تفعل لولا أني تمنيت ودعوت لربي فاستجاب. وكانت الليلة ليلة قدر وأبواب السماء مشرّعة. ثمّ لا تنسي أني ميتة وأن للموتى..

ـ ميتة؟

ـ أيوه ميتة..لكن لا تخبري ريما كي لا يتحوّل عرسها إلى مأتم

ـ طبعاً لا.

ـ ريما ستركب العربة ذاتها التي ركبتها جدهتها المكسيكية منذ ثمانين سنة يوم تزوّجت جدك.

ـ صحيح؟

ـ طبعاً صحيح. زيّنوها بأجمل الزينة. والدك باع أرضه في الجبل للزينة فقط.. زينة العربة وزينة الشوارع وغير ذلك. شرفات البيوت على الصفين. مداخل العمارات. أبواب المحلاّت.. كلّها زُينت كما زيّنوا الحصان هنيبعل الذي سيجرّ عربة ريما.

ـ هنيبعل؟ ظننته القائد الفينيقي الذي..

ـ سميّه وسليل حصانه الذي اجتاز به جبال الآلب.

ـ عجيب!

ـ أيوه عجيب! ابن سلالة أرستقراطية نادرة، أرسله ملك الحجاز إلى الأميرة ريما! هنيبعل سينتظر مع العربة طيلة الليل تحت شرفة البيت

ـ ضروري

ـ وكذلك العربات الرسمية

ـ الرسمية؟

ـ أيوه التي خُصصت للشخصيات المهمة. رؤساء ملوك وأمراء وخُصِّصت لأهل العرس من العائلتين أيضاً.

ـ ياه..

ـ أما الصحافيون والمصوّرون فسيرافقون الموكب سيراً على الأقدام كي لا يعرقلوا المسيرة. البعض منهم سيتسلّق السطوح والبعض الآخر يقف

على الشرفات. بلا طول شرح. . سيلتزم كلّ منهم بالخطة التي وضعها المخرج صديق الفنان. .

ـ آه. .

ـ طبعاً غاية الكلام. .ريما ستنزل من البيت والعربة ستتقدم الجموع. وحال انطلاقها سيعلو التصفيق وتُطلق مئات الأزواج من الحمام الأبيض في السماء. أبوك أوصى كشاشي الحمام أن يأتوه بها. كلّ حمامة كلّفت نصف ليرة عثمليّة ذهب.

ـ ياه. .

ـ في ذات اللحظة ينطلق الموكب. أنا وأبوك والأستاذة سنركب معها. وأنت تركبين مع الشخصيات. .رئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب ورئيس الوزراء. لازم أن يرافقهم أحد منّا. مش معقول نترك رئيس الجمهورية وحده!

ـ طبعاً مش معقول.

ـ مجموعة من الراقصين ستتقدم عربة ريما ومعهم المطربون.

ـ جميل!

ـ والناس من حولنا وورائنا يرقصون. الموائد رُصّت على الأرصفة في الشوارع. مطعم مكسيم في باريس، حين سمع بالعرس، اتصل وقال سيرسل الطعام. أما الكافيار فسيحضره الشاه معه من إيران. والوفد العراقي سيأتي بالمنّ والسلوى. كل حبّة محشوّة بليرة ذهب. وهناك قطعة واحدة تحتوي الماسة السوداء الفريدة التي أرسلها ملك أفريقيا هدية للاحتفال. . تلاتميت قيراط. وصاحب الحظ ستكون من نصيبه. لكن المفاجأة الكبرى تبقى. .

ـ ما هي المفاجأة الكبرى؟

ـ لا . . الفنان استحلفني أن أبقيها سرّاً

ـ أرجوك يا ماما . .

ـ سأقولها لك إنما وعد . .

ـ وعدتُك . .

ـ حين يصل الموكب إلى باب المدينة الشرقي فجر اليوم الثاني من أيام الاحتفال، ستمر طائرة هليوكوبتر وتتوقف في الجوّ لتنزل منها الجدارية التي صمّمها الفنان. مثل شاشة عملاقة ستملأ الأُفق. جدارية، ما رأى الناس لها مثيلاً في أيّ من متاحف الدنيا، ستتوقف في الجو أمام قرص الشمس والأشعة تضربها من الخلف لتخلّدها في الفضاء متوهّجة أبداً بألوان الشروق.

لو حدث لك أن اتصلتَ بالمستشفى لتطمئن على مريضٍ فيه وقيل لك أنه خرج، لأدركت بطبيعة الحال أنه تعافى.

أما أن تتصل دالية شأنها كل يوم، لتتفقد أحوال أمها الغائبة عن الوعي، فتؤكد لها مسؤولة العناية المركّزة أن الغرفة رقم ٧٤٥ قد خلت من مريضتها، ففي هذا طريقة دبلوماسية لإعلان الوفاة!

وتذكير بالجانب المراوغ للكلام!

وبالمهزلة التي قامت بها أمها والتي ما تمكّن أحد من فهم مغزاها.

ولا حتى الأب الذي عزّ عليه أن تكون زوجته التي تصغره بعشرين عاماً، وليس هو مَن سيستخدم اللحاف الأبيض والكفن وسائر لوازم الدفن التي كان قد حضّرها لوفاته.

فهو، بعد أن اطمأنّ على ابنتيه بنجاح دالية وخطوبة ريما، تعزّز لديه الشعور بأنه قد أدّى مهمته. وبات مستعجلاً الرحيل عن هذا العالم الثقيل والمثقل بالغش والعنف وبلعنة الحروب..

صار مستعجلاً ويخشى أن يفاجئه الموت بلا ترتيبات.

وخطر له أن يفاتح زوجته بالمسألة وبضرورة تحضير اللوازم. ولعجبه أثنت زوجته على الفكرة! وزادت على ذلك بأن اقترحت أن يشتري لها هي أيضاً ما يلزم، فرفض وقال:

ـ مثل هذه الأشياء يشتريها الإنسان بنفسه.

ولما عاد بالأغراض اعترضت زوجته على لون اللحاف الكحلي، مؤكدةً على أن لوازم الموتى لا بد وأن تكون كلّها بيضاء كالكفن. واعتراضها أوقعه في الحيرة. إذ يخجله أن يغلّفوه في موته بالساتان الأبيض «الأطلس» هذا الذي يليق بالعرائس الصغيرات اللواتي تنزل بهن النازلة في غير أوانها!

قال هذا لزوجته وهي أجابته على الفور :

ـ كلّنا في تلك الساعة نواجه ربنا كالعرائس.

هكذا عاد في اليوم التالي إلى دكان المنجد وأبدل اللحاف الكحلي بآخر أبيض. وسألته زوجته لِمَ هو مستعجل لهذا الحدّ والله الكريم قد منّ عليه بالصحة، فسكت.

نعم، ما من شيء عاد يغري النفس.

صحيح أنه شهد الحرب العالمية الثانية وسمع بمجاعات الأولى وفظائعها من شهود عيان.. وأنّ عائلته ذاقت المآسي حين أعدم جمال باشا ابن خاله الأكبر، وحين ذهب أقارب له إلى حرب سفر برلك ولم يعودوا.. لكنّ هذه الحرب أنسته بؤس الأيام السابقة. وما عاد يجد مكاناً لذاته في هذا البلد المنكوب. وحين يبدأ القصف يخجله أن يهرول كغيره على السلالم ليلوذ بالملاجئ من الخوف.

وزوجته لا تكف عن سؤاله عن أسباب صمته وعن حزنه غير المبرّر، فيما هم على أبواب فرح عظيم!

وهو من ناحيته توقف عن التبرير.

يعرف أنه يمضي وقته صامتا متأمّلاً ومحمّلاً بالخجل. ولولا الحياء، الذي فُطر عليه لبصق على هذه الدنيا. تفوه.. نعم ألف مرة يفضل عليها الرحيل.

وحين يبلغ اليأس حدّه، يخطر له أن يزور أمه فيحمل نفسه ويتجه إلى المقبرة. وفي الآونة الأخيرة صار كثير الذهاب إلى المقبرة. كلما ضاقت به الدنيا حمل نفسه وذهب. يأخذ معه سجادة الصلاة يفرشها بجوار القبر ويصلي. وهناك يشعر بالراحة. لكنّ إحساسه بالراحة بات أكثر فأكثر هشاً عابراً لا يلبث أن يتبدّد حال يغادر مدينة الموتى إلى شوارع الأحياء.

والآن صار عليه أن يذهب إلى قبرها هي أيضاً، امرأته التي أحبها وما تخيّل يوماً أنها سترحل قبله. ولولا إيمانه لفكّر بإنهاء حياته ليخلص. وما أن تلوح له الفكرة حتى يستغفر ربه ويجد نفسه يحلم إذاك بالسفر. ومشهد لا يفتأ في ذهنه يتكرّر: إذ يرى نفسه راكباً قطاراً لا يتوقف.

عابراً خطوطاً لانهائية بلا محطات.



فليعزف وليواصل عزفه وهي رقصها حتى انتهاء العصر

ساعة قِيل لدالية أن أمها خرجت من المستشفى، خمّنت أن التباساً قد حصل. فسألت محدّثتها أن تحوّل المكالمة إلى الغرفة وتلك أجابتها بأن الغرفة، منذ الشروق خلت من مريضتها. وأنه لا أحد فيها الآن سوى عاملات التنظيف!

تكون محظوظاً لو أتتك الفواجع وقد تحضّرتَ لاستقبالها. فلو أُخبِرَتْ دالية بالنبأ قبل سنوات لزلّ عقلها وفاضت روحها بالألم، كما حدث لأختها ريما. ولأَقامت مثلها مأتمها الفريد وسط مجلس النسوة اللواتي جئن للعزاء متشحات بالأسود. سيكون من الصعب على هؤلاء النسوة ولأمد طويل، أن يتحدّثنَ بهذا المأتم أو يصفن لحظاته! رغم أنّ وقائع هذه اللحظات قد بُصمت في نفوسهنّ مدى العمر، منذ أن تراءى لهنّ طيف امرأة، طويلة نحيلة تخرج عليهنّ من غرف النوم بثوب عرسها! أو بملابسه الداخلية الفضفاضة بالدانتيل، لتسير نحوهنّ سير نائم في منام، رافعة طرحتها التول البيضاء على كفّيها بأعلى ما تستطيع. والطّرحة تنزل من على رأسها فتغطي وجهها وصدرها حتى الخصر!

للوهلة الأولى خيّل لكلٍّ من من هؤلاء المعزّيات أن ما مرّ بها رؤية فظيعة من رؤى الكوابيس. فتلفّتت إلى الأخريات لتراهنّ مثلها مأخوذاتٍ بالدّهشة، مفتوحاتِ الأفواه بالشهقة، رافعاتِ الأكف إلى الصدور، لاهثاتٍ بالهلع منقطعاتِ الأنفاس..

الهلع أن تكون القادمة بثياب العرس هي الميتة ذاتها التي فارقتهن في نعشها منذ ساعة، وقد عادت إليهنّ بهذا الزيّ الأبيض الساحر الخليق بالموت الطازج!

الميتة نفسها. وما طول المرأة ونحولها سوى التحوّلات الضرورية التي تطرأ على الراحلين والتي من شأنها تمييز الموتى من الأحياء!

كان على هؤلاء النسوة أن يهتفن باسم الله باسم الله.. مرّات مرّات كي لا يطول وجود الميتة أو طيفها بينهن، فيلمسهنّ باللمسة تلك ذات الأثر المحسوم! يبسملن ويتشبثن بالمقاعد، محدّقات بوجه القادمة الذي من، خلف غلالات الطرحة، يتراءى لهنّ ويختبئ.. فيخطر لهنّ إذّاك الخاطر الصواب، بأن يكون طيف الأنثى ذات الزيّ الغريب، هي الابنة نفسها التي دخلت لتوّها إلى غرفتها لترتاح من نوبتها. الإبنة المفجوعة وقد أخذتها اللوثة فلبست ما خيّل لها أنه ثوب عرسها لتفرح قلب أمها باكتمال الحدث الذي لم يكتمل.

وتأكد لديهنّ الظن حين سمعنها، من وراء خمارها، تنطق بأبيات القصيد. لا أحد يمكنه تكذيب ما سمعن، مثل القول إن الفتاة منذ حادثة أمها بكماء. أو أنها في الأصل لا تتقن الكلام الفصيح. لعلّها حقاً بكماء ولا علم لها بالفصحى ورغم هذا فها هي تنشد الشعر وتقول:

مهلاً مهلاً أيها الرجال

يا حملة النعوش

مهلاً لا تأخذوها

فهي لم تمت بعد

بل خطفها النعاس على أرجوحته

لتتفقد مكانها في أرض الجنّة

كلٌّ من أولئك النسوة خطر لها، في تلك اللحظة، أن تلوذ من الفزع بالفرار. وهّمت بأن تفعل إنما لتجد نفسها متسمّرة في مقعدها وقد لبستها حالة الانخطاف التي يُحكى عنها، ففقدت إمكانية الأمر والنهي على نفسها وإمكانية الاعتراض. . وبقيت على حالها شاخصة إلى الصبيّة وهي تلوح بالطرحة فوق الرؤوس وتنوح بلا كلام، وتولول بلا صوت ولولةً ما رأين مثيلها بلاغةً، هنّ، والحرب تحصد الأرواح، تمرّسن بارتياد المآتم!

وإذا بالفتاة ترمي بطرحتها على الكنبة بحركة تشي باليأس وببين وجهها. ولما تحرّكت من مكانها صعدت الشهقة إلى الحناجر إذ تأكد للحاضرات أنها ترقص!

تروح وتجيء بملابسها العرسية البيضاء وسط مناخهنّ الحريمي المتشح كاملاً بالأسود.

كراقصة على الجليد، تتراقص على رخام الصالات من أقصاها لأقصاها. مشرِّعةً أطراف ملابسها. مشرّعةً جسداً ينضح بالأم وأذرعاً تعصف باللوعة. وتقاسيم شطرتها الفاجعة. وهي في رقصها تحتج أو تتعارك مع طيف الغائبة، مشتبكةً وإياها في دائرة الموت والحياة.

ثمّ، وإذ فاض بها الشجن، تناولت الناي، لا أحد يعلم كيف جاءت به، لتعزف عزفاً يستولي على مكامن الروح.

يوقع الحاضرات في فخّ اللوثة الجنّي فيشتهينّ المزيد.

وإذ اشتد التناظر وتقاطعت الخطى وتداخل الطيف بالطيف، التبس الأمر ثانية على المتفرجات، ليتساءلن عما إذا كنّ جالسات وسط مرايا متناظرة تعكس الأصل وصوره الخادعة! يتساءلن عما إذا كانت الراقصة هي الابنة ذاتها أم أمها التي عادت بهيئة ابنتها. .ما عدن موقناتٍ من شيء، ماعدن موقنات سوى من المقولة التي تُعدّ من ضروب الخرافات والقائلة

بأن الموتى يرجعون ولو مرّة واحدة، بُعيْد الموت، ليتراءوا لأحبّائهم الأحياء في صورتهم البهيّة المشتهاة!

الصورة التي رغم فتنتها، ستعجز الحاضرات عن وصفها، والتي ستراودهنّ عن أنفسهنّ طويلاً للحلم بها!

ما همّ لو كان الموت شرطها اللازم

ما همّ. .إذا ما كان للشرط هذا الأثر الفتان! ليسلبهنّ الحسّ بالواقع، ويحيلهنّ إلى شخوص رانية مبهورة منتشية متعطشة للمزيد! تعطّش أطفال إزاء مشهد من مشاهد الهلع الساحر، تجري فصوله في هذا الفضاء الوهمي الذي خلا سوى من الأنفاس ومن هذه المخلوقة البديعة التي أوقعتهنّ في شركها! حتى ليخشين أن يحدث شيء. .أيّ شيء يخلّ بالمشهد. .

كأن تنهض الأستاذة، أو أخت الصبية، وتوقف الفتاة عن الرّقص وتسحب من شفتيها الناي وتعيدها إلى غرفتها.

لكن الأستاذة، وفتنتها بالمشهد تضاهي فتنتهنّ، لم تنهض. وكذلك أختها لم تفعل. كلّ منهما لِواعز في نفسها تركت الشابة لشأن تعبيرها المأتمي.

هذا الذي قبض على نفوس الحاضرات.

حتى ما تنبّهن إلى أن شاباً في تلك اللحظة قد دخل! وأنّ دخوله كسر صفاءهن الحريمي. دخل ليصطدم هو أيضاً بالمشهد فيقف عند طرف الصالة، مذهولاً منخطفاً مفتوناً بهذه التي تداوي اللوعة بالرقص! وليبقى مفتوناً بها حتى آخر العمر.

إنه الطبيب الشاب الذي استعجلت دالية قدومه لينقذ أختها من دورها الهستيري، فكان أن وقع في هواها، كما في هوى الدور الذي أتى لمداواته. لا فرق إن كانت فاتنته معقودة اللسان أم بليغة الكلام. ما عاد

لهذه التفاصيل من أهمية في حياته! ما عاد.. فهمّه الآن، أن تترك هؤلاء فاتنته وشأن تعبيرها الفذّ!

همّه أن يسمع لمس قدميها على البلاط، خفيفاً مثل حفيف ورق الورد. همّه أن يفعل شيئا، أيّ شيء.. ليشارك هذه المنكوبة بالجمال والموت لوعتها. هكذا قام بما لم تجرؤ الأستاذة على القيام به، فأشار إلى الحاضرات بأن يسكتن وإلى منصورة التي كانت تمشي وراء سيدتها نادبة، أن تتوقف. قال هس.. ثم تناول الكمان الذي تركته ربما منذ شهور على سطح البوفيه، آخر مرة عزفت به قبل ذهابها إلى المستشفى، ليتأكد له وهو يلامس الأوتار وتصعد الميلوديا في فضاء المكان، أن النّغم كان غافياً في جوف الكمان عالقاً في الأوتار.

فليعزف وليواصل عزفه وهي رقصها حتى انتهاء العصر.

مساء اليوم السابع بعد الدفن، اليوم الذي يختتم في التقاليد الحقبة الأولى من العزاء، فتقفل عائلة الميت باب الاستقبال وتخلد إلى حزنها الموحش البطيء. ذاك المساء، وبعد أن خرجت آخر المعزّيات وجدت دالية نفسها منهكة وراغبة بالنوم. رغم علمها أن رفاهيةً مثل هذه صارت ممتنعة، منذ اليوم الذي دخلت فيه النادبات باب البيت، ولم يكن في وسعها طردهنّ مخافة أن تزعل جدّتها المفجوعة.

ما أن تغمض عينيها حتى تخرج عليها أصواتهنّ، بالنواح ذي الإيقاع الحزين، تتحدث بألم الانتقال من عالم الهواء إلى عالم التراب.

من عالم الكلام إلى عالم الصمت.

هناك واحسرتاه حيث العيون مطفأة.

حيث الألسنة ملجومة.

حيث المشتاق يتحسر على قطرة ماء تطفئ حرقة الأحشاء.

رفاهية ممتنعة!

ونظرات جدتها اللائمة تقف لها بالمرصاد. جدّتها، التي حال دخولها باب البيت صاحت بالفجيعة وبالاحتجاج على تأخرهم في إبلاغها النبأ وحرمانها من وداع ابنتها الأخير! لا تأبه للتبريرات بأن القصف حال دون الإبلاغ وكان لا بد من إجراء الدفن خشية أن يتدهور الوضع الأمني فيتعذر عليهم القيام به بعد ذلك.

أيّ شيء سيعوّضها عن الوداع الأخير!

أيّ شيء سيبرّد حرقتها وشوقها الأبدي غير هؤلاء النسوة المتمرّسات بالمآتم. المتأصلات في إنشاد اللوعة والموت!

مَن غير النادبات سيقيم طقساً أصيلاً يليق بابنتها وليس كمأتم هذه العائلة المتفرنجة البارد الصامت. وهؤلاء المعزّيات المتأنّقات بالأسود الجالسات، ودالة بينهنّ، جلوس متفرجات في مسرح. فقط حفيدتها ريما قامت بما كان ينبغي القيام به وما كانت تشتهي هي حضوره. ورغم غرابة الوصف، فلا غرابة أن تقوم مدلّلة أمها بما ينضح بأقصى معاني اللوعة! والمشهد ذاته الذي برّد حرقتها ويحرم دالية النوم:

في تلك الساعة الرهيبة. .ساعة جاءوا ليحملوا النعش إلى المقبرة، وألحت النادبات على ريما بأن تصحو لتودّع أمها وإلاّ فستبقى طيلة حياتها نادمة. .وأيقظنها غصباً عنها وجرّرنها إلى التابوت رغم اعتراض دالية التي، في تلك اللحظة، لم يصغِ إليها أحد. . وارتمت الصبية على جثمان أمها مغشياً عليها ترتعش ارتعاشَ مصروع واتته النوبة.

كيف لعينها أن تعاند تكرار المشهد وتغفو؟

عبثاً تحاول أن تعثر على موضوع مركزي يلم شتات أفكارها. عبثاً وأختها ريما تنام منذ الوفاة بجانبها، تتكوّر على نفسها تكوّر هيكل عظمي في جرّة. أو تتشبث بذراعيها وتطلب مجيء مربيتها منصورة ويسقط بيد دالية! فالسرير رغم عرضه لا يتسع لهنّ الثلاث. لكن ما من من حل بديل؟

هكذا أُفسح مكان لمنصورة لتنام بجانب ريما.

وما إن بدأت دالية تستسلم للنوم حين سمعت همساً فوق رأسها ففتحت عينيها، لترى منصورة وريما جالستين في السرير وجهاً لوجه تتهامسان تهامس عاشقتين. الصغرى منهما تشكو أمرها للكبرى. تشير إلى الخارج لتقول إنها خائفة.

خائفة من هؤلاء النادبات اللواتي أتين مع جدّتها ويَنمن الآن على فِرْش في الصالة.

تخاف أن يرجعن لوصف القبر والتراب والعشب اليابس.. وعالم مظلم بلا مواسم ولا عطور ولا ألوان.

وتخاف من نظرات النادبة السمرا أم العيون الخضرا.

وتخاف أن تنهض هذه مع رفيقاتها في الليل ويدبكن معاً كما فعلن في النهار وترتج الأرض تحت أقدامهن العريضة. أو يتسلّلن في الظلمة إلى الغرف ويقفن عند رأسها ورأس أختها دالية ويلوّحن معاً بالمناديل السوداء بتلك الحركات اللّولبية.

ماذا لو كان لتلك الحركات أثر ما لعمل سيّئ أو لسحر أسود؟

ـ قولي لعمي نور الدين أن يأتي ويطردهنّ.

كانت تلك الليلة الأولى التي تفكر بها دالية بضرورة تزويج ريما. ووجدت نفسها تتأسف على رحيل الفنان وتتمتم: نذل. جبان!

نام سكان البيت جميعاً ما عداها:

ريما، في حضن مربيتها منصورة، متشبثة بثوبها كما درجت على أن تفعل وهي طفلة. وهذه تحتضن الفتاة التي ربّتها منذ ولادتها، إبّان ما كانت أمها تجرّ أذيال المرض..

والجدة، غطت في نومها العميق مع النادبات في الدار.

والأب راح إلى سريره تاركاً باب الغرفة مفتوحاً. وعلا شخيره فاطمأنت دالية إلى أنه قد نام. خرجت إلى البلكون وأحضرت الكرسي الهزّاز لعلّها تنام نصف مستلقية. لعلها تحتال على الرؤى والأناشيد والإيقاع.

وعلى شاكلة استلقائها غفت بين صحو ونوم.

أفكار ومشاهد كثيرة عبثت بخيالها.. كلّها قاتمة مشوّشة ما عدا واحد منها واضح إنما غريب. وفيه رأت يافطة طوليّة بيضاء معلّقة على باب البيت، تصل السقف بالأرض وقد كُتب عليها بخط أحمر عريض: «مقفل بسبب..»

فتحت عينيها تقاوم الرؤية لتغفو من جديد وتظهر لها اليافطة ثانية إنما معلّقة هذه المرّة على باب العيادة والكتابة ذاتها بالخط الأحمر تقول: «مقفل بسبب..»

تضايقت دالية مما رأت وبذلت جهداً لتصحو وعلى حد علمها أنها صحت.. لكن لترى ما هو أغرب من ذلك: المستشفى كلّه محاط بكسوة مثل كسوة بناء قيد التشييد. وعلى كل جهة من الجهات الأربع كُتبت العبارة ذاتها القائلة: «مقفل بسبب..»

قفزت هلعة لتسأل: بسبب ماذا؟

عندئذ تراءت لها تلك الصورة الفظيعة: المدينة بأسرها مغلفة بالأبيض لكن غطاءها لا يحمل أثراً لأيٍّ كتابة!

كيف يمكن أن تشبه مدينة عمارة!

وسمعتهم يقولون: غلّفوها قبل أن يسافروا. بضعة أشهر ويعودون.

إذا كانت الأماكن جميعها مقفلة فأين تذهب إذن؟

تهاجر. إلى غير رجعة. تعود إلى فرنسا أو تذهب إلى أبعد من ذلك. إلى أستراليا التي في هذه الفترة تشجع أصحاب المهن العالية على الهجرة إليها.

لكن ماذا تفعل بمنصورة؟ ماذا لو سافرت سيحل بمنصورة؟

هكذا وجدت نفسها تتساءل وإحساس بالذنب لبسها: نعم ماذا تفعل بمنصورة؟

تتركها في البيت. تكلمها بالهاتف بين الحين والحين وتزورها كل سنة مرّة.

وسمعت نفسها تكلمها بالفعل وهذه تسألها متى ستعود فتكذب عليها هي بالقول: «إن شاء اللّه بعد شهرين أو ثلاثة وتكون العودة نهائية»

ومنصورة تجيب:

ـ الفتيات ينتظرنك أمام باب العيادة بالصف.

وما كادت تسمع هذه العبارة حتى وجدت نفسها تطلّ من عن رأس السلّم، تشتم ماجدة التي جاءتها تندب فقدان بكارتها.

تشتمها من تلك الشتائم البذيئة.. يا بنت الكذا والكذا.. يا أخت الكذا والكذا.

ثم لا تدري ماذا حدث بعد ذلك. إذ أحست بأسلاك الضوء تخترق جفونها وتصحو. لا ريب في أنها نامت على الشرفة حتى شروق الشمس.

هكذا، ومنذ اليوم السابع للوفاة وحلم الهجرة يراودها.

في النوم كما في اليقظة.

رغم يقينها أن خياراً مثل هذا أضحى رفاهية بعيدة المنال.

وترتعد لفكرة أن تمضي حياتها ملزمة بأبيها العجوز وأختها شبه المعوّقة. تعرف أنها ستلفّ بها أطباء المدينة لتشخيص حالتها. وأنها ستكتب لآخرين في الخارج لتكتشف أنهم هنا وهناك سيختلفون بالرأي. سيختلفون رغم اتفاقهم الضمني، على أن التربية أشبه بالموت، ضربتها قاضية والتراجع عن عواقبها مستحيل.

سيختلفون رغم إجماعهم على أن الشابة تشكو من إعاقة ما..

أول طبيب زارته قال: إعاقة خفيّة آن أوان ظهورها.

وقال الثاني:

إعاقة غريبة..لكن، بما أنها تعلّمت الموسيقى وأتقنت العزف والرقص كما اللغات. وبما أنها وأنها..

وثالثهم قال:

ـ اتركوها وشأنها لا تحب الثرثرة. فهذا العالم السخيف مليء بالثرثارين.

ورابعهم، استبشر بصرخة الاحتجاج التي أطلقتها ساعة جرّوها إلى النعش. واستبشر أكثر بالقصيدة التي ألقتها وهي تسير مروبصة بين الحاضرات! سيأتي يوم تعود فيه لقول الشعر..

وقال آخر:

ـ إعاقة خفيفة. يلزمها رجل تحبّه. يكلّمها وتكلّمه..

أما آخر الأطباء الذين زارتهم دالية برفقة أختها، فكان أكثرهم تحفّظاً وميلاً لليأس، حتى أنه بدا لدالية ثقيل الظل وكرّهها بالتحليل النفسي وبالمحلّلين. ناهيك عن أنه كرّهها بريما. يزعم أن المعطيات التي قُدمت له من سكان البيت تبعث على القلق. يقلقه ميل ريما لتعلّم لغة الإشارة من دروس الصم والبكم التي تُقدّم في التلفزيون. وأن يشاركها هذه اللغة بعض سكان البيت. وهو يطلب من منصورة كما من أبيها، أن يكفّا عن ذلك ويكلماها كما تفعل دالية، بلغة الناطقين.

وفي ما بعد، شرح لدالية رأيه. فأختها التي عاشت حياتها شديدة الدلال وتابعة تبعيّة مفرطة، قد فاتها النمو اللازم للاستقلال. وأن ما فات قد فات. .لكن ليس من المستبعد أن الصبية، بمرور الوقت، ستتعرف أكثر بقدراتها وتنمو. إنما في الوقت الحالي، سيكون من الصعب عليها أن تحيا بذاتها. لا بد من أن تلازم مَن يعتبر نفسه مسؤولاً عنها وإلاّ تعرّضت للخطر.

ماذا يقصد وماذا يمكن أن يحدث لها؟

ـ كما يحدث في العادة لمن هم في مثل حالتها.

كيف تحلم بعد ذلك بالرحيل هذا الذي غدا من ضروب المستحيل؟ نعم مستحيل إلاّ إذا. .تزوجت ريما.

لكن، من سيرضى أن يتزوّج فتاة، لمرض أمها نامت شهوراً ولموتها أصابها صرع وفي مأتمها أطلقت تلك الصرخة التي دبت الهلع في قلوب

الحاضرات. ثم طلعت بعد ذلك على المعزّيات بملابس عرسها عازفة راقصة؟

من، بعد هذا سيرضى أن يتزوجها!

وما كادت دالية تتمتم بسؤالها اليائس، حتى ارتسم على التوّ في خيالها ذاك المشهد:

ربما مستلقية على الكنبة الطويلة، تسند رأسها إلى صدر الطبيب الشاب الذي جاء يوم المأتم لينقذها من دورها الهستيري. رأسها إلى حضنه وهو يهدهدها بعطف أبويّ ويحدي لها لتغفو كما كانت تحدي لها منصورة وهي طفلة.

يلزم أختها مفتون مثله، آخر المفتونين، ليغفر صرعها وخرسها وسائر الإعاقات! هذا الذي منذ الحادثة لا يكف عن المجيء للسؤال عنها، في البيت أو عند أستاذتها. دؤوب تخلّى عن الكبرياء نظير بلوغ النتائج. والمدلّلة تتدلّل عليه. مرّة تخرج لاستقباله ومرّات تقفل على نفسها الغرفة متذرّعة بالصداع. فيعاود هو الكرّة في اليوم التالي في الساعة ذاتها بلا تأفف!

متمنّعةً كانت أم مرحِّبة، صار برنامج الشاب لدى سكان البيت معروفاً: يدخل إلى الصالة ويتناول الكمان أو الناي ويعزف لها مقطوعة ثم ينصرف.

لِمَ لا تبادر وتزوّجها هذا المتيّم المستميت؟

وينضم هو إليهم ويعيش معهم في البيت برفقة أبيها ومنصورة. هكذا.. استمرار طبيعي لحياة عائلية متآلفة، أفرادها يعرفون بعضهم البعض منذ القديم، وليس على الدّخيل سوى التكيّف.

لو تحقق الحلم وسارت الأمور حسب ما تشتهي.. يُعقد القران بعيد الأربعين. هكذا تصبح هي حرّة وساعة تشاء يمكنها أن ترحل.

كان من المتوقع أن تخجل دالية من فرحتها بالعثور على الحل، غير أنها لم تخجل.

فالخجل رفاهية لا تملك بدلها وهمها الآن تدبير شؤون عائلتها. إذ ينفطر قلبها وهي تتخيّل أختها، بعد سفرها المحتمل، مستسلمةً لنوبات البكاء الطويلة كما يحدث لها الآن.

أو تتخيّلها هائمةً في المدينة والمسلّحون يوقفونها في الطرقات ويضربونها مثلما فعلوا بلوليتا المجنونة ذات الأصل اليوناني والتي اشتهر أمرها في بيروت..

أو يشطح خيالها فترى المسلحين يجرّون أختها إلى أوكارهم ليعبثوا بها أو يغتصبوها؟

أو تراها عجوزاً مخرّفة، وحيدة وغافلة عن جمالها القديم. فمنصورة بحكم السن ستموت قبلها وكذلك بالطبع أبوها. وهي أيضاً على الأرجح..

وعلى أيّ حال، فقد طفح كيلها وما عاد بوسعها أن تدعو ربها أن يمدّ بعمرها لترعاها. ما عاد..حتى صار يقضّ مضجعها ذاك المشهد الرهيب الذي لا يفتأ يتكرّر. المشهد الذي رأت مثيله في مسرحية لم تعد تذكر اسم مؤلّفها، والذي يقتل فيه صديق صديقه المتأخر عقلياً برصاصة الرحمة. هكذا صارت تتخيّل نفسها مغافلةً أختها في نومها واضعة المسدس عند

أسفل رقبتها من الخلف لتطلق الرصاصة التي ستجنّبها الاحتمالات الفظيعة التي تنتظرها!

تحاول أن تطرد المشهد لتعود وترى نفسها محاصرة فيه.

لا بدّ أن ترحل لتخلص من هذا الهاجس الفظيع!.

كي لا تنهار.

كي لا يفلت الأمر من يدها فتصرخ بوجه أبيها. تؤنّبه كيف لم يخطر له حتى الآن، وبعد وفاة زوجته أن يتزوّج منصورة!

وممَ تشكو منصورة، فزوجته لم تكن أفضل من منصورة!

غريب أمره الرجل الشرقي! حلمه أن تصبح زوجته خادمة لكن يأبى أن تكون الخادمة زوجته! ثمّ أنّ منصورة ليست خادمة بل مربية، دخلت في نزاع مع سيدة البيت فابتزتها هذه في عاطفتها ونزعت عنها صفتها الأصلية لتجعل منها خادمة..

لا بد أن ترحل كي لا تهجم على أختها تضربها، كما حدث لها حين عزمت على أن تشجعها للعودة إلى الرقص.

كانت قد تحسّبت لفلتان الأمر من يدها فبدأت حديثها هادئة حنونة وفي نيّتها أن تخبرها بما دار في خلدها من أفكار ومشاريع. كلها، لو تمعّنت بها، ذات فائدة لإعادة تأهيلها وتكيّفها مع الحياة: فإن كانت ستظل بكماء هكذا فمن الأجدى لها أن تغيّر مسارها. تستبدل دعوة «الفن من أجل السلام» بالدعوة «للفن الصامت.» نعم من غيرها جدير بهذا! فلتتح لهؤلاء البكم البؤساء فرص التعبير عن مكنونات أرواحهم المغلولة المعزولة!

أوَليست الإشارات أبلغ الكلام؟

أليست هي اللّغة الأم الأولى، موحدة البشرية جمعاء منذ فجر التاريخ حتى اليوم!

إن كان يضجرها ملازمة الصامتين فلمَ لا تبحث عن حالات خاصة

أخرى، وما أكثرها اليوم، وترتّب لهم البرامج الترفيهية؟

هناك العميان وأشباه العميان.

وهناك مقعدو الحرب وغير الحرب وذوو الإعاقات عموماً..

وهناك المتخلفون عقليا.. أو غيرهم ممن أفرزتهم الأحداث مثل المجانين المسلمين والمجانين المسيحيين والمعوّقين المسلمين والمعوّقين المسيحين واليهودية العجوز الوحيدة التي بقيت تعيش في وادي بو جميل بعد رحيل سائر الناس من أبناء ملّتها.

نعم لِمَ لا تهتم أختها وأستاذتها بهؤلاء؟

إن فعلتا ستنجحان بالتأكيد. ربما، في جذب الجمهور المسلم وأستاذتها في جذب الجمهور المسيحي. وهكذا عبر الفنّ تتحقق الوحدة الوطنية التي عجز أرباب السياسة عن تحقيقها!

راحت إليها متسلّحة بالهدوء، فاستهلت حديثها بصوت خفيض وكلمات متأنّية. وتبعتْه بعرض وجهة نظر الطبيب الذي أشار إلى دور الإرادة. فالمسألة في النهاية مسألة قرار ولا حلّ سوى في تنمية القدرات..

تحكي وأختها تتأملها بملل، تنتظر منها أن تعبر عن هذا الكلام المربِك لتدخل في صلب الموضوع، مما ألهب غضبها فصاحت بها توبخها بأنها تبالغ في التضليل وتختبئ في ظلّ إصبعها!

لِمَ تتصنع البكم وقد ألقت الشعر ذاك النهار؟

لِمَ تتصنع البله وعقلها ساعة تشاء راجح؟

كيف تكون بلهاء من عرفت عن بُعد ساعة الدفن، والطقس غائم وكانت خارجة لتوّها من نوبة الصرع؟

لِمَ تزعم الضعف وهي عنيدة عناد الجبابرة؟

ـ لِمَ تتصرفين كما لو أن أمك لم تمت وتبتعدين عن أبيك كما لو أنه

قد مات: «قولوا لعمي نور الدين. قولوا لعمي نورالدين..» لماذا عمك نورالدين وأبوك جالس هنا في الغرفة؟

توبخها وصوتها رغماً عنها يعلو. ووجدت نفسها تسألها عن أنوثتها. تسألها بالصراخ إن كانت أنثى؟

أم أنها ليست أنثى بل طفلة مستعصية؟

ولما هجمت عليها خيّل لريما أنها ستنزع عنها تنورتها لتتحقق من أنوثتها، فهربت إلى الدار ممسكة بطرف التنورة ودالية تلحق بها تطاردها بالأسئلة:

إن كانت قد شعرت ذات يوم بوطأة الأنوثة؟

إن سمعت بفتيات أحببن حتى الموت وعشقن حتى الضياع وحاذين الجريمة قتيلاتٍ أو قاتلات؟

وريما التي لم تفهم من العبارة الأخيرة شيئاً، تحاول أن تستنجد بمنصورة التي لم تكن ساعتئذ في البيت. فراحت تركض بين الغرف وأختها وراءها تلاحقها بالأسئلة:

أتكون بلا أنوثة؟ بليدة بلا مشاعر ولا رغبات؟

ـ أم أنكِ صورة؟ مجرد صورة؟

وما كادت دالية تلفظ كلمة صورة حتى اندفعت ريما ناحية اللوحة التي رسمها لها الفنان والتي كانت لا تزال في مكانها على الطاولة. فأطاحت بها وأوقعتها على الأرض وأخذت تدوسها بحذائها.

ثم رأتها تهرع إلى المطبخ لتعود منه بالسكين الكبير الذي كانت أمها تستخدمه في تقطيع اللحم. والذي ثابرت منصورة على إخفائه عن ناظريّ ريما، تحت المجلى، نظراً لِرُهابها منه. لذا أذهلها أن تندفع أختها إليه وتهجم به على اللوحة وبالضربة الأولى منه تقطعها بخط جانبي من الغرّة حتى الخصر.

كان السكين قد ضرب خدّ اليمين والشفتين متجهاً نحو العنق حين تدخلت دالية لتوقف ريما عن فعلها المتهوّر. تمسكها من الخلف وتشد بها إلى الوراء. . لتكتشف أن أختها، التي تبدو هشة بالغة النحول، تتمتع في واقع الأمر بقوّة غريبة. إذ تمكنت من شق اللوحة جانبيًا من الطرف للطرف. ثم هجمت عليها تبغي تمزيقها بأسنانها قبل أن تستسلم لمقاومة دالية وتنهار فوق صورتها تبكي.

سيكون من الصعب على أيٍّ من الحاضرين وحتى على الشاب نفسه أن يصف ذاك الموقف، حين دخل على محبوبته في مثل موعده اليومي ورآها جاثيةً فوق صورتها الممزّقة تبكي. ومنصورة بجانبها تواسيها، بينما أختها قبالتها تتأملها وكفها على خدها..

وسيكون من الصعب عليهم أن يصفوا كيف دنا الشاب منها وأمسك بيدها وأنهضها عن الأرض. وكيف أسندها إلى كتفه ومشى بها إلى الكنبة الطويلة. ورغم استحيائه، أخذها بين ذراعيه وهدهدها تماماً كما فعل في المشهد الذي تراءى لدالية! المشهد الذي لروعته، وهو يتحقق، كادت منصورة تزغرد. لكن نظرة من دالية أوقفت الزغرودة في حنجرتها، فيما الشاب مستمرّ في هدهدة محبوبته. أما دالية فنهضت واتجهت إلى غرفتها وكذا أوحت لمنصورة بأن تفعل.

منذ زيارته الأولى بعد الوفاة تناهى لها أن شيئا ما سيحدث بينه وبين أختها ليدخل العزاء إلى نفسها المهشمة الملتاعة.

وهي منذ تلك الزيارة، كان بودها أن تعطيه الناي أو الكمان ليعزف لها كما فعل يوم المأتم، ولترقص أختها على موسيقاه.

ما همّ لو رقصت من الألم أو الانفعال!

ما همّ. فلتفعل شيئاً، أي شيء ينبئ بالحياة بدل أن تبقى هكذا هائمة الروح شاخصة صامتة وعلى شفير الانفصال!

منصورة أيضاً كانت تحادث نفسها فيما هي منشغلة بلملمة الأشلاء: عاشت لترى ريما سعيدة مع هذا الشاب النبيل. واللّه كأنما خُلق لها وهي خُلقت له! غير خطيبها السابق الثقيل الظل الذي منذ زيارته الأولى للبيت، انقبض صدرها له. ثم ما لبثت أن كرهته ساعة أقصاها عن الصورة التذكارية للعائلة. . أقصاها بلا تعليل ولا حرج بل بحركة واحدة متغطرسة من كفه!

وكان من المستحيل عليها نسيان تلك الحركة بعد ذلك.

وزاد في كرهها له أنّه أوحى لسيدة البيت أن تلبسها والعاملات في البيت ذاك الزيّ الموحّد المقيت. والقبعة على الرّأس. . فصارت تلبسه فقط بحضور الفنّان، وما أن يغادر العتبة حتى تسارع إلى نزع القبّعة بحركة عصبية لترميها على أقرب كرسيّ وهي تتأفف.

كان من الصعب عليها احتمال وجوده الثقيل. وفضّلت العودة إلى النّوم من جديد في غرفة «السطوح» كما تسمّيها. الغرفة التي تركتها منذ سنوات بعد أن صارت تنام داخل البيت، في غرفة الكوي أو في غرفة ريما. والأمّ التي لاحظت الجفاء بين الخطيب والمربية، اعتبرته من ضروب الغيرة الطبيعية وتركت هذه تتصرّف بحرّية كي لا تفسد بصمتها الملغَز مشروع الخطوبة.

من الصعب أن تحتمل صلفه أو تغفره. لا تنسى كيف هزّأ الخادمة السرلنكيّة التي أتوا بها من المكتب. واضطروا إلى إعادتها إليه بعد شهر فقط، إذ ضبطها «بالجرم المشهود»، تتحادث بصوت عالٍ من بلكون البيت مع خادمة الجيران في الطابق السادس من العمارة المقابلة، كما تفعل جميع الخادمات الغريبات، بعد خروج أسيادهنّ من البيت. يتسامرن ويتبادلن الكلام بسرعة غريبة بلغة البلاد التي لا بدّ اشتقنَ كثيراً للتحادث بها. .

كرهته وتمنّت أن يفشل المشروع فلا تعود ترى له صورة وجه. والله قد استجاب دعاءها. فهو وليس هي من أُقصي عن حياة ريما. أُقصي

ليأتي من يليق به المكان. هذا الذي منذ المأتم هتف له قلبها بالقبول. رغم غرابة الحادثة واستنكار ماتيلد أن يأخذ الكمان ويعزف لها لترقص في تلك الساعة التي يعجز أيّ إنسان عن وصف ألمها. . وتحاول أن تشرح لماتيلد ما يخفّف من غلواء حكمها. وماتيلد لا تجيب بل تدير وجهها رافضة الإصغاء لما هو بلغتها من الترّهات. وها هو تفاؤلها يتعزّز بزيارات الشاب اليومية وبتباشير التجاوب التي تتضح يوماً عن يوم. لو استمر الحال على هذا المنوال فسينتهي الأمر بهما إلى الزواج. ويأتي الشاب ليعيش معهم في هذا البيت الكبير الذي يتسع لهم جميعاً.

لكنّها ذات مرّة، وجدت نفسها تفكّر بصورة مغايرة:

لعلّه من الأفضل أن تنتقل ريما إلى سكن خاص بها وتنتقل هي معها. إذ بات يحرجها أن تساكن رجلاً صار عازباً بعد وفاة زوجته. وهي لا تعرف إن كانت مساكنة مثل هذه جائزة في الدّين أم لا. سألت حولها من تعتبرهم أهلاً للمشورة فسخّف أحدهم قلقها وذكّرها بطهر النوايا وبعظمة الدور الذي تقوم به في حياة هذه الصبية المنكوبة. لكن صديقةً لها نصحتها أن تتزوّج سيّدها زواجاً صوريّاً.

ـ وكيف يكون الزواج صوريّاً؟

ـ حين يكتفي الطرفان بكتب الكتاب ويبقياه حبراً على ورق بلا تنفيذ.

ومن باب الحرص أشارت عليها بأن تسأل متفقهاً في الدين لتتأكد. ودلّتها الصديقة على شيخ يسكن غير بعيد.

راحت إلى الشيخ وأخبرته بقلقها وسألته الرأي الصواب. فحدّثها هذا بكلام شديد الفصاحة لم تفهم معانيه وإن كانت قد أدركت خلاصة الكلام: لا حلّ لها إلاّ بالزواج. إذ لا يجوز أن تعيش امرأة مسلمة مع رجل ليست حلاله، تحت سقف واحد.

ثمّ، وبصوته الجهوري وكلماته المفخمة ذات التشكيل النحوي الذي، في صغرها كرهت تَعلُّمه وتركت المدرسة بسببه، قال لها مؤنّباً:

ـ الأم يا أختاه من أولدت الولد من رحِمها. والحجج الأخرى كلها باطلة. تزوجيه يا أختاه، تزوجيه على سنة الله ورسوله لتحلّ لك مساكنته!

لكن ماذا في وسعها أن تفعل؟

أتقول للرّجل تزوّجني أو أكتب كتابك صوريّاً عليّ لكي تصبح إقامتي في بيتك حلالاً؟

أو تلجأ إلى دالية فتطلب منها يد أبيها؟

وكيف ستبدو بنظرها بعد ذلك، هي التي في نهاية الأمر خادمة ليس إلاّ؟

في تلك الليلة، بعد زيارتها الشيخ، رأت سيّدها في المنام يقول لها:

ـ «أنا على حجر وأنت على حجر سبحان من حلّل الإنثى للذكر.»

وتضايقت وكرهت نفسها ومقتت هذا التعبير الأخرق المبتذل الذي يردّده الصبية في الشوارع. ووجدت نفسها تردّد السؤال الذي يلقيه الشيخ على العروس في عقد القران:

ـ «إن كنت راضية به قولي نعم.»

ندمت منصورة على ذهابها إلى الشيخ وكرهت موعظته. كلما استعادتها أحست بالغيظ: الأم من أولدت من رحِمِها والبنت ليست ابنتك!

ماذا يعرف هذا المتفلسف عن أمومة ثمنها دماء القلب؟

ماذا يعرف عن مشاعر حُكم عليها بالكتمان والتأجيل؟

حين بلغت ريما الخامسة من عمرها قررت سيّدة البيت فجأة أن تصرفها، بحجة أنّ الصغيرة ما عادت بحاجة إلى مربية بعد أن شُفيت أمها. ستظل منصورة حتى نهاية عمرها تستحضر ذاك الموقف الرهيب، وسيّدتها تنصحها بأن تلتفت لنفسها فقد آن الأوان لتفعل! ولعلّها تجد زوجاً فما زالت شابة. ومن يدري فقد تُرزق بطفلة تعوضها عن ريما.

الآن فقط تفطن لهذا؟

وَمن سيرضى أن يتزوج خادمة تجاوزت الأربعين ومرفّهة رفاهية الأسياد؟

الآن فقط والدنيا حرب!

الآن.. وبعد سنوات أمضتها في خدمتها في المدينة حتى انقطعت صلتها بالقرية. ولا التكيّف مع عائلة أخرى عاد بوسعها!

تهجس بالفراق الرهيب فيما سيّدة البيت تَعدِها بأن تدبّر لها عملاً آخر يسهّل عليها المغادرة. وهي تكابر وتتفاوض. وقلبها يحدّثها أن سبب إعفائها ليس الظاهري بل آخر لا يُفصح عنه.

نعم، الغيرة وليس الحجة!

وبعد الظهر تحاملت على نفسها وأخذت ريما وخرجت في نزهتها اليومية. وفيما كانت سائرة في دربها جريحة النفس. ممسكة بيد ريما، راودتها تلك الفكرة الرهيبة..أن تخطفها وتهرب. تختفي بها عن المدينة، أو ترحل بها إلى بلد بعيد، فلا ترجعان منه إلاّ وتكون ابنتها قد كبرت فلا يقدر أحد على التفريق بينهما بعد ذلك.

الفكرة لبستها بينما هي هائمة في الشوارع. تبكي بصمت كي لا تلاحظ ريما بكاءها. وفي هذا التيه أحست أكثر من أي وقت أنها يتيمة وغريبة.

وأن ريما مثلها يتيمة وتائهة وتخاف عليها مثلما هي خائفة عليها الآن من نفسها ومن وازعها الشيطاني.

وأنقذتها ريما بسؤالها عن أختها دالية:

ـ «خديني عالبيت لعند دالية.»

في تلك الليلة، وقبل أن تنام صلّت صلاة العشاء ثم فتحت القرآن وطلعت لها الآية القائلة اللّهم اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني..

وما كادت تصل إلى العبارة الأخيرة حتى تراءت لها الرؤية التي ما تمكّنت يوماً من فك لغزها. والد ريما، أو طيفه يظهر في باب الغرفة يهمس لها.

ـ منصورة. . منصورة. .

فركت عينيها وهي تتساءل إن كانت في حلم أم علم؟

وسمعت سيّدها يقول:

ـ الحلم علم وقد جئتك بكلمة السرّ

ـ أي سرّ؟

ـ لو أردتِ البقاء في البيت ابتعدي عن ريما

ـ أبتعد عن ريما؟

ـ أيوه. . في الظاهر فقط

ـ وفي الباطن؟

ـ أحبّيها قدر ما تشائين ولتحبّك هي قدر ما تشاء فأنتِ على أيّ حال أمها الثانية. .

ـ وإلى متى أبقى وتبقى هي مكتومة المشاعر؟

ـ إلى أن تأخذ أمها الأصلية مكانها الطبيعي

ـ وكم سيطول هذا الكتمان؟

ـ الله أعلم. .

وصحت وهي تردد: الله أعلم الله أعلم.

وصوت آخر لا تميّزه يقول:

إلى أن تكبر ريما.

لو علمت دالية بما كانت ريما تبوح به لمنصورة حول الزواج، لازدادت حسرةً على السفر. ولَراودتها الأفكار المقلقة التي كانت تراود أستاذة الرقص. .أن يكون لأختها ميول مثلية. فهي، لا تفتأ تقول لمنصورة، أنها لا تحب الرّجال. هؤلاء، الذين يحملون التوابيت ويحفرون القبور ويدفنون الميّت.

ناهيك عن ولعهم بالحروب.

كانت دالية ستزداد تأففاً من أختها التي تتدلّل على طبيب فنان ومفتون، والتي تصرّ على موت أبيها وحياة أمها. أو تساوي بينهما فتقول ما قالته يوم حادثة اللوحة:

ـ كلاهما هنا في البيت موجودا

كانت ستزداد حلماً بالرحيل. بعيداً عن أبيها المستكين في سرير موته المرتقب. وعن نواح النادبات وطيف أمها. وعن هذه المدينة المغلّفة وعن عذراواتها البائسات. .

عن مستشفيات أضحت صورةً لحربها.

الرّحيل عن هذه المدينة الكئيبة التي ترشح بالدمار والموت.

أينما ذهبت يتراءى لها التحلّل:

جدران مدروزة بثقوب الرّصاص وواجهات اخترقتها القذائف وتركتها فجوات وفراغ أسود.

وناصيات تراكمت فيها المهملات، تفوح بالعفن ورائحة الجِيف.

كم تبقّى لتطمر المهملات المدينة؟

كم تبقّى ليفتك بها الطاعون؟

وحدّثت قريبة لها بإرهاقها وسألتها أن ترافقها في إجازة إلى مكان بعيد لم تلوّثه قدم ولا تُسمع فيه نأمة سوى لنبات الأرض وطير السماء. وصديقتها قالت إنها ستفكر بالأمر. واقترحت عليها، ريثما تتمّ الترتيبات، أن تتنزّها ساعة تشاء على كورنيش البحر.

كانت النزهة منعشة. خَفَتَ صوت النادبات وشحبت الأطياف الكئيبة وتضاءل حادث الصورة وتمنّت لو تواصل السير إلى ما بعد المغيب. أو تواصله طوال الليل..

منذ متى لم تتنزه على الكورنيش؟

منذ مقتل الرجل.

تسير بطيئة صامتة. وتسألها صديقتها لِمَ هي ساهمة فتقول لا شيء، أفكر بنفسي وبالحياة.

ثم قالت:

ـ يجدر بنا أن نتعرف على حقيقة ذواتنا. وأن تكون لدينا الشجاعة في اتخاذ القرارات.

وتسألها قريبتها عن قصد الكلام.

تقصد أنها تفكر ثانية بترك المستشفى. بل لا يبدو لها عجيباً أن تتخلى عن مهنة الطب برمّتها؟ نعم تغادر هذا العالم العنيف. عالم المرض والمرضى وروائح المطهّرات التي تخترق الأحشاء. وتخلص من تعنت المسلّحين.

ـ وتتركين كل شيء؟

ـ أترك نعم. .

ـ وهل هذا معقول؟

-إنه عين المعقول. .

نعم، عين المعقول. فما تشهده من خلال مهنتها في هذه الحرب هو اللامعقول بعينه. هذه مدينة. .

وكادت تستطرد وتحدّث قريبتها بما يجرى في المستشفى وبإشاعات تدور حول مخطوفين فيه. لكنها آثرت الصمت. وهذه قطعت عليها صمتها بالقول:

ـ أظنك غصتِ كثيراً تحت، في القاع، حتى لكأنك تتحدثين عن مدينة أخرى، غير بيروت التي نعرفها نحن.

وهي انبرت بالجواب

ـ وهل المدينة، هي فقط التي نعرفها نحن والتي هي فوق؟

وخطر لها أن تقول: هناك في المدن عاليها وأسفلها. وهناك السطح والقاع. ورغم هذا فالمآسي هي ذاتها هنا وهناك، إنما هي فوق، تكون مموّهة إذ أوكلت مهمة العقاب فيها للضحية. . غير أنّها عَبَرت عن الموضوع وراحت تخبر قريبتها ببعض ما تشهد من ترّهات ومخاز. ومن هيمنة الميليشيات وحتى مسلّحي الشوارع على المؤسسات. وهذه قالت :

ـ إنّها الحرب. لا يمكننا قياس المدن في زمن الحروب

وهي أجابت كما لو فكرت طويلاً بالجواب:

ـ بل إن زمن الحروب هو القياس.

ورغم هذا لا يمكنها إنكار أنّها غاصت كثيراً في القاع. قاع المدينة وقاع المشاكل. قاع النفوس وقاع المشاعر. قاع الأحياء وقاع الأموات. لولا

ذلك لما شهدت ما شهدت ولما قامت بما قامت به. لولا هذا لما أجرت وصديقات الشلّة، الماكياج لِبسّام بعد موته وقمن بالتغييرات اللازمة على هندامه ليتنكر! فيبدو على الحواجز لا شاباً مطلوباً من خصومه حيّاً أو ميتاً، بل فتاة ذاهبة إلى السهرة. كان لا بدّ من العثور على حلّ لإيصال الفارس المترجّل إلى مسقط رأسه حيث سيقام الاحتفال الفريد لاستقبال الشهيد. كيف سيصل من كان مضطراً لعبور تلك الحواجز!

حلقوا ذقنه ونعّموها وزيّنوا وجهه زينة عروس يوم عرسها، بالكحل والماسكارا والبودرة وأحمر الشفاه. ألبسوه تنورة واسعة وقميصاً فضفاضاً من التافتا وتحته الحمالة ذات الصدر المنفوخ. علّقوا في ساعده حقيبة السهرة المرصّعة بالستراس وعلى كتفيه ألقوا شالاً مطرّزاً بالزهور والفراشات. وعلى رأسه وضعوا الشعر الطويل المستعار. ثم أركبوه في السيارة. ركبت دالية إلى يمينه وكارمن من اليسار. ونجوى تولّت قيادة السيارة وبجانبها جلست عفاف.. النساء في الحروب هنّ اللواتي يرافقن المسافرين إلى أماكن أسفارهم. لذكورة الرّجال في الحروب ثمن: حياتهم، مالهم أو كرامتهم. هكذا، عبرن بالمسافر على الحاجز الشهير، الذي، على جدرانه، صُرع مئات الشبان..

تسترجع دالية كلّ هذا فيما تتابع نزهتها وقريبتها تسألها عما تنوي القيام به أثناء ما تكون عاطلة عن العمل؟

ـ لا أدري. أتمشى على الكورنيش. أغنّي. أرقص. ألعب جودو. أرسم طيوراً ووروداً ملوّنة على الزجاج أو الحرير. أو أمضي الوقت ألفّ معارض الرسم وأتفرج على الأفلام. أو أهاجر بالمرّة.

ـ تهاجرين؟ إلى أين؟

ـ لا أدري.

فيما قالت لنفسها: إلى مكان لا ورطة فيه. لا فاطمة فيه ولا ماري.

ولا أمهات بائسات هاجسات بعذرية بناتهنّ. ولا أطفال انتزعتهم الصراعات من أحضان الأمّهات. ولا طوائف تتقاتل لتؤكد على أنّها هي الأفضل وهي صاحبة الحق..

وقريبتها قطعت عليها حبل أفكارها لتسألها إن كانت ستبدأ إذاك من الصفر وهي تجيب:

ـ لا أحد يبدأ من الصفر. والشجاعة أن نعيد النّظر ونبدأ من جديد..

ـ وأسامة؟ ما موقف أسامة؟ هل سيوافق على الهجرة؟

ـ أسامة؟ لا أدري. وهو على أيّ حال سبقني إليها. منذ فترة وهو يعمل في الخليج. ربّما كتبتُ له بهذا الشأن ففكرة الهجرة بالنسبة لي، يوماً عن يوم، تتأكد.

وقريبتها علّقت:

ـ غريب!

وهي تساءلت:

ـ ما هو الغريب؟

ـ أن تترك امرأة رجلاً تحبّه ومدينة لقيت فيها النجاح وتهاجر.

ـ ربما كنتِ على حق، أجابت، وربما كل ما أفكر به هو حقاً غريب..

تقول هذا فيما تجد نفسها منزعجة من موقف قريبتها المتشكك.

منزعجة وتخشى أن يفلت الأمر منها فتصرخ بالاحتجاج أنها ليست هي الداية المحنّكة. ليست الطبيب العجوز الذي لم تعد له مهمة في هذه الدنيا سوى رأب الصدوع.

ليست..

لكن مشكلتها أنّها لا تعرف إلى أين سترحل. ولا تحب أيّ مكان

آخر. .إذ ما عاد لديها أوهام تتعلّق بالبلدان. .وتخشى لو تركت بيروت أن لا تتكيّف في مدينة أخرى. فهي ليست من ذاك الصنف من الناس الذي يميل للبحث عن الحلول الغريبة مثل أن تنسحب من العالم المدني المعقّد إلى آخر أكثر بساطة. .فتختار العيش مع الهنود الحمر أو الأسكيمو أو الشعوب القاطنة في أقاصي الأدغال كما فعلت، مع مجموعة من الأوروبيين، صديقتها الإيرانية ياسمين.

٩

عجباً.. كيف في عالم أملس تتعذّر عليك الرؤية.

في سجنه، تساءل أسامة كثيراً عن الظروف التي رافقت تدهور علاقته بخطيبته إلى حدّ أفقده السلطان على نفسه فاندفع إلى قتلها.

كلّما تساءل خطر له قراره الفجائي بالعودة إلى لبنان!

البارحة فقط، وقد مضى على مجيئه بضعة أشهر، وانتهى المشروع الذي يعمل فيه، استدعاه رئيسه وسأله عن استعداده للاستمرار معهم في الموقع الجديد في الطرف الآخر من الصحراء، فأجابه على الفور بأنه على أتمّ الاستعداد. ورئيسه سجل اسمه في عداد الذاهبين.

على أتمّ الاستعداد، فهو يخطط لمستقبل مهني ترضى عنه دالية وعازم على قضاء فترة الاختبار ليصبح بعدها موظفاً رسمياً في الشركة، يعمل حسب نظامها المعروف: ثلاثة أشهر في الصحراء وشهر إجازة. تدبير مثالي لمن يريد أن يجمع بين الكسب الجميل وحياة زوجية مرفهة تليق بدالية.

لكن هاجس العودة ضرب فجأة برأسه.

الوقت عصراً وقد انتهى دوام العمل، فجلس في غرفته، يطلّ من نافذتها على المدى اللانهائي.

الرمال ممتدة أمامه مثل طحين زجاج يلمع بالسراب.

العمال يفكّكون الكبائن تمهيداً لنقلها إلى الموقع الجديد على بعد مئات الكيلومترات.

والريح تصفّر تحت عجلاتها حاملةً معها ذرّات الرمال البيضاء، محدثة دويّاً تخاله أبديّاً.

يفكّكون الكبائن. ينزعون عنها البراغي والمسامير لتغدو بلمح البصر قطعاً وألواحاً مسطحة مجرّدة من وظائفها. عمال، جاءوا من أعماق القارة الهندية، يكدّسونها في شاحنات عملاقة لترحل بها إلى بقعة أخرى من هذا العالم الشاسع المترامي الأطراف.

أناس كآلافٍ غيرهم أتوا لخدمة الصحراء ولن يلبثوا أن يتفرّقوا في مطارح أخرى فلا يُعرف عن الواحد منهم شيء بعد ذلك.

عمال ومهندسون آسيويون أو عرب أو أوروبيون وأمريكان، وراء كل منهم حكاية جاءت به إلى هذه الصحراء مثلما جاءت به إليها حكايته مع دالية.

شبان لآباء وأمهات وحبيبات، لا شيء يجمعهم سوى حكاياتهم الطاردة إلى هذا الخلاء الموحش. يمضون فيه شهوراً أو أعواماً، يطلّون على نفس المنظر ويأكلون في ذات المقصف وينامون في كبائن متشابهة شبه الصورة وأصلها. يخلقون مناسبات من لا شيء ويفرحون لأتفه التغيّرات، فرحاً عابراً صحوته شوق وفراغ ومرارة في الفم.

ما الذي دفعه إلى خيارٍ لا يشبه تصوراته!

وخطر له أن يقوم في الحال ويطرق باب الكابين الذي يعيش فيه رئيسه ليخبره بأنه قد غيّر رأيه، وأنه بعد تسليم المشروع سيسافر إلى لبنان. بلا رجعة.

لكن كيف سيبدو إذّاك بنظر رئيسه، هو الذي أعطاه البارحة وعداً بالبقاء؟ أيقول له، إن رمال الصحراء طحين زجاج بريقه عند الظهر رهيب!

وأن منظر العمال وهم يفكّكون الكبائن في الخلاء، هنوداً كانوا أم عرباً، مقيت!

وأن حُبيبات الرمل الصفراء تفرقع على الحواف المعدنية فرقعة مسحوق من نحاس!

وأن دويّ الريح يجعله شاهداً على حركة دهرية لا تبدّل فيها، وتذكّره تذكيراً دؤوباً كم هو معزول وكم هو محاصر في هذا الفضاء المتصل الوهمي!

وأن الفضاء الأصفر هو المسؤول. نعم. فقد بات يعرف منابع أرقه في الليل ونوبات هلعه في النهار.

أول مرّة أصابته النوبة صاح بأن ضربات قلبه تتسارع تسارعاً رهيباً يهدّد بالتوقف:

ـ خذوني إلى الكابين. خذوني إلى المستشفى. اطلبوا الطبيب!

رافقوه إلى غرفته وجاء الطبيب وفحصه ليؤكد له على أن ضربات قلبه، رغم سرعتها، منتظمة قوية.

ـ قلبك حديد!

ـ إذن شغِّلوا المكيّف. اغلقوا النوافذ. أنزلوا الستائر. بل غطوها بالملاءات.

وامتثل زملاؤه لطلبه وغطوا النوافذ بملاءات السرير.

وفي المرّة التالية عاودته الأزمة إنما بصورة رعشة وراح يتوسّل إليهم فيما أسنانه تصطك:

ـ ابعدوني عن هذا المكان. خذوني إلى البحر وارموني في الماء.

أركبوه السيارة وأسرعوا به إلى البحر. مسافة خمسين كيلومترا قطعوها بدقائق. وهذه المرّة كان رئيسه حاضراً وساعد في حمله. فعل هذا بلا تأفف! ولما وصلوا استعجلوا إخراجه من السيارة ورموه في البحر. فغطس ثم طفا وغطس وطفا. لا ريب في أن خفة وزنه هي السبب.

ليته لا يطفو!

ليته مثل سمكة، يغطس هنا ويغوص في الأعماق فيَصل إلى هناك، عند الطرف المائي الآخر، حيث بحر بيروت!

ـ والحرب؟

ـ ما من حرب دامت عمراً بأسره.

رئيسه شارك في إطفاء روعه وكان معه لطيفاً حنوناً!

لِمَ لهذه الدرجة يحرصون على بقائه في العمل؟

يقولون، ما مرّ بالمشروع مهندس أو فنيّ عارف بآلية المَكن معرفته هو بها. لطالما راقبوه وهو يفعل. والآلات، كهربائية كانت أم ميكانيكية، كلّها، بين يديه، تضحي كائنات ذات روح تأنس إليه وتستسلم لتشخيصه. ما إن يسمع هديرها أو يُحكى له عن مشكلتها حتى يدرك علّتها ويعالجها.

ومنذ الشهر التالي لقدومه أعطوه درجات ترقية ثمّ صنّفوه مهندساً. والبارحة بشّره رئيسه بترقية أخرى في المشروع المقبل.

كيف سيفاجئه الآن بالقول إنه تارك العمل؟

ثمّ، أليس من الحريّ به أن يستشير خطيبته بالقرار قبل الشروع في التنفيذ؟

كانت سيارة المشروع متوقفة في الخارج وسائقها يتجادل مع أحد العمال. ففتح باب الكابين واندفع إليه يرجوه أن يأخذه إلى الهاتف الدولي عند محطة البنزين على الأوتوستراد. عليه و«لسبب طارئ» أن يكلّم أحداً قبل الساعة السادسة. صعد إلى الشاحنة فانطلقت بسرعة سيارة لتوصله قبل السادسة إلى المكان المنشود. دخل إلى الكابين وطلب الرقم ورنّ جرس الهاتف وسمع دالية تقول آلو. وبعد السلام جرّه الكلام إلى أن يخبرها بقرار العودة. نعم. إذ بات لا يحتمل العيش بعيدا عنها، بات لا يطيق. وأخبرها أنه كلّم أباه واتفق معه على أن يبيع الأرض وتبيع أمه مصاغها ويحضّر له

صهره السيارة ويلقونه بها على المطار، فهو قادم لإتمام الزواج. في أسرع وقت!

وإذ أحس باستغرابها الخبر شرح لها السبب:

بعد وفاة أمها وانهيار أختها ما عاد في وسعه أن يتركها وحيدة. فاختبار المحبين وقت الشدة. قال هذا ثم طلب منها ألاّ تشغل بالها بحكاية العمل فلكل مشكلة حلّ. وبيروت لا تعوزها فرص العمل بل الأمان.

صوتها ما زال بارداً وبعيداً.

استوضحها فذكرت أنها صحت لتوّها من النوم. وحاول أن يفتح نوافذ أخرى للحديث. في أي موضوع كان. .مثل أن يسألها عن أصدقاء الشلة، فرداً فرداً. هو يسأل وهي تختصر الإجابة.

ولا يدري لِمَ، ودون سابق نيّة، وجد نفسه يوصيها بأن تبتعد عنهم ويضيف:

ـ «خاصة في هذه الفترة.»

ولما استغربت النصيحة وجد نفسه يقول:

ـ أخبرك السبب حال نلتقي في لبنان.

عاد إلى الكابين وبرود صوتها يلاحقه.

وصدى الفراغ القاتل الذي يفصل الجملة عن الجملة.

ووصيته المغفّلة لها بأن تبتعد عن الشلة!

ما الذي دفعه لهذا القول وكيف سيبرّره لو سألته عن السبب؟

وفكر أن يرجع إلى المحطة ويكلّمها ثانية ليصحّح الموقف أو يختبر ثانيةً حرارة صوتها.

وخرج من الكابين فلم يجد السائق.

في مثل هذا الوقت يرجع السائقون جميعاً إلى قُراهم للمبيت. وخطر له أن يطلب من سائق اللوري أن يرافقه ثم عدل. يعرف أن استخدام اللواري لغير أغراضها من أفظع المخالفات. لكن ما همّ لو خالف وهو على أيِّ حال راحل؟

ومن بعيد بان له السائق منكباً على الشاحنة، يبرّد محرّكها ويلمّع زجاجها وجوانبها، فتأكد له إذّاك عبثية طلبه.

عاد إلى الكابين حائراً لا يدري ماذا يفعل.

ماذا اعتاد أن يفعل كل يوم في مثل هذا الوقت بعد انتهاء الدوام؟

يتسامر مع زملائه. أو يقرأ. وزملاؤه، بانتهاء المشروع، تركوا الشركة. وبعضهم سبقه إلى الموقع الجديد.

تناول المجلة الأمريكية التي اشتراها لتوّه من المحطة. فتحها وحاول أن يشغل نفسه بالفرجة على صورها. كم تصيبه بالملل هذه الألوان الفاقعة الحمراء الصفراء التي يبالغون باستخدامها في المجلات اليوم!

ورغم هذا شرع بالقراءة:

يذكر المقال أن صاحب أشهر محلات الوجبات السريعة في كاليفورنيا احتفل بعيد ميلاده السبعين، في الوقت الذي يفتتح به مائة فرع جديد في مختلف ولايات أمريكا. وبذلك ستربو فروعه على عشرين ألفاً!

قَلَّب الصفحة: مقال يتحدث عن طريقة جديدة في معالجة الصلع. المسألة لا تهمه فهو غزير الشعر!

وآخر يتحدث عن سرطان الثدي لدى السيدات، مما أعاده إلى التفكير بدالية. ماذا لو أصابها هذا المرض، واضطرت لاستئصال صدرها العامر الشهواني؟

تضايق من تصوّره صدرها أملس بلا نهدين ومخطّطاً بالندوب. ألقى بالمجلة جانباً ونهض. واستعجل الخروج والطقس، رغم المساء حار. وهو يسرع الخطى بلا هدف إلى أن وجد نفسه أمام كابين المدير؟

طرق بابه واعتذر على اقتحامه وسأله أن يكلّم بالهاتف من عنده فوالده على فراش الموت. وبدا المدير متعاطفاً وترك له الغرفة ليأخذ حريته في الكلام. ضرب رقم دالية وسمع جرس الهاتف يرن، فيما هو يستعيد منظر صدرها المستأصل ذي الندوب. وظلّ الجرس يرنّ وكاد ييأس قبل أن تردّ عليه منصورة لتخبره أن دالية خرجت لتوّها.

ما الذي دعاها إلى الخروج في مثل هذه الساعة؟

أيكون شوقها لأمها قد فاض بها فراحت إلى المقبرة؟

لكن أيعقل أن تذهب إلى المقبرة وحدها في هذا الوقت المتأخر؟

وقالت له منصورة: لا أحد سوى أبيها وأختها في البيت؟

ووجد نفسه يقول:

ـ إعطني ريما أكلمها.

ثم أضاف:

ـ قولي لها صديق دالية الذي كان يحضر معها التدريبات.

من الواضح أن طلبه أربك الشغالة فقالت:

ـ عفوا يا أستاذ. . غاب عن بالي أن ريما هي أيضاً خرجت مع أستاذتها.

ـ إذن أعطني والدها أكلمه.

استغراب منصورة ما زال يصله عبر التلفون. لكن، لعل سيّدها سيكون أقل منها استغراباً، فيما لو كانت قد أخبرته دالية شيئاً عن اتفاقهما، وعن زيارة أهله الوشيكة له.

لكن ما من إشارة إلى أنها فعلت! فالرجل، بعد أن سمع باسمه، أجابه بضيق:

ـ يا ابني دالية غير موجودة. خرجت منذ قليل ولا نعرف متى تعود.

عجباً أن تخرج والوقت مساء، وهي في حزن وعلى كاهلها أخت خرساء وأب عليل وأيتام بؤساء! ناهيك عن فظائع الحرب!

أين تكون قد ذهبت؟

إلى السهر مع الشلّة. الساعة الثامنة والنصف. السهرة قد بدأت ودالية غالباً ما تكون في طليعة القادمين.

شكر المدير واستعجل الخروج وصدره يشتعل بالغضب. فخطيبته الآن تسمر مع أصدقائه. يشربون ويدخنون السجائر، العادية منها أو «المشحونة»

منها بغير التبغ. ولا يدري لِمَ في حمى غضبه ضربت برأسه التساؤلات حول الوجه الغريب من شخصية دالية:

لِمَ لهذا الحد يسعدها أن تعاشر زمرة هامشية شبه منحرفة؟ هي الطبيبة المتخرجة من أهم جامعات فرنسا وأرقى مدارس لبنان. . القادرة على معاشرة أرقى الناس في أعلى السلّم الاجتماعي!

لا بد أن تكون هي نفسها امرأة غريبة الأطوار لتفعل!

صحيح أن فتيات غيرها أدمنّ عشرة الشلة، إنما لسن طبيبات وَلسن ميسورات. فتيات من أوساط متواضعة وظروف شاذة قاسية، تعرضن في مجرى حياتهن لضرب الأب واغتصاب الرجل واستغلال صاحب العمل وتحرّش الرؤساء.

شبه منحرفات تقلّبن على رجالٍ كثيرين وظروف عديدة كلّها في البؤس والخيبات واحدة. وهنّ إذ يترددن على الشلة إنما ليجدن العزاء والشراب والطعام والكحول أو المخدرات. أو يجدن كتفاً يبكين عليها وآذاناً تصغي لحكاياتهنّ المتشابهة رغم اختلافها، ومآسيهن النّمطية ذات الأفق المسدود.

ممَّ تشكو هذه الفتاة المرفّهة لكي ترمي بنفسها بين هؤلاء الضائعات البعيدات عن السواء!

لكن ماذا يعني أن تكون الفتاة سوية أو منحرفة؟ متّزنة أو على قدر من الجنون؟

لا يدري.

ولا يدري إن كانت خطيبته نفسها سويّة بما فيه الكفاية، فهي لا تقول «لا» لشيء. لديها ميل نادر لغرائب الأمور. نادر بالتأكيد كي تجزّئ نفسها على هذا النحو بين نمط في النهار وآخر في الليل. بين مجالس المحجبات

المترمتات وأجواء الهامشيين، السكيرين والحشاشين. وانسجامها مع هؤلاء يحاكي انسجامها مع أولئك.

أيكون لها دور تؤديه على غفلة من وعيهم؟

أيكونون جميعاً قد خُدعوا ووقعوا في ألاعيب امرأة محنّكة وذات أدوار، بعضها معلن وآخر سرّي، مثيلة اللائي تتحدث بهن حكايات التاريخ!

أم أن الحكاية لا تعدو كونها من ضروب التهوّر وغرابة الأطوار!

نعم، غريبة الأطوار من تحيا كذلك! ولعلّها هي أيضا، مثل فتيات الشلّة، تقلّبت على رجال كثيرين وأوضاع شاذة، فهي، على أي حال، غير عذراء.

وهو من باب الحياء واحتراماً منه لحريتها لم يسألها عن الأمر، ولا عن الرجل الذي فضّ بكارتها ولا عن التجربة التي كانت بلا ريب قاسية!

لم يسألها فمنذ البدء أعفى نفسه من الفضول واكتفى بالعلم أنها غير عذراء!

لكن أليس غريباً ألاّ تبادر هي بنفسها إلى مصارحته، كما يجدر بأي فتاة أن تفعل وتحدّث من سيصبح زوجها، بهذا المفترق العظيم من حياتها؟

من يكون هذا الرجل يا ترى وكيف وقعت لها الحادثة؟

أتكون قد اغتُصبت؟

لا. ليست دالية مِّمن يُغتصبن! بل هي تُعطي نفسها وكفى. تعطيها بثقة واندفاع لرجل أعجبها. فإن أحبته جعلته أميراً على جسدها وأحاسيسها وعلى طاقة عجيبة ورهيبة من العطاء.

أين هي الآن من هذا العطاء؟

رائع أن تتوّجك امرأة أحببتها سلطاناً على قلبها وتعدك بفردوس

نعيمها. . تلبسك زيّ أنطونيو وتلبس لك زيّ كليوبترا دليلاً على رباط بك أبدي حتى وإن كان شرطه الموت. . رائع أن تفعل. . ثم إذ يتعكر مزاجها تطردك من جنّتها مثلما، في الآونة الأخيرة صارت تضيق به وتلمح له بالقطيعة. .

أتكون قد استبدلته برجل آخر؟

أيكون هذا من الشلة؟

أيكون ذاك التافه، أكرم، الذي تجرّأ، ودون سابق اتفاق، رفع كأسه وقال، «بصحة العروسين» قبل أن يدعو الجميع لمتابعة السهرة في ذاك المكان المشبوه! مكانٍ يختلط فيه الأسوياء بالشاذين والمراهقون بالعجائز وعُلية القوم بأشباه المتسوّلين وشلّة أكرم بهذين الشاذين العجيبين، اللذين يشبه أحدهما الآخر شبه التوأم توأمه واللذين أمضيا السهرة متعانقين قبل أن يقوم أحدهما ويدعو دالية للرقص والآخر يدعوه هو. .

ما الذي جعل، أكرم يبادر ويرفع الكأس نخب «العروسين».

أيكون قد فعل ليرتب لعشيقته الشبقة حياةً جديدة يكون هو جزءاً منها؟ في السرّ يشارك صديقه الفراش وفي العلن يزعم الصداقة؟

لكن لا. ليس هو الذي يُخدع.

هكذا صرخ كمن صعقه تيار. وهجم عليها، كما لو كانت أمامه، ليطرحها أرضاً ويشدّها من شعرها وينزل بها ضربا. ثمّ يندفع إلى خزانة ملابسه وينتزع حزامه الجلدي ويلوّح به والحزام يفرقع بين جدران الغرفة الضّيقة.

يضرب ويشتم.

يسأل العاهرة في أيّ المواخير تدرّبت على فنون العشق؟

يسألها من دلّها إلى درب السكيرين والحشاشين والمتعاطين؟

لا بدّ أنها تنقلت في أحضانهم واحدا واحدا قبل أن تصل إليه؟

لا. ليس هو من يُنصب له الفخ!

هو المغوار الذي لم يرهب الحرب ولا القتال.

ليس هو، فلتعرف إذن من هو. سيلقنها الدّرس الذي يعرّفها حقاً من هو. يغتصبها كما تُغتصب العاهرات المتمنّعات أو المجاهرات بإطلاق العنان لإمبراطورية الحواس. يغتصبها ويستنطقها الحقيقة، إذا ما كان هذا الفاسق أكرم هو نفسه مَن نال عذريتها؟

السوط ما زال يفرقع في فضاء الغرفة العرقى المحمومة وهو يسألها لِمَ هي لهذا الحد فاسقة؟

لِمَ لهذا الحدّ أباحت حدود الجسد؟

المرأة لا الرجل مَن يقيم حدود الجسد!

فاسقة لتراوده عن نفسه وتدرّبه على فنون العشق!

فاسقة لتذهب إلى نادي العراة وتسير بكامل عريها على الشاطئ. تستعرض مفاتن جسدها بلا خجل! تستعرض عورتها الكثيفة التي يهتاج لها أبلد رجل في العالم! أبلد طفل بل وأبلد امرأة. فاسقة لتعرض نهديها المنتصبين فرجةً للمتفرجين!

هي مَن بالأمس، كان حجاب قريناتها المسلمات جلباباً أسود ضارباً من الرأس حتى القدمين.

وحجاب قريناتها النصارى إزاراً أبيضَ لا يخرجن إلى الشارع ولا يطأن عتبة الكنيسة إلاّ به.

ولقريناتها من اليهود حجابهن أيضاً ولكل سيدات العالم..

والأفظع من هذا أنه هو أيضاً قد فعل!

أغرته مرافقتها ليجرّبا متعة السباحة وحمّام الشمس عراة. وهو لم يكن قد زار قبرص فاستجاب. ومشى بجانبها على الشاطئ، عارياً، عارضاً

عورته والناس من حوله! لا يدري إن كانوا يتفرّجون عليه أم يغضّون البصر فهو من ناحيته بذل جهداً فظيعاً كي لا يرى لكنه رأى!

يا لخزيهم، يتمايلون وعوراتهم التافهة تتمايل أمامهم!

ونساؤهم تتهادى بعري مستفِز!

يا للغرابة. . منذ آدم وحواء والإنسان يغطي عورته، ثم يأتيك في هذا الزمن العجيب مَن يغريك بكشفها وأنت لتفاهتك تستجيب!

أنتَ من أمضيتَ حياتك تخجل.

أنت مَن أبوك وأجدادك أمضوا حياتهم يخجلون. حتى من عري زوجاتهم يخجلون!

أي غواية جرّته إلى هذا؟

يجدر به أن يجلد ذاته حتى الدم من أُغويَ واستسلم.

ولاح السوط فوق رأسه ليلسع كتفه باللسعات الكاوية حتى سال الدّم والسوط يفرقع. وتراءى له السائل الأحمر على الحزام فانتشى. ألم يكوي ألماً.

وإذ سمع طرقاً على الباب توقف وأنصت: صوت السائق يسأله عما يجري في الداخل. سائق اللوري مستمر في الضرب على الباب، وسؤاله عما يجري في الداخل.

لا يدري ماذا يفعل. وللحظة خطر له أن يخرج ويطرح السائق أرضاً ويجلده بالحزام هو أيضاً!

وخاف من تصوّره الغريب فاندفع إلى الحمام ووقف بملابسه تحت الدش والسائق مستمر بضرب الباب وبالسؤال. عندئذٍ صاح هو من الداخل يُطمئِنه بألاّ يقلق، فهو يقوم برياضته اليومية التي هي من نوع الكاراتيه.

ولما خرج من الحمام راح إلى المرآة وهاله المنظر. ثيابه مبلّلة وعيناه ملتهبتان وأطرافه ترتعش وجدران الغرفة تطبق على صدره وخوفه على أشدّه من أن يفقد صوابه فيحقق تصوّره ويخرج ليعتدي على السائق بالحزام.

لا بد أن يفعل شيئاً ليوقف هذا الهيجان!

وتذكّر المهدّئ الذي أعطاه إياه الطبيب أول إصابته بنوبات الهلع فأخذ منها حبات دفعة واحدة ودخل الحمام ثانية وفتح الماء ووقف تحت الدش وبقي هكذا وقتاً وقد آل على نفسه ألاّ يخرج منه قبل أن يهدأ.

لم تأتِ إلى المطار لاستقباله.

وبين وجوه المنتظرين في الخارج تنقلت عيناه كثيراً تبحث عن وجهها. وللحظة خيّل له أنه رآها لكن أباه قطع عليه الأمل حين أفهمه بالإشارة من خلف الزجاج، أن خطيبته انشغلت آخر لحظة فلم تتمكن من الحضور.

خاب أمله. ورغم قَسَمِه على أن لا يدع الوساوس تخرجه ثانية عن طوره، فقد عادت إليه الوساوس.

ولما قابلها كانت باردة وساهمة. كأنما أصابها الصمت الذي أصاب أختها. يحاول أن يعلّل تغيّرها: الصدمة والمسؤوليات والمعارك الأخيرة. لكن المبرّرات كلها تتلاشى أمام الحدس. وحدسه ينبئه بأن ليس وفاة أمها، ليست مسؤوليات العائلة والمهنة، ولا معارك الحرب وراء هذا البرود.

وراح يسأل هنا وهناك بين أصدقائه ففهم منهم أنها إثر سفره ابتعدت عنهم فترة لتعود إليهم وإلى سابق عهدها في السهر.

وقال أحدهم:

ـ لا تقلق. ما زالت في الحظيرة!

ماذا يقصد؟

وماذا لو أنّ الشك الذي ألهب روحه في الصحراء كان حقيقة؟ وأنّ هذا الدّعي أو غيره من الشلة قد استحوذ عليها في غيابه؟

ومدفوعاً بهاجسه وبالتحدي استعجل الذهاب إلى أوّل سهرة للشلّة. وفي السهرة لم يرى شيئا لكنه رأى أشياء..

كانت حاضرة الذهن غائبة. إقبالها على الحاضرين يتأجج برهة ثم ينطفئ. وتكثر من الشراب والتدخين ويتراءى له طيف رجل آخر فيكذب في الحال رؤيته. وخطر له أن يجاريها ويسكر. لعلّ السّكر يُسكت الأصوات المؤرّقة. لعلّ السُكر يأخذهما ثانيه فوق التمنّع والوساوس كما حدث يوم أعلان الخطوبة.

لكن كبرياءه كان أقوى كما كان عزمه على كشف الخفيّ. أبشع المواقف المفضوحة لغيرك وأنت عنها غافل. وطيف ذاك التافه ما زال يتراءى له. هكذا ألحّ عليها كي تحدّد لأهله موعدا لزيارة أبيها. وعدته أن تبحث الأمر وتعطيه جواباً حال ترجع من رحلة عملها خارج بيروت.

وفي الموعد المحدد راح إلى السنترال ليكلمها وينال الجواب. وطلب الرقم مرات فلم يرد على الهاتف أحد.

خرج ونار الغضب تلهب صدره، كما حدث له ذاك اليوم في الصحراء. عاد ثانية وطلبها دون جواب. وفكر أن يرجع إلى البيت لكنه وقف برهة متردداً في باب الكابين: يا إلهي أيّ ثمن يدفعه الرجل نظير استسلامه لهوى المرأة؟

وخطر له أن يكتب لها رسالة قطيعة ويرجع إلى الصحراء ولا يعود يتصل بها أبداً. خطرت له الفكرة لتجتاحه في اللحظة عينها رغبة عنيفة في البكاء فيسارع بالخروج من السنترال ويصعد في سيارته وينطلق كالمجنون وهو يبكي.

هو المقاتل العنيد يبكي.

هو من كان من المغاوير!

وأوقف سيارته وأسند رأسه إلى مقودها وهو يشهق. ولما أقلع أحس

أن الغضب كلّه يهبّ من جديد. غضب رجل أيقن أن المرأة التي يعبدها قد رمت به خارج حياتها.

واتجه إلى الكورنيش ثم إلى الأوتوستراد مسرعاً وبلا هدف. وفي طريقه كاد يصطدم بحاجز الطريق السريع ويدخل في شاحنة ضخمة لولا أنه تفاداها وانحرف لتجنح سيارته يمينا ويسارا أكثر من مرة، حتى أيقن أنه هالك.

في أحلام السفر، كانت دالية تتخيّل أختها، ساعة الفراق، متشبثة بطرف ثوبها تشدّها به حتى تكاد تمزّقه.

أو تراها مرتميةً على الأرض أمامها وجسدها متراس يعترض الرحيل. وما خطر لها أنه سيأتي يوم تتوسل فيه ريما إليها أن تسافر وتتركها مع منصورة. مثلما في ذاك النهار الذي جاءتها فيه تهذي بضرورة رحيلها في أسرع وقت عن بيروت. اليوم قبل الغد، لتكون في منأىً عن الخطر!

تقول لها هذا وتصوّر لها بالإشارات رجلاً بيده سكين كالسيف يهم بالانقضاض على أنثى ليقتلها. وتجرّها من ذراعها صوب الحمام لتخبّئها فيه وتغلق عليها الباب. إذاك تأكد لدالية أن المعنية بالتهديد هي الشابة وردة التي تختبئ منذ فترة عندها في العيادة. تختبئ من رجال عائلتها الذين أقسموا على قتلها غسلاً للعار..

ولفرط ما هجست ريما بالمشهد خيّل لدالية بأن نهاية الفتاة صارت وشيكة وأن مطارديها صاروا على بعد خطوات، بدلالة السكين الذي، في غسل العار، لا شيء مثله يشفي غليل العشائر. هكذا استدعت الحدّاد إلى العيادة، فأضاف إلى الشبابيك قواطع حديد وإلى الأبواب الداخلية أقفالاً غليظة وإلى الباب الخارجي صفيحاً سميكاً من معدن مقاوم للقنابل. وبصحبته عادت إلى البيت ليعزّز تحصيناته. سألها أبوها عن السبب فحدثته بالسرقات التي يكثُر عنها الكلام هذه الأيام..

لم تخفّف هذه الإجراءات من رؤى ريما، ولا من توجسّها وَهذيانها الذي غدا بهلوانياً بالإشارات والأصوات، ولا من توسلها إلى أختها بأن تسافر ووعدها لها بأن تهتم هي ومنصورة بأبيها. تؤكد لها هذا فيما دالية ترجوها أن تتركها وشأنها، فهي منشغلة بحيلة تخرج فيها الفتاة من العيادة بعد أن انكشف وجودها للمطاردين. إذّاك أفهمتها ريما أنها هي، وليس أي فتاة أخرى، المعنية بالخطر.

وخيّل لدالية أنها أدركت البعد الغائب عن ذهنها من الحكاية..

كانت وبعض أطباء الأمراض النسائية، في بيروت قد تلقت رسائل تهديداً بالقتل من مجهولين، تحذّرهم من مغبّة قتل الأجنّة في الأرحام. وما لبث هؤلاء أن نفّذوا القول بالفعل حين اغتالوا طبيبين «جانحين» كما ذكروا في البيان الذي نشروه.

آنذاك عاشت كغيرها فترة قلق.

صحيح أنها تكره عمليات الإجهاض ولا تقوم بها إلاّ فيما ندر وعلى الأغلب للعازبات والقاصرات أو للنساء المغتصبات من مسلحي الميليشيات. لكن لا عجب أن يندرج اسمها في «السجل الأسود،» هي التي اشتهرت بمساعدة الخارجات عن التقاليد. غير أنها بصدور الحكم الغيابي على الجناة وتوقّف رسائل التهديد ظنّت أنّ الخطر قد زال. وإذا بها تجد نفسها مهدّدة ثانية. وهذه المرّة، وحدها دون سائر الأطباء وبلا رسائل سوى التي تصلها من هوّامات أختها ريما.

وهي، رغم خوفها صارت تضيق بتصوّرات ريما وبالهلع الذي يلبس وجهها وهي تتحدث بالقاتل وترسم صورته! تضيق وترجوها أن تكفّ عن هذا الهلع. الهلع ذاته الذي ظلّت ريما شهوراً تطل به على العالم. شهوراً بعد أن صدقت الهواجس بالواقعة وشهدت محاولة قتل أختها دالية بالسكين الكبير الذي تراءى لها مثيله في المتخيّل!

دالية، بعد أن اطمأنت إلى تعزيز الحماية في العيادة والبيت عادت لتنشغل بذاتها. وخطر لها أن تحقق رغبتها وتعيش كما يحلو لها وكما وصفت يومذاك لقريبتها. . بعيداً عن المرضى والأمراض. تلف الصالات وتشتري اللوحات والملابس وتتفرج على الأفلام وترتاد المسارح وتحضر الندوات وتجلس في المقاهي تتعرف بالناس وتأكل وتنام ولا تفعل أيّ شيء آخر.

ولا تدري لِمَ تذكّرت الفنان الذي ما عاد يعني لها ولا لأختها شيئاً، حتى لكأنّ هيأته غارت في طيّ النسيان. حدث هذا حين أفاقت من قيلولة بعد الظهر، وانتظرت مكالمة أسامة دون جدوى. وتذكّرت المنام الذي رأته لتوّها. رأت فرساً بديعاً ساطع البياض، يحاول أن يقفز من فوق سور فلا ينجح. الفرس يكرّر محاولته المرّة تلو المرّة، إنّما ليتراجع في كلّ منها عن الحافة. وفي تراجعه يصهل ويرتعد ويرفع رأسه وقائمتيه الأماميتين بحركة بهلوانية استعداداً للقفز من جديد!

غير أنّه وفي المرّة الأخيرة عبر السور وانطلق! وهي لفرحتها بانطلاقه أفاقت.

قلّما ترك لها حلم هذا الشعور بالفرح:

أجمل فرس رأته في حياتها! ساطعاً كالضوء! أين سبق ورأت مثيله؟

في لوحة من رسم الفنّان.

وخطر لها أن تبحث عن الرّسم. فقامت إلى مكتبتها وأحضرت الملف الذي احتفظت فيه بالصور. صورة الفرس وصورها هي والصورة الزيتية التي، في زيارة المعرض آنذاك اشترتها. وفيها تظهر متسمّرة ويدها على صدرها تخبّئ الجزء المكشوف منه. وجلست على الأرض مستندة إلى الكنبة تتأمل عبر مسافة من الزمن والمشاعر، ما أحدث ذات يوم في حياتها ذاك الانقلاب الخطير!

وإذا بأسامة يفاجئها بالدخول عليها بلا سابق موعد! وإذا به يندفع نحوها صارخاً أن تترك كل شيء مكانه. فتستميت هي عندئذ في الدفاع عن صورها.

عجباً! ما الذي جعلها، بعد سنوات، تستميت لهذا الحد في الدفاع عن صور نسيتها؟

حين اندفع أسامة نحوها، لم تكن مقدّرة خطورة الموقف. كانت مأخوذة بالمفاجأة والموقف كله بدا لها شاذّاً وباعثا على الضحك! أن يأتيها بعد سنوات عاشق دخيل ليؤكد بالنظرة الخاطفة ما أنكره الأصيل، من أنها هي الملهمة وهي غاية العشق، فتفرقع إذّاك بالضحك، لتأخذها بعد ذلك نوبة من القهقهة. قهقهة تخرج من صلب الحشا تخالها لن تنتهي، لولا أنْ لاح لها على وجه أسامة نذير الشؤم فتوقّفت مرتبكة خائفة.

ماذا تقول؟

وكيف تبرّر له هذا الكم من الصور؟ هو الذي لا يعلم شيئا عن الفنان ولا عن خطوبة ريما وما سمع بلوحات رسمها لها ولأختها. وما دَخل بيتهم من قبل ليرى اللوحة فيسأل ويُجاب.

الشيء الوحيد الذي سمع به في هذا الشأن، هو أن ريما كانت قبل وفاة أمها شبه مخطوبة من أحد المفتونين بها. وفي حينه قال:

ـ لا عجب! أين هو الآن؟

ـ جبان. حين علم بانهيارها هرب!

وأكثر من مرّة خطر لها أن تخبره المزيد.. غير أنها كلّما فكرت بذلك اصطدمت بتعقيدات الموقف. ثم انتهت إلى تلك النتيجة، أنه من الصعب عليك أن تلخّص، لمن جاء متأخراً، ما حدث لك قبل مجيئه.

كان يمكن للأمور أن تسير على نحو آخر، لو أن دالية لم تتصرف كما تصرفت. أو لو أن منصورة لم تغفل إعادة السكين إلى مخبئه تحت المجلى بعد أن أخرجته ربما يوم قطّعت الصورة.

وعلى الأرجح أن دالية كانت وحدها في البيت حين دخل عليها أسامة. الوقت بعد الظهر. منصورة خرجت لشراء بعض الحاجات ووالدها مثلما في كل يوم ذهب لزيارة أخيه نورالدين. وربما راحت مع أستاذتها إلى المسرح تتدرّب على عرضها الأوّل بعد النقاهة.

كانت ربما ستمضي يومها في التدريب فلا تعود إلى البيت قبل المساء لولا أنها تذكرت فجأة الشال اللازم للمشهد. إذّاك اقتربت من أستاذتها طالبةً العودة إلى البيت لإحضاره. والأستاذة قالت لها إن الشال غير ضروريّ اليوم ويمكنها الاستعاضة عنه برمي شعرها على كتفيها.

لكنّ الدّافع لإحضار الشال من البيت كان أقوى. فأسرعت بالخروج بلا استئذان وركبت التاكسي وراحت تستعجل السائق لتصل إلى البيت بالسرعة القياسية وتدخل وترى مجسّداً أمامها المشهد الفظيع الذي، منذ أسابيع، وهي تهذي به!

لو سُئل أسامة قبل المحاولة بدقائق فقط، إن كان بمقدوره قتل دالية، لأجاب على الفور لا. فهو ببساطة ما عاد يمكنه تصوّر الحياة بدونها. هكذا كان يضيق بأسئلة القاضي له، إن كان قد خطّط أو لو أنّ أحداً ما قد دفعه لقتلها!

لم يدفعه أحد ولم يخطط فكلّ ما جرى كان وليد اللحظة بلا تصور ولا تخطيط:

بعد أن كاد يصطدم بالشاحنة ويهلك عاد وغمره شعور بالفرح لنجاته وإحساس غريب بالتفاؤل. ولام نفسه على جنوحه واتهام خطيبته بأشياء. فأوقف سيارته أمام دكانٍ ليهاتفها ويخبرها بخلاصه الأعجوبي من الموت. فتهنّئه إذّاك بسلامته وتدعوه إليها ويحدث بينهما ما يحدث بين امرأة وحبيب لها داعبه القدر لتوّه بالدعابة الثقيلة.

لكن المكالمة، مثل عشرات أخرى غيرها لم تأتِ سوى بالخذلان.

هكذا، ودون سابق نيّة، اتجه إلى بيتها، مدفوعاً باقتحام القلعة التي منذ الخطوبة يحلم باقتحامها. وبوضع حدٍ للتّذبذب الذي يقود إلى الجنون. ولمذلّته وتصوراته بأن عائلة بأكملها اتفقت على خداعه. وكلّ ما جرى بعد ذلك جرى بلا تصور أو تخطيط. بدليل أنه، بعد المكالمة، راح إليها مباشرة بلا سلاح.

ويدحض المدعي العام حجته بالقول:

ـ لا أحد يجهل أنّ في كل بيت سلاحاً: السكين.

يقول المدعي العام هذا دون أن يكون قد رأى السكين. لو رآه لجزم بأن الجاني بيّت النيّة، معتمداً على أن المنزل يضمّ الضحية وأداة قتلها. حتى وإن لم يسبق له أن دخله. فالنساء، لا سيّما العاشقات منهنّ، يهوين التحدّث بالتفاصيل أكثر مما يهوَيْن المضيّ مباشرة في صلب الموضوع. وليس غريباً أن تكون المجنية عليها، في حديثها عن التقليد المتوارث لديهم في تخزين اللحم، قد أسهبت بالكلام عن هذا السكين.

لم يخطّط. لكن..

أن لا تأتي إلى المطار لاستقباله.

ولا ترد على الهاتف حسب الموعد المتفق عليه.

وأن لا يعرف سوى أثناء المحاكمة أنها كانت قد سحبت فيش الهاتف، كما اعتادت أن تفعل لتنام، وأنها لمّا أفاقت نسيت أن تعيده..

وأن يدخل عليها فيضبطها مستغرقة في مشهدٍ، ليس غرامياً بالتحديد، إنما ينضح بالغرام. وهي فيه جالسة أرضاً على السجادة الفارسية جلوس عاشقة مستلبة، في محيط من الصور. صور ورسوم متشابهة متكرّرة، ما أتت على ذكرها يوماً هي التي اعتادت أن تحدّثه بأدق التفاصيل. ولوحة من الواضح أن فناناً عاشقاً رسمها لها في حالة هيام..وفيها تبدو يدها على صدرها ومنفعلة من ذاك الانفعال الجهنّمي!

أن تُفاجأ لهذا الحد من دخوله فتنحني على صورها تحميها بذراعيها كما تفعل أمّ لتحمي وليدها!

وأن يصيح بها أن تترك كل شيء مكانه فتستميت هي في الدفاع عن كنزها..كل هذا يؤكد أنه ومنذ البدء كان دميةً في يدِ امرأة لعوب تُظهر له الحب في العلانية، وفي الخفاء تعشق فناناً يرسم لها الصور؟

وهو، حين اندفع إليها، ما كان في نيّته إلحاق الأذى. وإنّما فعل

ليمتحن اهتمامها. لعلّها من تلقاء نفسها تزيح الصور وتقوم إليه.

ما كان في نيته. .بل لعلّ التلامس يفكّ عقدة الموقف. لعلّ رائحة الجسد توقظ المشاعر. لعلّ خطيبته تعود إلى رشدها وتستسلم. ما كان يبغي اغتصابها كما ظنّت، وما كانت اللذة دافعه بل الالتحام ونتاجه العظيم: الانجاب. حلم كل امرأة على وجه الأرض. نعم. فليغرس في أحشائها النطفة التي لا فرار لأنثى منها.

لا ينوي اغتصابها. لكن أن تصده بالنفور وبالكلام الرهيب. .

وتبصق بوجهه وتصرخ بأعلى الصراخ أن يدعها وشأنها. أن يكفّ عن مطاردتها فما كان بينهما قد انتهى حتى أنّها ما عادت تطيق اقترابه. .كلام خلع عنه آخر فلول العقل. فراح يتلفّت حوله باحثاً عن شيء ما يمكّنه من الانتقام. لكنه لا يجد في الصالة ما يمكّنه من ذلك. هكذا اندفع إلى المطبخ ليقع سريعاً على ضالته: السكين، منتصباً في مشكاك الصحون على المجلى!

أيّ عفريت أحضر له ريما في تلك اللحظة لتقف قبالته تُوَلوِل! وَلْوَلة شلّت يده وهو يرفع السكين لينقض بها على عنق دالية.

ـ لكن كيف يمكن لفتاة بكماء أن تولول؟

لا يدري.

ورغم هذا، يؤكّد للقاضي على أنه سمعها تُولوِل. وإن كان لا يذكر إن هي وَلوَلت بالإشارة أم بالأصوات، حين نادته صارخةً باسمه تتوسل إليه أن ينزل السكين عن رأس اختها.

ووجد نفسه يستجيب لتوسّلاتها وينهار.

لا يدري.

ولعلّ التي صرخت دالية وليست ريما. فهو، في ذهوله بين هذه الواقفة فوق رأسه مثل شجرة تلوّحها الريح، وتلك الجاثية هلعةً عند قدميه، لم يميّز التي صاحت من التي وَلولت بالصمت. لا يذكر. جلّ ما يذكره أن لدخول ريما عليه في تلك اللحظة مغزىً يتجاوز التفسيرات!

يقول هذا ويطلب من القاضي السماح له بتقبيل يديها. بل وتقبيل قدميّ هذه القديسة التي أرسلتها الأقدار لتنقذه من أفظع الشرور.

ولسماعه هذا يُخيّل للقاضي أن الشاب يعشق هذه الفاتنة الخرساء وليس أختها السمراء إذ لا يمكن لهذا الكلام البليغ أن يُفسّر على نحو

آخر! لكن الشاب يوقظه من شطحاته حين يتوسل أن تغفر له دالية فعلته. ويحتجّ لأنها لم تحضر المحاكمة فهو مشتاق لها. ويسأل إن كانت على استعداد للرجوع إليه فيجيبه القاضي:

ـ ألقينا عليها السؤال ذاته فقالت لا.

أسامة، لسماعه هذا يجن ويستعطف القاضي أن يبقيه في السجن. يخشى لو خرج وبقيت هي مصرّة على رفضها أن يفلت الأمر من يده ويعيد الكرة. إذ لا حيلة له. فقد أحبها من ذاك الحب الذي يفقدك الحكمة والرحمة.

يقول هذا ضارباً بعرض الحائط تعليمات المحامي. يقوله بحضور أبيه وأمه وصهره وأخته ورجال عائلته الذين جاءوا من بيروت ومن الجبل، ليشهدوا محاكمة ابنهم البريء: شاب خلوق شجاع، خاض الحرب دفاعاً عن المقهورين. ولما بان له زيفها انسحب واعتكف. وإذا به يقع في أحابيل امرأة كادت تودي به إلى الكارثة!

كيف سيغيّرون بعد ذلك نظرتهم إلى النساء وما هنّ جديرات به من مكائد؟

ويرجو هو من أقاربه أن يكفّوا عن التجريح بهذه العائلة النبيلة التي أنجبت ابنتين عظيمتين. الأولى، كما الأم تيريزة، نذرت نفسها للضعفاء. والثانية رغم خصوصية وضعها وهبت فنها للسلام. هديتان من الله لبني البشر كاد، لغيّه، أن يقتل إحداهما فأنقذته الثانية إنقاذ قديس لغافل مُورّط. تلقّاه لحظة العبور إلى الضفة الأخرى. لحظة رفع السكين ليسدّد الضربة القاتلة إلى عنق امرأة يعبدها. ينتقم من هواجس عاشق محاصر، بدأت في الصحراء واستمرت في بيروت.

عجباً كيف، في عالم أملس، تتعذر عليك، لهذا الحدّ الرؤية!

ويرجوه المحامي، كما أبوه، أن يكفّ عن شطحاته التي تهدّد ببقائه

في المؤبد فلا يمتثل. إذ ما عاد لديه أوهام ولا هو بطالب عدل في هذه الدنيا التي ليست مثالاً ولا مكاناً للعدل.

ولا هو بطالبهِ من قاض قاصر عن التصوّر الكليّ. ولا من محاكم غارقة في التجزئة غافلة كلّية العناصر:

أين موقع المدينة من كل هذا؟

هذه، ذات الأهواء، التي فتحت فخذيها للغريب ولعابري السبيل وتجار الأسلحة والمتآمرين. وجعلت من شوارعها ساحات وغى ومن أبنائها مرتزقة أو هواة عدالة خادعة. تتمادى في قتلهم ثم تزيّن بصورهم الجدران: شبان في عمر الورود، عيونهم تفيض بالآمال البعيدة المديدة والمراهنات البريئة النبيلة. وبأحلام لا تتسع لها الدنيا..

وخبط المحامي الطاولة محتجاً مطالباً بإيقاف موكله عن الكلام. فهو مرهق وإرهاقه ينذر بالورطة ويلزمه طبيب.

لكن القاضي أشار للمحامي بأن يتوقف. وسأل المتهم أن يتابع حتى آخر الكلام. نعم فليتابع. منذ دهر لم يمرّ به متهم حريص على إجلاء الحقائق بهذه الصورة الأصيلة الفذة!

«فليتابع»، قال القاضي. والمتهم استجاب وتابع. مؤكداً أن همّه ليس التماس العفو بل الاستذكار. كيف في تلك اللحظة التي لا سبيل لوصفها، رأى العطف يفيض من وجه الفتاة التي شرع بقتل اختها! وكيف انحنت عليه وتناولت منه السكين، انحناء أمّ على طفلها المريض، تأخذه بيده إلى السرير وتغمر جسمه المثلج بالغطاء وتسقيه الدواء وتقول له نم فينام.

هكذا، ساعة جاء الدرك ليأخذوه إلى المخفر لم يشعر بشيء.

١٠

ما اعظمها من حرية تفتح لك باب السماء

موعد الحكم يقترب فيما هو مستمرّ في شطحاته معرّضاً نفسه للمؤبد لولا تجاوب دالية مع استعطاف أمه وأبيه. جاءت الأمّ إليها وانحنت تقبّل يديها لتسقط عنه الدعوة فأسقطتها. والمحامي قام بما في وسعه لينال موكّله أقصى أسباب التعاطف. فاستحضر شهادات من أصدقائه تثبت كم هو خلوق. وأخرى صحيّة من الطبيب تشخّص حالته، هو المفرط في الحساسية حتى المرض والذي كان على الدوام عرضة للأزمات.

دمث وجاد، بشهادة الشركة التي أرسلت به كتاب ثناء، واصفة حب زملائه ورؤسائه له، وقرار الإدارة بترفيعه إلى رتبة مسؤول عام عن أجهزة تقدر بالملايين.

كل المودّة والتقدير. وإن كان في الآونة الأخيرة، قد أضحى منطوياً مستوحداً وعلى شيء من غرابة الطباع حتى انقلب فجأة على قراره بالاستمرار معهم في العمل.

وجيء بسائق المشروع من الصحراء إلى بيروت ليدلي بالشهادة فأدلى: قال سمع جلبةً غريبةً في كابين الشاب فخاف عليه وسمح لنفسه بأن يتلصص من ثقب المفتاح. إذاك رآه يجلد نفسه بالحزام. يؤنّبها ويشتمها على ما اقترف. كما يتوجه بالشتائم إلى امرأةٍ عارية ما لبث أن انقضّ عليها هي أيضاً بالجلد. ولولا يقين الشاهد أن دخول امرأة إلى هذا المكان أشدّ

استحالة من دخول جمل في ثقب إبرة، لخيّل له أن المرأة كانت تقف بالفعل قبالة الشاب الثائر.

وإذ طلب القاضي من الشاهد الغريب أن يستفيض ويفصّل، خجل هذا من الكلام. واستأذن أن يشرح ما رأى وسمع كتابة؛ فأذن له القاضي بذلك. وناوله أحدهم ورقة فكتب:

كانت هناك امرأة ذات عورة كثيفة تتبختر عاريةً على شاطئ أبيض مع رجال عراة.

وكان هؤلاء يتمايلون بأعضائهم المتدلية أمامهم بلا خجل.

وكان الشاب هو نفسه بينهم يختال عارياً.

وكان هناك أجداد ذوو حياء رفيع يأبون على أنفسهم النظر إلى عري زوجاتهم.

عجباً! تساءل الشاهد القادم من الصحراء. لِمَ يأبى رجالكم رؤية زوجاتهم عاريات والله سبحانه وتعالى قد حلّل هذا! ولَمَ القبارصة، وهم نصارى من أهل الكتاب، يخرجون إلى الشاطئ عراة!..

وبتأجيل صدور الحكم يزداد أسامة تبرّماً.

وخارج المحاكمة ينتابه الملل.

فيمضي وقته يستعرض الملابسات والأيام التي سبقت الحادثة. ويندم على أشياء قام بها وأخرى تقاعس عنها في حياته التي صارت في السجن موضع مساءلة.

وفي زيارة أهله الأخيرة له طلب من أبيه أن يذهب إلى مكتبات بيروت والشام ويرسل لمن يعرفهم في القاهرة، ليأتونه بكتب لم يقرأها.

ويأتونه بكل الكتب السماوية التي فاته الاطلاع عليها: القرآن وكتب التفسير والتوراة والأناجيل وكتاب الحكمة الذي هو كتاب سرّي لدى طائفة

الدروز. وكتابات البوذية والهندوس وكتب الطوائف الأخرى مثل «المورمون» المنتشرين في أمريكا. وكتب جميع الباحثين عن الحقائق عبر الروحانيات. إذ لطالما، ولغروره، ابتعد الانسان عنها، ظناً منه أنه بالعقل وحده يبلغ الجوهر!

ما أشدّه بؤساً مَن أسلم نفسه للعقل وحده. فما من عقلانية صرفة إلاّ وأوقعت صاحبها في المراوغة.

أحضر له أبوه الكتب دفعات دفعات فقرأها وَتبحّر في كلامها ومعانيها ودقائق تفسيراتها، إلى أن اختار الإسلام ديناً. وفي الزيارة التي سبقت الجلسة الأخيرة، ثار على أبيه وخبط على قواطع الحديد التي تفصله عنه وصاح به، أنه هو المسؤول.

لِمَ لم يكن يصلي؟

لِمَ لم يهتدِ إلى طريق الجامع؟

لِمَ لا يقوم بالفروض ولا يستمع إلى خطبة الجمعة ولو من الإذاعة!

كيف تخلّى عن دوره كربّ عائلة مُسلم ومكلّف بأن يُلزَم زوجته وأولاده القيام بشعائر الدين؟

لِمَ جَنحَ حتى جعل ابنه الوحيد يعتاد ضرب الكأس بالكأس؟

لِمَ لَمْ يعلّمه الصلاة ولم يدرّبه على الصوم حتى نشأ مختلفاً خاوياً وبلا محور!

وطلب من أبيه كما من أمه، أن يتوبا إلى ربهما عما مضى، فوعداه بأن يمتثلا للتوبة، وأن يصلّيا الفروض كما النوافل ويصوما شهر رمضان كما الأيام المستحَبّة. فشرعا بتنفيذ ما طلب. وأبوه وعده وأقسم أن يقلع حتى آخر العمر عن شرب الخمر. وأكّد له أنّه تخلّص من زجاجات الكحول التي كانت في البيت. أعاد النبيذ غير المفتوح إلى الدّكان أما الزجاجات المفتوحة فقد رمى محلولها في البالوعة.

وسأل أسامة أبويه أن يطلبا من الله المغفرة له والرحمة للقتلة. لجميع القتلة. إذ ما من حُكمٍ أفظع من أن يكون الانسان قاتلاً.

نعم، اختار الإسلام اختياراً حرّاً طوعيّاً أصيلاً.

الإسلام، دين آبائه وأجداده.

ووجد في القرآن ضالته. وطلب من أبيه أن يحضر له سجادة صلاة وأن يأتي له بشيخ يعلّمه أصولها وأصول الوضوء.

هكذا وهو على أبواب الثلاثين اهتدى.

ولما دخل عليه الشيخ في السجن نهض ثم انحنى على يديه يقبّلها فقال الشيخ معاذ الله يا بنيّ إجلس، فجلس. إقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأ. وعلّمه الصلاة فتعلّم.

وفي سجوده الأول بُعيْد خروج الشيخ، انتابته حالة من الخشوع فبكى وشهق. وأدرك عجزه عن متابعة الفرض مرّة واحدة، إذ ما إن سجد ثانيةً حتى انتابته الحالة ذاتها فهتف والكلام يمطر بالبكاء: أستغفرك يا رب. يا نصير الضعفاء ويا أرحم الراحمين!

لا يدري كم من الوقت مضى عليه وهو ساجد لكنه نهض رافعاً رأسه وكفيه إلى الباري متضرّعاً: عفوك يا الله يا رب العالمين، عفوك ورضاك.

ثم لم يعد يذكر ماذا حدث. غير أنه صحا في الليل على برق ورعد يمزّق الآفاق، وكان الوقت صلاة العشاء فنهض وتوضأ وفرش السجادة واتجه نحو القِبلة ودعا ربه أن ينعم عليه بالقيام بفرض متمَّم فكان له ما اشتهى.

وطلب من الشيخ أن يكلّف مَن يؤدي فريضة الحج إلى بيت الله الحرام بدلاً عنه. فأجيب أنه من الأجدر أن يؤدّيها أحدٌ من ذوي القربى، فاختار أباه.

وكانت تلك أول زيارة للأب إلى مكة المكرمة.

وفي الموعد المحدّد قبيل السفر لبس أبوه ثياب الإحرام وجاء بها إلى ابنه، فراح الابن يقبّل اليدين اللتين ستلامسان الحجر الأسود ويلامس، والدموع تبلّل خديّه، الثوب الأبيض الذي سيطوف به في المكان الأقدس.

وفي الجلسة الأخيرة ازداد إصراراً على كشف الحقائق. كل الحقائق: حقائق النوايا وحقائق الأحداث. لا يأبه لتهديد المحامي له بالانسحاب. لا يأبه لحكمٍ يصدره قاضٍ هنا، مَن غدا قريباً من القاضي الأكبر.

لا يأبه، إذ لا بد للحقيقة أن تشرق على الدوام. هنا وفي كل مكان. لتكون عبرة للناس. لا همّ لو بقى سجيناً طيلة حياته أو خرج غداً، فالنفس في حقيقة الأمر سجينة صاحبها. وهو، في هذا السجن الخارجي، يرى عدلاً وحرية.

نعم، ما أعظمها من حرية تفتح لك باب السماء!

الأبواب التي لو فُتحت لخطيبته لأبصرت ما تقاوم إبصاره.

وراح يكتب لها الرسالة تلو الرسالة. يحاول إقناعها بزيارته في السجن ولو مرّة واحدة، فلا ترد عليه.

لا تردّ، فهي منذ الحادثة تراوح بين موقفين:

أن توصد الباب بوجهه فتكتفي بإسقاط الدعوى عنه ثم تتوارى عن دائرة حياته إلى الأبد.. أو تكمل مشوارها مع مَن أحبّها هذا الحبّ الذي أحبّته لرجلين أنكراها. تتفهّم وتغفر وتروح إلى المحكمة تدافع عنه وتعترف بتذبذب غير مقصود أوقع خطيبها في التهوّر. ثمّ تكلّل المصالحة بالزواج فيُستدعى الشيخ إلى السجن ويعقد قرانها عليه ويُعفى عنه ويخرج. وتعيش معه بعد ذلك حياة زوجية قويمة، ينجبان الأولاد أسوة بملايين الأزواج الذين لولاهم لما عمر الكون..

وتلح عليها الفكرة فتكتب له رسائل في الليل تمزّقها في النهار.

كانت قاب قوسين من تحقيق الحلم الذي كان من شأنه تحويل الجناية إلى دراما والمتهمين فيها إلى أبطال.

قاب قوسين لولا رسالة أسامة الأخيرة التي خاطبها بها مخاطبة زوجٍ لزوجته. فما كان يمكن أن يحدث بينهما ما حدث لو لم يكونا زوجين. فللزواج شرطان: القبول والإشهار. أما القبول فعلاقتهما الممتدة عبر

سنوات خير دليل. وأما الإشهار فقد تمّ أمام الشهود في تلك السهرة التي سُئلا فيها وأجابا بكلمة نعم.

وأرفق الرسالة بنسخة من كتاب الله العزيز الذي يجدر بكل مسلم ومسلمة أن يتأملا بآياته السامية، قبل أن يخرجا إلى الحياة، كي لا يقعا في الزلّة. الآيات التي يطلب فيها الله عزّ وجل، من الرجال كما النساء، أن يحفظن فروجهنّ ويصنّ أعراضهنّ ويغضضن من أبصارهنّ ولا يظهرن زينتهنّ إلاّ لبعولهنّ. والله غفور لمن طلب الهدى. لذا آن الأوان أن يُخرجا زواجهما من السرّ إلى العلانية، وأن يفتحا صفحة جديدة يبدآنها بالحج إلى بيت الله الحرام. يتوبان في حَرَمِه عما اقترفا من ذنوب، خاصةً ذاك الذنب المشين الذي كلّما خطر له تمنّى لو تنشقّ الأرض وتبتلعه. فليحجّا وَليلتزما بالفروض وبما حلّل الله وحرّم. ولتلبس هي الزيّ الذي أرسله لها علامة الهدى. فتغطي شعرها بالمنديل وتلبس العباءة السوداء الطويلة.

وخيّرها بين أن ترمي الغطاء الأسود على وجهها وهو الحجاب الأكمل لها كمسلمة.. وبين أن تكتفي بغطاء الرأس وتُبقي وجهها مكشوفاً وهو الخيار الأنسب لها كطبيبة. وفي كلا الحالتين يشترط عليها أن تكفَّ عن عشرة الرجال والاحتكاك بهم بلا داعٍ أو صحبة مَحْرم.

وأمهلها لتفكر وتعطيه الجواب. فإن رضيت عاشا معاً وأنجبا الأولاد وربّياهم على الدين الحنيف. نعم، فمنذ اليوم الذي حدثت فيه القطيعة الوهمية مع دين الآباء دبّت الفوضى وضاعت النفوس. وإذا كان جوابها الرفض فسيرسل لها ورقة الطلاق ويمضي هو في سبيله ويتزوّج ابنة خاله التي تنتظره منذ سنوات. فما من طريق للزلّة أقصر من عزوبية تطول.

واحتارت دالية في أن تجيبه على رسالته أو تسكت.

تخشى إن سكتت أن يُفسّر سكوتها قبولاً كما في العبارة الشائعة. وبعد تردّد أرسلت له مع منصورة جواباً مقتضباً تؤكد فيه على أن القدر الذي

يحسم الأمور قد اختار لكل منهما طريقه. وتؤكد له على أنها حرّة وتستعد للسفر.

والردّ الذي اعتبره أسامة طلاقاً شفهياً لزواج شفهيّ، سلّمته دالية لمنصورة لتأخذه له. فعلت هذا لتشعر بقدر عظيم من الحرية والفراغ.

ووجدت نفسها تتساءل عما ستفعل بأيامها المقبلة ومتى ستغادر بيروت. تتساءل فيما، من باب الفضول، تفتح الطّرد الذي أرسله أسامة لتتفرّج على الزّيّ. تناولت العباءة السوداء ووضعتها على كتفيها. ووضعت الغطاء الأسود على رأسها، وعلى وجهها رمت المنديل. وَوقفت أمام المرآة تتأمل نفسها مجلّلة بالأسودِ. الزيّ الذي كانت جدّة أبيها ترتدي مثيله. والذي خلعتْه جدّتها هي، مع مجموعة رائدة من نساء بيروت بعد أن سبقتهنّ إلى ذلك في مصر، زوجة سعد زغلول في أوائل العصر. خلعنه وطفن في الشوارع والأسواق ليقمن الضجة التي ستتحدّث بها الأجيال. لا تضاهيها ضجة سوى التي رافقت مسيرات خلع الحجاب الجماعي في مدن فلسطين وسوريا ولبنان.

وقفت أمام المرآة، مجلّلة بالأسود من رأسها حتى قدميها. الزيّ الذي كاد يدب الهلع في قلب أختها ريما حين فتحت عليها الباب.

الزي، في حدّ ذاته ليس غريباً على ريما. ورغم هذا فهو هنا في غرفة دالية أغرب من غريب! من تكون هذه المقنّعة بالأسود وكيف تسللت إلى غرفة أختها؟ وخيّل لها أنّ أحد أقارب أسامة جاء متنكراً لينتقم. وكادت تولول كما فعلت ذاك النّهار. .لولا أنّ دالية كشفت عن وجهها وابتسمت قائلة :

ـ لا تقلقي يا ريما. وردة تتحضر للسفر وتحتاج في تنقلاتها إلى ما يساعدها على التخفّي. وقد خطر لي أن أرسل لها هذا.

تأمّلت ريما أختها مليّاً وقالت:

ـ أنت أيضاً يلزمك سفر.

ـ ولِمَ السفر؟ اطمئني أسامة قد تغيّر؟

وتنهدت وتابعت:

ـ لا تتصوّري كم تغيّر. حتى لكأنه شخص آخر!

وكما لو أنها لم تسمع التعليق، قالت ريما:

ـ مهما يكن.. يلزمك سفر. سافري لترتاحي بعيداً عن كلّ هذا.

وتجرّأت دالية وقالت:

ـ لن أرتاح إلاّ إذا تزوّجتِ.

وريما أجابتها على الفور:

ـ إذن يمكنك أن ترتاحي. خلاص.. تزوّجت.

حين قالت ريما «تزوّجت» لم يخطر لأختها أبعاد الكلام ولا علاقته بمحاولة القتل. .

ذاك النهار، بعد تلك الساعة العصيبة، حين جاء الدرك وأخذوا الجميع إلى التحقيق، لم يتنبه أحد إلى أن ريما اختفت. فقط حين وصلوا إلى المخفر وطلب الضابط شهادتها، تلفتوا حولهم فلم يجدوها!

ورفض المحقق طلب دالية أن تخرج لتبحث عنها، كما رفض أن تكلّم خطيب أختها لتسأله أن يفعل. بل بادر هو بنفسه إلى مخابرة الشاب طالباً منه إحضار خطيبته على وجه السرعة. والشاب الذي لم يفهم من الرسالة الهاتفية شيئاً ولا السبب الذي من أجله يهاتفه ضابط المخفر، امتثل وبدأ رحلة البحث عن ريما. فأخبرته أستاذتها أنها في البيت، وقالت منصورة إنها في المسرح. عندئذٍ أدرك أن خطيبته مفقودة.

لم يبقَ مكان خمن وجودها فيه إلاّ وراح إليه. وخطر له أن يعثر عليها في جميع الأمكنة وفي أوضاعٍ شتى. . إلاّ أن يجدها عاريةً في سريره! رغم علمه أن مفتاح شقته في حوزتها، منذ أن بدأت تتردّد عليه هي ومدرّستها، ليرسموا معاً سينوغرافيا العرض القادم. وعلمه أنهما تأتيان غالباً بمفردهما وتبدآن العمل ريثما يصل. رغم هذا، لم يخطر له أن تكون خطيبته في بيته. وهو إنّما مرّ به ليجلب رقم صديق له يساعده في البحث عنها. لما دخل غرفته لم يفهم مغزى ما يجري ولِمَ سريره يهتز ويئز كما لو أنّ هزة

أرضية ضربت المكان! لكن لا هزّة في المكان. سرير الموبيليا العريض وحده يصطك وامرأة طويلة نحيلة ممدّدة فيه ومغطاة من رأسها حتى قدميها بالملاءة البيضاء ترتعش!

اقترب وَجلاً من السرير وكشف الغطاء عن رأس المرأة ليصطدم بالمشهد! المشهد الذي طال حلمه به! قَدره حين يراها عارية لأوّل مرّة أن تكون على هذا المدى من الذعر! وحين يأخذها في حضنه إنما يفعل لتكفّ عن هذه الرّعشة التي تشبه أدوار الصرع! وهو، ما إن خرج من صدمة الدهشة إلى صدمة التصديق، حتى بدأت تحكي له عن مأساة وقعت. فيفهم منها ما لا يمكن فهمه:

هناك جريمة قتل

وسكين حاد طويل

وهناك قاتل وضحيّة

وهناك صُوَرٌ ورسومٌ رسمها فنان

وهي نفسها، ريما، كانت هناك.

وجميعهم معنيّون بالحادثة.

ـ من قتل من؟

وجلست ريما في وسط السرير. وبدت حركاتها، وهي تسرد وقائع ما جرى، بهلوانية أكثر من أي وقت مضى. وذراعاها أشدّ طولاً ورقبتها أكثر نحولاً وعيناها أكثر اتساعاً وبريقا. وتلطم وجهها وتنتحب بصوتها النّاحل. وتذنّب نفسها. فالقتيلة أختها لكن المسؤولية مسؤوليتها هي. لولا أنها أخرجت السكين من مخبئه القديم يوم قطعت الصورة لما حدث ما حدث. السكين الذي حين دخلت كان رأسه الرهيب مصوّباً إلى عنق أختها..

ـ والقاتل؟

ـ خطيبها

ـ الفنان؟

ـ لا خطيب أختها

ـ وهل كانت أختها مخطوبة؟

ـ تقريباً، فالحكاية معقدة ومن الصعب عليها الآن تلخيصها.

وبما أن طفيف الفروقات في لغة الإشارة غيرها في اللغة المحكية، فهم الشاب أن دالية قُتِلت بالفعل وأن ريما حين دخلت رأت كلّ شيء وأن الدرك جاءوا على صراخها وأخذوا الجميع إلى المخفر.

ـ لكن كيف يأخذون قتيلة إلى المخفر؟

لا تدري.

لكنّها بعد ذلك وجدت نفسها تهرب. بلا تخطيط ولا اتجاه. وصارت تعدو في الشوارع إلى أن وجدت نفسها أمام بيته فدخلت. وكان الحر قاتلاً فخلعت ثيابها. لهيب النار كلّه كان يصعد من حلقها!

وتفتح فمها على وسعه: من هنا يخرج اللهيب كما يخرج من جلدها. هكذا اضطرت أن تأخذ دشاً بارداً. لكن الماء، رغم برودته لم يفعل بلهيب النار شيئا.

وتتشبث به وتتوسل إليه أن يمسك بها جيداً. أن يثبّتها في السرير حتى لو اضطر إلى ربطها به، إذ تخشى أن تطير من الحر وتقفز من الشباك. وهي لو قفزت من الطابق الخامس فستموت حتماً، لذا ترجوه أن يحضر ما يمكّنه من ربطها؛ حبلاً أو شيئاً من هذا القبيل. وإلاّ فليأتِ بربطات العنق، ويعقدها الواحدة إلى الأخرى ويقمّطها بالسرير.

تقول هذا بالإشارات والأصوات لتأخذها الحالة من جديد وتتخشب ويُسقط بيد الشاب فيلفّها بالملاءة ويحملها إلى المستشفى.

حين قالت ريما تزوجت، فهمت دالية كلامها على أنه مجاز تعني به قبولاً للمستقبل قيل بزمن الماضي.

لكنها بدأت تشكّ بمغزى العبارة حين أضافت ريما:

ـ تزوّجنا ونمنا معاً في السرير

ـ نمتما معاً في السرير؟

ـ أيوه نمنا يوم الحادثة

ـ صحيح؟

ـ أيوه صحيح. وكان الطقس حاراً جداً

ـ طبيعي..

ـ جداً جداً حار. حرّ لم أشهده يوماً في حياتي..حتى أني كدت أطير

ـ ياه..

ـ ولولا أنه أمسكني هكذا بكل ذراعيه لطرت فعلاً من الشباك

ـ ياه..لهذه الدرجة؟

ـ وأكثر. كنت رغم هذا أرتعش. حتى أنّي توسلت إليه أن يربطني إلى السرير لتتوقف الرعشة. لكنها لم تتوقف. مما اضطره لأخذي إلى المستشفى. لفّني بالملاءة وحملني وركض بي.

ـ لفّك بالملاءة؟

ـ أيوه. . لفّني بها بدل أن يلبسني ثيابي

ـ وهل كنتِ بلا ثياب؟

ـ أيوه. خلعتها من شدة الحر لآخذ حماماً بارداً

ـ آه. . فهمت

ـ لكن الماء رغم برودته لم يفعل شيئاً

ـ آه. . فهمت

وتردّدت دالية قبل أن تصوغ سؤالها:

ـ وهل أنتِ. . يعني ممكن أن تكوني مثلا. . وإشارة من كفّها حول بطنها تقول، «حامل»؟

وبدا الاستنكار على وجه ريما وهي تنفي تماماً حدوث شيء مثل هذا. وتنهدت دالية بالراحة فيما قطعت عليها ريما إحساسها بالراحة قائلة:

ـ منذ أن طلبني للزواج اشترطت عليه عدم الانجاب. لن آتي إلى هذا العالم بمن سيزوره يوماً ملاك الموت.

والدها، قبيل الزواج سألها إن كانت ترغب في أن يقيموا لها عرساً فشردت قليلاً ودمعت عيناها وهزّت رأسها بالنفي.

كان يتمنى لو ترضى كما يتمنى ذلك الآخرون. لتلبس الفستان الذي أحضره مسيو فاهي من فرنسا. يُقال ما رأى أجمل منه، هو الذي خرجت من أنامله فساتين أرقى العرائس.

حكى أنه لف بوتيكات لندن وروما ثم باريس حيث وجد ضالته لدى مصمّم معروف لدى الخاصة. تدخل بموعد وتستقبلك المصمّمة وتشرح لها مبتغاك. فتأتيك بعارضات يعرضن أمامك الفساتين مرّات مرّات. يدخلن من باب ويخرجن من باب.

وهو، من هؤلاء، اختار أكثرهن شبهاً بريما ومن الأثواب أجملها.

كانوا يتمنون أن تلبسه. وأن تضع على رأسها التاج، الذي لا تميّز أحجاره من الياقوت والماس. وأن ترمي الطرحة الخفيفة على وجهها.

ويتمنّون ما لا يجرؤون على البوح به: أن تسير بينهم مروْبصة وتلقي عليهم الشعر وترقص كما فعلت ذاك اليوم، لتفتنهم بالهلع الساحر وتقترب من الشرفة فتخفق قلوبهم بالخوف اللذيذ وهم يرونها تطير عن حافة الدرابزين وذيل طرحتها الطويل، يخشخش في طيرانها، خشخشة طائرة من ورق. ويحملها الهواء على غيمة بيضاء يحلّق بها بعيداً عن الشرفات

والبيوت.. بعيداً عن أرض المدينة.. عابراً وإياها الغلاف الأزرق إلى الغلاف الفضي، ليستقر بها هناك، غيمةً بيضاء في النهار وكوكباً برّاقاً في الليل.

ويوم الزواج لم يجرؤ أحد على أن يطلب منها شيئاً من هذا.

وحين خرجت من غرفتها، بفستانها الأبيض الحريري المنسدل حتى قدميها، استغرب الحاضرون من أين أتت به، فالزواج تقرّر على عجل! وتساءلوا مِن أين جاءت بالشال الموشّى الذي رمته على شعرها!

ولما عبرت المسافة بين غرفتها والصالات الواسعة، تنضح حياءً بماكياجها البسيط، ملأت المكان بحضورها الرهيف. كانت منكّسة رأسها قليلاً إلى الأرض، فقام خطيبها إليها وأمسكها بذراعها وقدّم لها باقة الزّهر وأجلسها على الكنبة في صدر الصالة وجلس هو بجانبها.

وجلس الآخرون: عائلة الشاب وأبوها وعمّها الذي اصطحب معه شاهدين على عقد الزواج. الرجال في ناحية والنساء في ناحية أخرى كما في التقاليد المعروفة ساعة عقد القران. ثم لّما وجدوا أنّ عددهم أصغر من أن يحتمل مثل هذا التفرقة، عادوا والتفوا جميعاً حول العروس.

وأُعلن عن قدوم الشيخ.

إذّاك، نهضت ريما واستأذنت. وتوجّس الحاضرون إذ رأوها تدخل غرفة أمها وتغيب. وبعد قليل تناهى إليهم أنها تقول شيئاً وتبكي.

وخطر لخطيبها أن يتبعها لكنّه تريّث. ثم لما فقد صبره لحق بها ليراها في ذاك المشهد الذي سيظل ردحاً طويلاً من حياته يتراءى له: كانت راكعة قبالة صورة أمها تتحادث معها. توشوش وتصغي، كلاماً وصمتاً يقطعهما البكاء.

ظلّ واقفاً في باب الغرفة لا يجرؤ على الاقتراب لئلاً يقطع عليها

حوارها الحميم. وإذ خشي أن تستغرق في الحزن، دنا منها وأنهضها عن الأرض وأعادها إلى الصالة.

كانت تلك أول مرّة ينتظر فيها الشيخ العروس.

وخافت منصورة أن يحتج الشيخ على سفور ريما فأتت بالغطاء الحريري الأبيض الذي يُلقي على العروس في مثل هذه الساعة، وأسدلته عليها، فنزل على كامل كيانها، لتبدو أشبه بمخلوقة أثيرية يعوزك تصديق وجودها معك في ذات المكان.

وقرأ الشيخ الآيات ثم ألقى عليها ذاك السؤال التقليدي إن كانت راضية بالزواج من خطيبها فلان ابن فلان فلتقل نعم. وهزّت على الفور رأسها بالإيجاب. لم تكن تعرف أن الفتاة ساعة العقد تتدلّل. وأن على الشيخ أن يكرّر سؤاله عليها ثلاث مرّات، بصوتٍ جهوريّ ليسمعه الحاضرون قبل أن تجيب هي في المرّة الأخيرة بكلمة نعم.

قالت نعم من أوّل مرّة كما في كلّ مرة. تفعل هذا بخشوع مصلٍّ في معبد. وهي فيه منصاعة لأمر إلهي. وفي انصياعها تبكي بكاء خبيئا. ولما أصرّ الشيخ على أن تنطق العروس بقبولها كلاماً واضحاً إن كانت غير خرساء، عندئذ أجابت ريما بصوتها الطفولي:

ـ نعم.

منصورة، في لحظة الوداع، ورغم الجهد الفظيع الذي بذلته، انهارت تبكي. وراحت إلى دالية تستند إلى كتفها. تبكي فيما تؤكد لريما، على أنها حال عودتها من رحلة شهر العسل، ستذهب إليها ولن تفارقها أبداً بعد ذلك.

والأب لم يكن ينتحب بل حافظ على ابتسامته، فيما دموعه تنهمر. لا يطلب العون لنفسه بل يخفّف عن منصوره. وإذ بدا للأستاذة ضعيفاً هزيلاً اقتربت منه وأسندته كي لا يقع.

الكلّ في تلك اللحظة كان يفعل شيئاً ليملأ الفراغ الوشيك.

ولما انتهى الوداع خرجت ريما مع زوجها وركبا السيارة باتجاه المطار.

كان الوقت ليلاً ورفعت ريما بصرها إلى القبة وطالعتها النجوم. وفكّرت أن الكواكب نوافذ من نور، نشرها الإله في صدر السماء لتستقبل رسائل أهل الأرض حين يفيض بهم الشوق لأحبائهم في أرض الجنة.

١١

اری كلّ الصّوَر في صُورِكِ وَ اراكِ في كلِّ الصُور

بعد وداع ريما، راحت دالية إلى سريرها.

نهنهة بكاء منصورة تصلها من غرفة أختها كما تصلها تنهدات والدها من غرفته. وهي أيضاً كانت راغبة بالبكاء، لكن ثمّة عزاء رغم الحزن.. أن تستقبل أيامها الجديدة بلا صخب.

وثمة راحة وإحساس بالحرية يُشعرانها بأنها خفيفة مثل طائر. مثل أصغر عصفور في الدنيا. ومثله قادرة على التحليق.

وغمرت نفسها بالغطاء تعانق إحساسها الجديد بالحرية وتحلم بالرحلة الطويلة التي، منذ زمن، تعد نفسها بها. تودّ لو تزور أصدقاء لها في باريس وروما، وتزور أسبانيا التي رغم كثرة أسفارها، لم تزرها بعد. وريثما يتحقق الحلم، تشعر بالحاجة إلى ما يروّح عن النفس..

وفي بحثها عن البديل تذكرت أصدقاءها «المشّائين.» مجموعة رجال ونساء قرّروا، والحرب تستعر، استنهاض قوى الرّوح والجسد عبر السير في الطبيعة. ولطالما دعوْنها لمرافقتهم، وهي، لكثرة انشغالاتها، لم تلبِّ الدعوة. آن الأوان لكي تفعل. فهي أيضاً بحاجة لأن تَنهض لديها قوى الروح والجسد. وجميل أن ترافقهم الأحد المقبل إلى أرز الباروك. إنما يلزمها حذاء مريح للمشي، مثل الذي اشترته في رحلتها الأخيرة إلى باريس ولبسته مرّة واحدة ثم اختفى بعد ذلك لا تذكر أين!

تقودك أحلامك حيث لا جدوى من البحث عنه في اليقظة!

ويقودك حذاؤك إلى الباب الذي لا يخطر لوعيك.. هكذا، في تلك الليلة قادها البحث عن حذاء نَسِيَتْه إلى مفترق حياتها الجديد وإلى عالم المشاعر المتهوّرة الذي ظنّت نفسها قد شفت منه!

كانت، تفتش في ذاكرتها عن آثار الحذاء، حين أخذتها الإغفاءة بعيداً إلى سابع طبقة من طبقات الأحلام الجوانية.. راحت إلى أمها تواسيها على فراق ريما. لكن، ما أن وطأت العتبة حتى طالعها ذاك المشهد الغريب.. وأمها فيه جالسة على حافة السرير والغرفة مظلمة. عجباً فالغرفة ليست غرفة أمها بل حجرة الأطباء في المستشفى. والسرير ليس سريرها الموبيليا العريض، بل ذاك المعدنيّ الضيّق..وهتفت: بسم اللّه الرحمن الرّحيم يا ماما..ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

ولا مبالية باستغرابها، أشارت لها أمها، وسبابتها على فمها، بأن تسكت. فيما، بيدها الأخرى كانت تشير إلى الحذاء الضائع، ملقىً في زاوية الغرفة قرب صندوق الكرتون. حذاؤها ذاته تراءى لها متروكاً ومفكوك الرباط. وهي لرؤيته تساءلت:

ـ غريب! ماذا الذي جاء بحذاء فان غوخ إلى هنا؟

وأمها أجابتها ذاك الجواب المحيّر:

ـ ذاكرة اللّيل تملأ ثقوب الوعي!

نعم تملؤها!

إذ كان قد غاب عن بالها تماماً، أنّها، في تلك الفترة العصيبة من حياتها، والاستعدادات لعرس ريما على قدم وساق، والبيت ضاق بساكنيه، امتثلت هي لقرار أمها واستغنت عن قسم من خزانتها. فنقلت بعض أغراضها إلى هذه الغرفة من الطابق السفلي في المستشفى التي خصصتها الإدارة لبعض الأطباء. غرفتهم التي يمضون فيها أوقات الراحة، استعداداً لمتابعة العمل.

كانت دالية تحب هذه الغرفة. ونجحت في أن تستأنسها وتحوّلها من مكان بارد يشبه منامة التلامذة في الأقسام الداخلية، إلى مكان أليف، تقيم فيه سهراتها مع أصدقاء الشلّة. وفي أتون المعارك، تركن وإيّاهم إليها، ملاذاً تحت الأرض، يشتهي أيّ مستهدَفٍ أن يلوذ به، فكيف لو وجد فيه وَليفه وأمانه وأسباب كيفه؟

نعم، تحب هذا المكان، وهي إن فارقته، فإنّما فارقته على مضض. كان ذلك حين تدهور الوضع الأمني وتراجعت الإدارة عن قرارها طالبةً من الأطباء إخلاء الغرفة بغية أن تُخصص لدواعي الطوارئ. وأعطتهم بدلاً منها جناحاً كبيراً في الطابق الثالث. هذا الجناح الذي لم تمل دالية له. ثم أعقَب ذلك فترة اضطراب. وتفاقمت أحداث حياتها الشخصية وانفرط عقد الشلّة وانقطعت علاقتها بالمستشفى. وما علمت أن الإدارة كلّفت آنذاك أحداً بنقل أغراضها إلى الجناح الجديد. .فالحقبة بأسرها بما فيها الحذاء وصندوق الكرتون غارت في طيّ النسيان. .

في خضم همومها غاب عنها كلّ هذا!

لكن الأحلام تقف لك بالمرصاد لترفع الغلالة عن أمورك المنسيّة. تنير غامض ذهنك أو تفك قيوداً ضربتها حول نفسك. أو تفعل أكثر من ذلك. .فتشير لك بأن هذا هو دربك. الدّرب الذي لحينه، كان غفلاً من تصوّراتك. تماماً كما تدخّلت هذه المرّة لتقود دالية إلى مفترق حياتها الجديد عبر إشارة من أمّها لحذاء فان غوخ. .

دالية، ما إن صحت في اليوم التالي حتى راحت إلى المستشفى لتستعيد الحذاء. ونزلت إلى الدور السفلي إنما لتكتشف أنّ الغرفة مقفلة.

أين تكون قد وضعت المفتاح؟

لا بدّ في الرزمة الكبيرة التي، بعد أمها، آلت مسؤوليتها إلى منصورة.

ذهبت إلى البيت وأخذت الرّزمة من منصورة وعادت بها إلى المستشفى

وراحت تجرّب المفاتيح. المفتاح تلو الآخر. أعادت الكرة مرّات، لتشابه المفاتيح والتباس الأمر حول أيّ منها جرّبته وأيّها لم تجرّبه بعد.. وإذا بالرتاج بعد قليل يمتثل. ويبدأ المفتاح يدور في الثقب مكملاً دورتين اثنتين ومتوقفاً عند الثالثة، مبشّراً بأن القفل قد فُتح!

وخفق قلبها. لا تدري ما الذي جعلها لهذا الحدّ تنفعل! ثمّ دفعت الباب بعزم وصوّبت نظرها مباشرة إلى المكان الذي كانت أمها في المنام جالسةً فيه، إنما لتفاجأ بتلك المفاجأة العظيمة! فَترى مَن لا يخطر لها رؤيته:

شاباً وسيماً يتأهب للوقوف من عن حافة السرير، وَعيناه المضطربتان مصوّبتان نحوها. عيناه اللّتان لا يمكنها أن تخطئ صاحبهما!

إنّه المخطوف!

المخطوف ذاته الذي نشرت الصحافة صوره!

ذاته الجريح الذي أجرت له العملية وألقى عليها نظرة الرجاء الأخير..

ذاته صاحب الصورة التي أحضرتها الممرضة منذ شهور، وقالت إنه وسيم وأشبه بأنثى. الصورة التي احتفظت هي بها في درج مكتبها في العيادة، لا تدري لماذا.. ولِمَ بين الحين والآخر كانت تخرجها وَتتفرّج عليها.

نعم هو نفسه.

وردّة فعل الشاب تؤكّد ظنّها.

لحظة فُتح الباب هبّ من مكانه مذهولاً. وأيّ ذهول! الذهول الذي سمّره في مكانه وسمّرها هي في المدخل قبل أن تهبّ لديها ردّة الفعل المنقذة من الورطات، فتتراجع خارج الغرفة، وتتوارى عن نظر السجين. بل وتتوارى عن حيّز المستشفى بأسره..

تتوارى . .

وإن كانت في تلك اللحظة قد أيقنت من لا جدوى فرارها، ومن أنّ هذا الشاب، سيكون له الشأن العظيم في الحقبة التالية من حياتها! ليعيدها إلى الحب الجامح! فالأخطبوط، الذي لا تنفع معه مقاومة أو ترجيح، قد أمسك ثانيةً بروحها وبمسار حياتها المقبلة. لتمضي لياليها مسهّدة ومأخوذة بما جرى. وبرؤية الشاب يهبّ واقفاً وعيناه مفضوحتان بالذهول. تبرقان في عتمة الغرفة، ذاك البريق الغريب الذي لا يمكن للخوف وحده تفسيره!

تقاوم نوازعها لتنتصر سريعاً على المقاومة وتجنح جنوحها الأخير فتضرب بعرض الحائط كلّ المخاوف. وتقوم بزيارتها الأولى له.

الوقت بعد منتصف الليل. سكان الغرف نيام. المرضى منهم والممرّضون. الصمت مطبق على أروقة المستشفى. وإذ رأت الممرّ خالياً، تسلّلت إلى الطابق السفلي وأسرعت الخطى نحو الغرفة. فتحت الباب بخفّةِ ساحر. وبالخفّة ذاتها انسلّت إلى الداخل لتغلقه وراءها.

الظلام مطبق على الغرفة، شبه كلّي. ليس سوى خيطين من نور كهربائي يتسرّبان من الفتحة العليا للنافذة ويضربان السقف فيما الحيّز السفلي من الغرفة يغرق في ظلامٍ كثيف.

وهمست:

ـ هذا أنا، لا تخف.

وهو بدوره همس:

ـ عرفت

ومدّت ذراعيها لتستهدي إليه.

وقام هو عن سريره ومشى إليها، باسطاً كفّيه لليد الرحيمة التي أنقذته من الموت. وهكذا في دامس العتمة سار كلّ منهما نحو الآخر. حاملَيْن في أذرعهما اللهفة والخوف. يدوران في ظلام الزنزانة.

وَالأكف تخطئ الأكفّ.

والخطى تخطئ الخطى.

كلّما اقترب أحدهما من الآخر ابتعد. وصدى آلاف الأميال من الجوى يحتدم. والأكف والآذان تتابع بحثها في هذا التيه، حاملةً شوقها العظيم للّمس والهمس.

بقيا هكذا زمناً يتلمّسان دربهما في دائرة الفراغ. وبادرها همساً بالسؤال:

ـ هل أنتِ منهم؟

وأجابت:

لا، لستُ منهم.

ـ كنتُ أكيداً من ذلك

ـ وما الذي أكّد لك؟

ـ الإشارات

ـ إيّ إشارات

ـ تلك التي لا سبيل إلى إخفائها. منذ أن أفقت من المخدّر وأنا أنتظر مجيئكِ..

ـ وها أنا أخيراً جئت..

ـ ومتى تصلين؟

ـ بعد لحظات. مدّ يديك إليّ..

كلاهما تابع بحثه

يقوده ضوء العيون وهمس الأنفاس

كلّ خطوة تبدّد آلاف الأميال من الغربة

تشعل ملايين الومضات من الشوق

ولّما لامست الأكفّ الأكفّ عانقها وعانقته.

والقبلات بينهما لم تكن لهفة للعشق فحسب، بل لهفة للحياة. لهفة البدن للرّوح. لهفة أمّ كفيفة عثرت على رضيع فقدته.

والعناق أكّد له معالم هَواها بالنّظرة الأولى وهو مصاب. وأكدت لها مثيلها.

وسارا.

ولّما اهتديا إلى السرير جلسا. يحتضن كلاهما الآخر، ذاك الاحتضان الذي لا مثيل له سوى في المنام. ذاك الأشبه بالالتحام الأوّل الذي مثيله خلّد جنس البشر.

وصارت تتردّد عليه.

تأتيه في نهاية الأسبوع عند انتصاف الليل وتغادره قبيل مشارف الفجر. تُحضر له لذيذ الطعام والشراب. وتضيء البطارية، التي في تلك

اللقاءات الكفيفة، صارت تبدّد شيئاً من دامس العتمة.

وضوْءها الخافت يلقي عليهما من النّور قدر ما يلقي من ظلال. وينعكس رسماهما على الجدار: ظلاّن أبديان لعاشقيْن من زمن سحيق، حُكم عليهما بالحظر والكتمان. شهريار سجين يلتمس الرجاء في شهرزاد حرّة. دخلت عليه ذات مساء وكان جريحاً نازفاً ممدّداً على الطاولة. وَلما ألقت عليه تلك النظرة.. وتأكد له أنها جاءت لإنقاذه، استسلم بين راحتيها للنّوم وللمبضع الرحيم. استسلم وأمنيته أن يفتح عينيه على رؤية وجهها العطوف.

لكنّه حين أفاق لم يجدها.

وإذا بعد يأس، ترسلها الأقدار ثانية إليه!

هكذا في أوانه يأتيك ما تشتهيه. على غير توقّع وحيث لم يخطر لك البحث عنه. قوى غامضة تسوقك إلى مبتغاك. مثل قواها التي أخذتها إلى مَن سيعيدها للحظيرة التي طال ابتعادها عنها. هناك حيث المشاعر هي صاحبة السلطان: ما خيّل إليها زمناً أنه شِفاء أو حرّية، كان كبوةً ليس إلاّ. لكن المهور الأصيلة، وإن طال رقادها تنهض. ويضرب صهيلها في الآفاق. كما نهضت مشاعرها لتضرب بعرض الحائط كل خوف وترمي بنفسها في دائرة الخطر:

عند منتصف ليل كلّ سبت، وبعد «تنظيف» الغرفة، ذاك الإجراء الذي واظب عليه المسلّحون، تتسلّل هي إلى زنزانة محبوبها بثياب الطبيبة البيضاء. ولا تخرج منها قبل فجر الاثنين. مهنتها، في دائرة الخطر، مظلّتها. وإن كانت فرائصها في كلّ مرّة ترتعد. وإن كانت لحظة الخروج تقسم على وضع حدّ لهذه المغامرة القاتلة. لتجد نفسها عند نهاية الأسبوع عائدةً إليه، قاهرةً صوت الوعي. لا فائدة لرسائل المنطق وجحافل الشوق تغزو روحك.. لا فائدة وأمواج الرّغبات تكدّ كيانك. فهي، ما إن تقسم

على أن هذه المرّة هي الخاتمة وأنّ هذا الوداع هو الأخير. .حتى تبدأ تكابد الشوق. لو أمكنك إيقاف هشيم النار لأمكنها هي إيقاف اللعبة. ما إن تدخل الزنزانة حتى تنسى مخاوفها. لا بدّ أن تنسى المخاوف حين يشتبك الجسد بالجسد وتمسك الرّوح بالروح وتُلغى الفواصل ويضحي محبوبها نقطة جذب الكون.

تنسى. .لولا أن تناهى لها يوماً وقع أقدام تقترب ومفتاح يصرّ في ثقب الباب. ووجدت نفسها تهب بالغريزة إلى الحمّام لتختبئ، مثلما كانت تفعل أيام القصف. هرعت إلى الحمام فيما المسلّح الذي «ينظّف» الغرفة فتح الباب. .وتأكد لها وقوع الكارثة. .لزمت مخبأها فيما تسمّر محبوبها بخوفه على حافة السرير. الخوف أن يقتحم المسلّح الحمام. .أو أن يدلف إليه ببساطة لقضاء حاجته. .أو الخوف من أن يتناهى لمسمعه لهاث امرأة خلف الباب مذعورة! لكن المسلح، بعد أن أجال بصره في الغرفة، ابتسم للأسير تلك الابتسامة المطمئِنة وسأله إن كان يرغب بشيء ثمّ انصرف!

ومذّاك، صار الحمام مكانها الأثير. ملاذها التلقائي الذي تهرع إليه إذا ما دقّ ناقوس الخطر. تحتمي به مع محبوبها في لحظات الشغف والفزع. يستحمان معاً تحت الدّش ويغفوان متعانقين في المغطس. هذه الغرفة التي شهدت أنسها في الزمن الصعب والمتفجرات، تشهد الآن فصول عشقها الجديد. عشق مرهون بالخطر والتوحد والانفصال عن العالم.

ومحبوبها من ناحيته بات لا يبالي بالخطر. إذ تحوّلت زنزانته في خلده إلى فردوس أليف. لا يبالي، وإن أضحى لشدة خوفه عليها، تراوده هو أيضاً فكرة إيقاف اللعبة. إذ يشق عليه أن يراها، في لحظات الذعر، مخطوفة الأنفاس صفراء اللون هلعة. هي الجسورة التي وقفت على طاولة الجراحة وقفة أستاذ واقتحمت بعد ذلك المشقات. . ترتعد! يعزّ عليه أن يتخيّلها، في انكشاف أمرها، وقد صارت هدفاً لعبث المسلحين. فيرجوها ألاّ تعود إليه. أن ترحل عنه إلى غير رجعة وتترك أمره لتصرّف القدر. .

غير أنّه، وفي ذات الوقت يستعطفها أمراً آخر: أن يولدها قبل ذهابها طفلاً يجنّبه الإحساس المقيت بالفناء. يدوّن له في حياتها أثراً لا يمحى.

نعم، فلتحمل منه في أحشائها الثمرة العظيمة تلك التي من شأنها تخليد حبّهما في سلالة البشر.

يرجوها ذلك قبل أن ترحل.

وتعده هي بالرّحيل. إنّما لتخلّ سريعاً بوعدها ويخلّ هو برجائه. إثر كلّ زيارة، وما إن تغادره، حتى يبدأ يعدّ الأيام الباقية لعودتها. وينتظر ما تحضره له في كلّ مرّة: صحيفة وزهرة وأوراقاً ليكتب.

وينتظرها ليصغي لها ويحكي.

حكى لها كيف ألقوا القبض عليه. كيف أوقفوا سيارة الأجرة التي كان يركبها، عند زاوية الشارع الخالي، مساءً بعد القصف. وكيف صوّبوا المسدس إلى صدغه. لكنّ السائق كان أسرع.. لا يدري ما الذي جعل السائق يتصرّف على هذا النّحو.. فينطلق مثل مجنون. والمسلّحون يلحقون به ويمطرون السيارة بالرّصاص. هكذا أُصيب، فيما السائق يتابع فراره الهستيريّ. ثمّ، وفي إحدى دورات المطاردة انحرف السائق في شارع فرعيّ وأنزله على حافة الرّصيف وطار من جديد. فتأكد له إذّاك دنوّ أَجَله. هنا على قارعة هذا الدّرب الموحش، سيخترق الرصاص جسده.. ووحيداً جريحاً نازفاً سيلفظ أنفاسه..

إنّما، ولعجبه، لم يحدث شيء من هذا. لم يمطروه ثانية بالرّصاص. بل جاءوا إليه وحملوه. وحرصهم على روحه يضاهي حرصه هو عليها. حملوه، كما لو أنّهم رفاق له. وأتوا به إلى المستشفى..

وأخبرها أنه بعيد ذلك، في الفترة الأولى من نقاهته، عذبوه ليعترف.

ثمّ. لما تبيّن لهم غرابة كلامه، اطمأنوا إلى أنه مجنون فكفّوا عن تعذيبه. وصاروا يعطونه عقاقير تهدّئ آلامه وهلوسات روحه. وثابروا على تزويده بها. وهو من ناحيته بات ممتناً لعقاقيرهم كما لجنونه.

جنونه خلاصه.

«مجنون بالطبع!»

وإلاّ لما جاء إلى هذه البقعة الملعونة من العالم. بقعة لا يأتيها سوى اثنين: مُغرِضٌ أو صاحب لوثة. أما أن يتبع طبيبٌ شاب أهواء روحه المشتاقة لإغاثة معذّبي الأرض والحرب. ففي ذلك قرينة على لوثته. اللوثة التي تأكدت لهم حين سمعوه يهذي بامرأة ساحرة العينين رحيمة اليدين دخلت عليه وأودعت قلبه رسالة الرجاء. وحسماً لأيّ التباس حول رجاحة عقله أو جنونه، أتى زعيمهم ليتبين بنفسه وسأله:

ـ من أنت؟

ـ أنا المخطوف

ـ خطفك المسلّحون؟

ـ لا، بل خطفني الحب. ولحاظ امرأة، غدت رفيقةً سابقةً على دربي. تسير وألحق بها. في رحلات خلاّبة تومض فيها الوعود وتُلغى الحدود وتتلاشى الحواجز، فأُحلّق خارج الزنزانة تحليق نسر جامح. السجن يحرمك حرية الحركة لكن ما من قوّة في الدنيا تكبح خيالك العاشق. فنقّله حيث شئت. نقّله فأنت خفيف كطائر الدّوري. حرّ كطفل رضيع.

نقّله نعم..

هكذا لم تبقَ مدينة، عرفها أو لم يعرفها، إلاّ وراح يطوف بها. يَلِج متاحفها ومعابدها فتطالعه صُوَر هذه المرأة على كلّ الجدران، بل ويطالعه ما هو أعجب من ذلك!

ـ وما هو الأعجب من ذلك؟ سأل المحقق

ـ أينما أذهب.. كنت أرى الصّور في صورها وأراها في كلّ الصّوَر..

أوقف الرجل التحقيق معه. وطمأنه إلى أنهم لن يقتلوه. وصار هو وزملاؤه يأتون إليه في المساء. يتسامرون معه. ويسألونه أن يحكي لهم عن بلدانٍ مرّ بها. وعن نساءٍ عرفهنّ. وعن تلك المرأة التي له معها شأن عجيب..

وصاروا بعد ذلك يغدقون عليه الشراب والطعام والكحول والعقاقير وأسباب الكيف. ويسألونه إن كانت نفسه تشتهي شيئاً آخر. ومرّة، لكثرة ما ألحوا عليه.. ورآهم على هذا المدى من التعاطف، تجرّأ وَسألهم أن يطلقوا سراحه ليذهب في سبيله حرّاً باحثاً عن امرأة حياته. يفنى بها وتفنى به ذاك الفناء اللذيذ. إذّاك جلجل فضاء الغرفة بالضحك.

ضحكوا كثيراً للفكرة. ثم بادر أحدهم، وكان أكثرهم لطفاً، وشرح له القصد. القصد كلّه.. شرحه بتلك العبارة الغامضة، التي يضاهي فيها النذير الوعد، والشؤم الطمأنينة. أخبره أنه باقٍ هنا إلى أن تيسّر الظروف حلّ المسألة: مبادلته بمخطوف آخر. أو إتمام الصفقة

ـ الصفقة؟

ـ نعم

ـ لمن؟

ـ لمن يهمّه الشراء. فمخطوفُ اليوم أغلى من كنوز ماس. مخطوف اليوم أغلى من كنوز قارون.

ـ ومتى تتم المبادلة؟

ـ ريثما يستقر الوضع ويعثرون على مشترٍ.

وماذا يغدو مصيره بعد ذلك؟ وماذا سيكون الحكم عليه؟

ـ لا أحد يعلم.. فمهمّة خاطفيه تقف عند حدود التسلّم والتسليم.

وهو، بعد تلك المصارحة، بات لا يعرف من أمر اختطافه شيئاً ولا من أمر خاطفيه. عفّوا عن التحقيق معه بلا عفو. هكذا بات سجيناً بلا النعمة العظيمة تلك، التي ابتدعها الإنسان رأفة بأخيه الإنسان: نعمة الحكم.

ذاك التدبير الرحيم، مهما بلغت قسوته.

الأفق الرّحب الذي، على امتداده، ينتظم الزمن ويسرح خيال السجين.

بعد تلك المصارحة بات لا يعرف شيئاً عن شيء..

وخاطفوه، إثر المقابلة الأخيرة تغيّروا. أو لعلّهم انشغلوا عنه بتدهور الوضع الأمني، فما عادوا يزورونه كما في السابق. ولا يسألونه عن نبيذه المفضّل ولا عن شهواته الأخرى والنساء.. فقط يرسلون من يفتح عليه الباب بين الحين والآخر ليرمي له ببعض الطعام والشراب أو يقوم بأعمال الرقابة والتنظيف.

حكى لها كلّ هذا.

وحكى أشياء أخرى..

وهي أيضاً حكت.

حكايات تبدّد شيئاً من خوفها وغربته. إذ يحلو لك أن تسترجع مع مَن تحب مسار حياتك السابقة على مجيئه! هكذا، أخذهما خيط الكلام. وصارا يستذكران فصولاً من حياتهما. وفصولاً من حياة آبائهما وأجدادهما وأسلاف هؤلاء. وحكايات حبّ..بعضها كانت خاتمته الهناء والآخر الهلاك. مثلما ما جرى لعمة أبيها، سارة، التي سجنوها في ذاك العصر إذ أحبّت رجلاً من غير دينها وهربت معه. ولما أعادوها زعموا للناس أنّها مجنونة، ثمّ آووها في أوّل مصح للمجنونات في لبنان. فعلوا هذا قبل أن تتدبر أمرها وتهرب ثانية فلا يعود أحد يعرف عنها شيئاً بعد ذلك..

عجباً، قال، عجباً لتشابه الحكايات! ما كان يجري هنا كان يجرى مثيله هناك.

في أزمنة واحدة وأخرى متباينة

في بلاد قريبة وأخرى بعيدة

في أقاصي الشرق وأصقاع الغرب

للمقيمين في أرض الّدنيا ذوي الأصول العريقة، كما للمرتحلين الذين لا أحد يتكهّن لهم بمنبت ولا هم يبحثون عن مرقد.

كما جرى لكبرى جداته سليلة ملوك الغجر. هؤلاء الذين ما فتئ عزفهم البديع يصدح في أرجاء العالم. وغناؤهم المجروح يحمل، إلى المقيمين في الأصقاع، صرخات العشق المستحيل والفراق البعيد والرحيل الوشيك. يحمل صهيل الأفراح والوصال. ونواح الآلهة القديمة فراق أحبّائها الأبدي. صرخات تنتشل النّاس من أنماط حياتهم البليدة، وتعيدهم إلى البهجة البدائية الأولى التي بالغوا في النأي عنها.

ملوك الغجر، ذاك الشعب الغرّير الشريد توارت ابنتهم، جدّته، هي أيضاً وما عاد أحد يعرف عنها شيئاً!

كانت قد دخلت المدينة ومليك الغجر يعزف لها ويغنّي من ذاك الغناء الذي يدغدغ نياط القلب. وهي ترقص وتتمايل بمفاتن جسدها التوّاق، رقصاً يخلخل أعمدة العقل. يهتزّ له قوام النفس. يعزف ويغنّي لزوجته الرّاقصة، ذات الشعر الأسود الليلكي المتماوج على انحناءات خصرها. وذات اللّون الخمريّ وَاللّحاظ التي جعلت رجال البلدة يخالون أن جنّية أرسلتها الأقدار لتمزّق ألبابهم. لتدكّ عروش هنائهم البليد أو لتُخرجهم عن صراط أديانهم..

وتأكّد لهم الظنّ حين أصاب أميرهم ما أصابه.. ذاك الانخطاف التي لا شفاء منه ولا رجاء. ذاك السحريّ الذي جعله ينصاع لفتنة الغجرية انصياعاً بلا شرط. وجعلها تنصاع بدورها إليه فتُسلم أمرها وتستقرّ.

وزوجها بعد يأس تركهما ورحل.

والأمير أفرد لها قصراً من قصوره. لا أحد يعرف كيف كانت تعيش الفاتنة خلف الأسوار. ورغم هذا.. ومنذ أن وفدت إليهم، لم يعد لأهل الإمارة من حديثٍ سوى الدّلال الذي بسطه أميرهم تحت قدمي هذه المرأة

الآتية من أقاصي الارتحال، وسوى العزّ الذي لم تعشه أيّ من الأميرات، بنات المنبت العريق.

قالوا نصّب لها الخدم والحشم والوصيفات.

قالوا، نساؤه الأخريات يحضّرن لها الحمّام وماؤه ممزوج بالعطر والبخور. ويدلّكن مفاتن جسدها بالأطايب والمرطبات الآتية من أقاصي القارات والأدغال.

قالوا أغدق عليها الهدايا والعطايا وما تشتهيه أيّ معشوقة من الحليّ والملبس والمجوهرات.

قالوا يخشى على مفاتنها أن يفتك بها الإنجاب والسهر على الأطفال. فكان، ما أن تلد، يطلب إلى إحدى زوجاته أن تستقبل الوليد وتكرّس نفسها أمّاً ثانية له.

هكذا ظلّت صاحبة الفتنة تمتّع الأمير بفتنتها. حتى اليوم الأخير، ذاك اليوم المشؤوم، يوم أفاق من نومه ولم يجدها. وراح يبحث عنها هو والحرس وأهل القصر..

بحثوا في غرف القصر وقاعاته. بحثوا في زواياه وخباياه. لم تبقَ زاوية لم يبحثوا فيها. ولا حارس، لم يستنبشوه ولا عابر سبيل لم يحققوا معه.

لكن ما من أحد رآها تتسلّل أو تعبر باب القصر إلى الخارج!

هكذا في شامخ جمالها ودلالها توارت بلا خبر ولا أثر.

قيل تبخرت. فهي من الجنّ والجنّ من النّار والنّار، بعد أن تحرق وتُبدّد، تتبدّد. هكذا تبدّدت فاتنة الجنّ بعد أن أكملت مأربها لتعود من حيث أتت إلى أصلها الجنّي.

وحكوا أنّ الأمير لم يطق هجرها ولا العيش من بعدها. فهام على وجهه فجر يوم في اقتفاء أثرها سالكاً الدّرب الذي لا عودة عنه.

وقال البعضُ من مرافقيه إنه التقاها والتقته واشترطت عليه أن يرافقها في ترحالها، عازفاً وهي راقصة فأذعن.

وقال آخرون، لم يعثر عليها وواصل بحثه غير يائس لكنّ رفاقه ليأسهم هجروه. وهو كما أمرئ القيس صار في تيهه ينوح:

«بكى صاحبي لّما رأى الدّرب دونه..»

والشطر الثاني من بيت القصيد يواسيه بتباشير المأساة:

«... لا تبكِ عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنُعذرا»

ثمّ مضى في التيه وحيداً ليقضي على قارعة درب. هكذا، في الدرب العكسي، تزول الإمارات وتبقى السلالات. مثل السلالة الجديدة، ثمرة نبلاء الحَضَر وملوك الغجر، التي ظلّت تتوالد جيلاً بعد جيل لتؤكد للناس غرابة الانتاج. إذ لا يفتأ يخرج لهم في كل حقبة من الحقبات مَن يذكّرهم بماضٍ نسوْه..

مَن يغلي في عروقه الدم التوّاق للانفلات.

مَن يودّع إخوته وأهله ويرحل..

مثلما فعل هو، إذ قرأ عن الحرب الضروس الدائرة في هذه البقعة الفريدة من العالم وقرّر المضيّ إليها. غير آبه بالنذير ولا بالتحذير. ولا إن كانت وجهته الهناء أو الرّجاء أو الدّرب اللانهائي أو ذاك المسدود. ففي حمى التيه لا يأبه المندفع بالنهايات ولا يستشعر نواقيس الخطر. هكذا يمّم وجهه شطر هذا البلد المنكوب مدفوعاً بالتخفيف عن أفئدة المعذّبين. وبالحدس أن محطته ستكون عند امرأة هي غايته وخلاصه.

لكن المحطّة تأخرت حتى كاد ييأس.

ثم انتعش رجاؤه حين دخلت عليه جريحاً نازفاً لا يبين منها في ثياب الجراحة سوى عينين خلاّبتين. وألقت عليه تلك النظرة التي تفيض أهدابها بوعود بلا حدود.. ثم توالت عليه النكبات حتى أيقن أنه هالك..

كان قد قرأ شيئاً عن ذاك الشاعر العربي الذي قضى نحبه في درب التيه باحثاً عن أُمنيةٍ كالسّراب. وتأكد له أنّه سيلاقي ذات المصير، لولا أَنْ دخلتْ عليه مخلّصتُه ثانية وأشرقت زنزانته بنورها الرحيم. وحدث بينهما ما حدث.. ودأبت بعد ذلك على زيارته. وهو بعد أن أدمن وجودها معه وبات كيانها شرطاً لحياته صار يستعطفها أن تصبح خليلته وزوجته وأمّ أولاده فَرَضيتْ. وصارا يبحثان عن مخرج ينجّيهما من هلاك محتمل. وريثما يعثران عليه، أقاما في الزنزانة مملكةً قوامها الشوق والبوح والأحلام. لا همّ إن كانت أحلامهما من ضروب المستحيل أم من رُؤى الخلاص.. لا همّ فمعبودته تأتيه في نهاية الأسبوع ليلاً وتغادره قبيل الفجر، ليمضي أيامه بعد ذلك متأملاً متعبّداً ممتنّا للأقدار التي أغدقت عليه عظيم هباتها.

فالنّفس التائهة عثرت على ضالتها.

والجسد ارتاح إلى مركزه.

والكيان، فاقد المحور، اهتدى.

وهو بعد نوائب الدّهر وَصل.

وأضحى مناه أن يلازمها. هذه التي يرى فيها أناث الأرض جميعاً. معبودة، عيناها قمران أسودان، تلبس له كل يوم زيّاً.

يوماً تأتيه بالقطن وآخر بالكتان أو الحرير. مرّة ترتدي له عباءة شرقية موشّاة وأخرى جلباباً أبيض خالصاً ينسدل على طيّات جسدها، رقيقاً رهيفاً تخاله لم يُقصّ بمقص ولم يُخط بإبرة.

اهتدى.. وما عاد صاحبه يشتهي سوى ملازمة جنّة النعيم هذه. أن يبقى سجيناً وهي سجّانته. معشوقة في صدرها أمومة العالم. تمسّد شعره وجلده كأنما هو وحيدها وهي أمّه. لا غرابة، فكلّ عاشق لمعشوقته أبٌ وكلّ عاشقة أمٌّ والعاشقون جميعاً أطفال، يكويهم الفطام ويؤيهم الوصال، وَيُهدهدهم الرّجع والرّجوع في أرجوحة الهناء ولذيذ الفناء.

هكذا في هناء رجوعه ما عاد يمقت سجنه ولا حادث اختطافه ولا عذاباته. كلّها أسباب للنتيجة المشتهاة التي منّ بها عليه الدّهر. كلّها امتحان لابن آدم في صبره وقوّة جَلَده ريثما يبلغ مناه.

ومن يخفق هيهات أن يصل!

هيهات!

وهو بعد كلّ المشقات وصل.

هكذا في كواليس المغامرة وقبل العثور على المخرج حدث ما حدث..

جاءت إليه في موعدها الأسبوعي، لتُفاجأ بتلك المفاجأة الرّهيبة.. فتراه خارجاً من الغرفة معصوب العينين، مربوط اليدين. يقوده مسلّحان وثالث وراءهما يصوّب رشاشاً إلى ظهره! واصطكت ركبتاها وتأكّد لها انكشاف أمرها.. وانتظرت أن يهجم عليها المسلّحون ويعصبوا عينيها ويقودوها معه إلى بئس المصير. وإذا بالمسلّح الثالث يميل نحوها ويهمس بالنصيحة. أن تتجنّب المضيّ في هذا المكان الذي صار غير آمنٍ بعد أن قبضوا فيه على «متسلّل.»

مخطوف خُطف ثانية من سجنه الآمن.

وبدأت تبحث عنه.

لم تبق زاوية في المستشفى لم تمرّ بها ولا مريض لم تقم بزيارته ولا حجة لم تبتكرها لتبرر تواجدها المتكرّر في الغرف. كلّ الغرف. لعلّ العين اللهفى تلمح. أو الأذن المشتاقة تسمع. أو الذّهن المتحفّز يتلقّف إشارة لوجهة أو خبر.

إلى أين أين ذهبوا به؟

أتراهم نقلوه إلى غرفة أخرى من مئات الغرف المصطفّة في طوابق هذا المستشفى الذي يعج بالمرضى والفوضى؟

أم تراهم تنبّهوا إلى مؤشر ما للهرب، فذهبوا به إلى أبعد ما يستطيعون؟

أو لعلّهم عثروا على العميل الذي سيدفع؟

أم أنّهم وببساطة يئسوا من مصيره فقرّروا تصفيته كما فعلوا بغيره من الأجانب وغير الأجانب.. في هذه الفترة التي كَثُرت فيها التصفيات.

تتساءل وتنقّب في الصحافة. آملةً في أن تقع على دليل أو تلميح. لكن لا شيء يشير إلى شيء: كأنّه ما كان..

أو كان.. وكانت هي الشاهدة الوحيدة على وجوده. كما في الأحلام وحدك فيها البطل والرّائي! الفاعل والشاهد. كما هي حالها الآن في منامها الطويل هذا، الذي بدأ برؤية أمها في الغرفة تشير لها إلى حذاء فان غوخ.. واستمر في لقاءاتها السرّية مع المخطوف.. ثم انتهى بذاك المشهد الكابوسي ومحبوبها سائر فيه إلى مصيره الأسود مكتوف اليدين معصوب العينين..

يلزمك شاهد على ما يقع لك لتتمتع أحداث حياتك بشرعية وجودها!

وتتنازعها الأفكار. ويخطر لها أن تبلّغ البوليس. أو تنشر ما شهدته في وسائل الإعلام. أو تعقد مؤتمراً صحافياً مدوّياً تحمّل فيه الحكومة مسؤلياتها. أو تفضح فيه المستشفى.. أو تسافر وتتصل بذوي الشاب وتنبئهم بما حصل..

كلّ فكرة تدمّر الأمل أكثر مما تبشر به..

وتتابع دورانها في المستشفى.

حتى أنهكها البحث وأمسك بروحها اليأس وأكل قلبها الندمُ والحسرة: إذا ما تلكّأتَ في البحث عن النجاة تلقفكَ الهلاك. وهي ما كان عليها أن تتلكّأ في أن تبتدع حيلة أو وسيلة.. آدميّة كانت أم جهنميّة.. لتنجو بنفسها وبمحبوبها من دائرة الخطر.

الخطر الذي يحيق بمحبوبها من جديد. في مكان تجهله. هناك حيث هو الآن يرقد في قبو مهجور، معصوب العينين مقيّد اليدين يحققون معه من جديد. أناس غير الذين اعتاد زياراتهم. يسألونه ثانية من أيّ بلد جاء ويسألونه عن أصله.

ـ أصله؟

ـ نعم أصله.

أصله كما سائر الخلق ضارب في الأعراق. متشعب في السلالات وأجداده، على حدّ علمه. . أربعة:

هندي أحمر

وقوقازي أشقر

وآسيوي أصفر

وزنجي أسود

وجَدّ خامس اكتشف مؤخراً وجوده، وهو عربي أسمر. .

معصوب العينين سمع أحدهم يضحك. والآخر ينهره ويأمره بأن يخرج عن جنونه المزعوم ويعترف. ويكشف سرّه وسرّ المرأة التي حدّثهم عن هيامه بها والتي كان يقابلها. .

وهو توجّس من السؤال وخفق قلبه والمسلّح يلحّ عليه لنيل الجواب. ويسأله عن سرّ سكوته وتنهّده. وهو لا يعرف بما يجيب. .ثم لا يدري كيف خطرت له الفكرة. . فقال إنّ محبوبته منذ دهر ما عادت تزوره. تلك التي كانت تعبر المشقات لتراه. .صارت الآن بعيدة عنه لا تحضره سوى في الرؤى. تتراءى له كطيف ملائكي في ذاك المشهد البهيّ. .وقد تمدّدت على الأرض لابسة ثياباً بيضاء تغطيها من الرأس حتى القدمين استعداداً للرّحيل. فنفسها ما عادت تروم البقاء في هذه الدّنيا البائسة بل باتت تنشد

الهناء معه في دنيا أخرى أجمل منها وأرحب. . وهو أيضاً صار ينشد الرّحيل وإياها. هناك حيث النعيم أبديّ. . حيث يحلّقان معاً في السماء تحليقاً. . .

وكاد يسترسل في الكلام لولا أن المسلح صفعه تلك الصفعة التي رنّت لها الجدران وأمره بالسكوت:

ـ أسكت، قال له!

هكذا في سحر رحلته السماوية على متن غيمة بيضاء برفقتها سكت.

وسمع الرجل الذي يقود المساومة، يقول.

ـ لا أحد يأبه اليوم بأمر مخبول. أرجعوه. .

ويأتيك الرّجاء من صلب يأسك!

يأتيك من ظلمات المستحيل

كان اليأس والإرهاق قد أخذاها بعيداً، حين أحست بيد زميلتها تهزّها لتصحو

ـ قومي. . قومي. .

ـ ماذا؟

ـ مخطوف جديد

ـ ماذا؟

ـ جاءوا به

ـ متى؟

ـ منذ لحظات

ـ من أخبرك؟

ـ لا أحد. . رأيته بعيني؟

ـ رأيته بعينك؟

ـ نعم.

ـ لعلّك تحلمين. .

ـ لا. كنتُ يقظة. أصابني أرق عند الفجر فنهضت أدخن سيجارة وراء الشباك. رأيت باب المدخل يُفتح وسيارة تدخل إلى الحوش وتقترب من مدخل الطابق السفلي. نزل منها مسلّحان. تفحّصا المكان جيّداً ثمّ أخرجا منها شاباً معصوب العينين مربوط اليدين. دفعاه بسرعة إلى المدخل ودخلا وراءه

ـ ولِمَ لم توقظيني لأرى؟

ـ الخوف شلّ لساني وأطرافي

ـ لعلّك واهمة. . لنقل أنّك واهمة. .

ـ لا لست واهمة.

ـ إن كنتِ غير واهمة صفي المخطوف. .

ـ كان نحيلاً طويل القامة. بني الشعر وله لحية. .

ـ لا أهمية لشكله على أيّ حال. . إنّه مخطوف وانتهى الأمر. ولِعلمنا بسرّ وجوده بيننا ثمن. وأيّ ثمن! إيّاك أن تذكري شيئاً لأحد وإلاّ كانت حياتنا هي الثمن.

ما بعد الفصول

عاد وعادت إليه.

غير آبهة بالمخاطر.

ولا إن كان رجوعه فخاً لاستدراجها. .أو إجراءً مؤقتاً ريثما تتمّ الصفقة. ما عاد لديها خيار. . فلوعة الفراق ولهفة اللقاء أكدت لها تفاهة الدنيا بدونه. وأكدت له استحالتها.

أكدت لها أنّها أحبّته من ذاك الحب الذي يعصف بالروح والبدن. ذاك الذي يوحد شتات الكيان ويرفعك إلى ملكوت الأعلى.

وعزمت على الفرار معه. نعم، لا بدّ من الرّحيل وإن بدا من ضروب المستحيل.

لا بدّ. . فغير جدير بالحب من يتراجع أمام هذه الضروب.

غير جدير مَن لا يُطلق فرسان روحه التوّاقة. .فُرسان خياله الجامح، تبتدع الحلول.

غير جدير من لا يندفع إلى الحياة على حدّ الهلاك.

أخبَرتْه أنها، في وقت قريب، ستأتيه بثياب القطن الخضراء التي يلبسها الجرّاحون في غرف الجراحة، وتأتيه بالكمّامة ليتنكر.

ـ ومتى يكون ذلك؟

ـ عند أوّل إشارة. غبّ وقوع المتفجرة القادمة أو في أتون القتال الآتي . .

ـ وماذا لو لم يقع شيء من هذا؟

ـ لا بدّ أن يقع. . فما مِن مؤشر إلى أنّ عصر المتفجرات والقتال، ذاك الظّلاميّ، قد انتهى.

وَلما جاءته بالملابس، راح يخلع زيّاً ويلبس زيّاً ويعتمر القبعة. . يفعل هذا واضطرابه لفقدان جنّته يضاهي خوفه من المغامرة. بعد قليل، تكون قد أنهتْ جولتها في الغرف والأروقة، ولفّت على الضحايا، ستدخل عليه هي أيضاً بلباسها الأخضر، والمستشفى قد تحوّل إلى مهرجان من الفوضى والدّم وامتلأ بالقتلى والجرحى، فيضع الكمّامة على فمه ويتأهب. .

هكذا في حمى بحث كلّ أحدٍ عن النجاة، يخرج وإيّاها فلا يُلاحظ خروجهما أحد.

لن يلاحظ أحد. . ولا حتى المسلّحين أو القائمين على أمن المستشفى.

إذ يلزم العناصر بعض الوقت لتكتمل ويُكتشف اختفاء الشاب وتدور معارك الاتهام. .

بعض الوقت. . قبل أن يُعثر على الأحجية المفقودة التي ستضج بها الصحافة. وتنشر، على مدى أسابيع، صوَر بطلتها ومقالات تمجّد سيرتها وتضحياتها وصمودها في العمل الإنساني الذي توّجته بإنقاذ رهينة بريء، مناضلٍ له باع في إغاثة المظلومين، ملأت نداءات أهله وأصدقائه ومنظمات العفو، صحف العالم. . بعض الوقت لتضج وسائل الإعلام بالسرّ الخرافي الذي لن يتمكن أحد من فك مغالقه: كيف نفذت البطلة إلى زنزانة يستحيل على خيوط النور أو غبار الريح النّفاذ إليها!

بعض الوقت.

أما الآن فالبطلان، في طريقهما إلى الفرار، يتخفّيان في كارنفال

الفوضى. ينعمان برحمة المتفجّرة. يتسلّلان وسط أشلائها من الزنزانة إلى المرات، ومنها إلى الطوابق والسلالم وصولاً إلى المدخل. ليغادرا من ثمّ باب المستشفى إلى السّيارة التي ستقلّهما إلى المطار: هي بجواز أصيل وهو بجواز مزوّر.

بعض الوقت لكشف ملابسات الحكاية التي ستثير مخيّلة الأدباء، والتي تضاهي، في غرابتها وسحرها وعناد أبطالها، ما يعبث في نفوسهم الجامحة من قصص..

الحكاية التي ستؤكّد لهم على أن الواقع للفانتازيا، هو المرجع وهو الينبوع وهو خزان الأسرار.

بعض الوقت.. فالبطلان الآن شرعا في رحلتهما التي تعثّرت طويلاً. رحلة النبلاء الأحرار. غيرهم النبلاء المقيمين، أسرى أوهامهم وممتلكاتهم وأسمائهم وكنى أجدادهم.

يلزمك وقت طويل لتبدأ رحلتك..

يلزمك رحلات كثيرة خائبة الأهداف لتذهب في رحلتك الحقيقية بلا هدف، حرّاً متخفّفاً من أثقالك.

الدّنيا هذه تأتيها بلا خيار إلاّ أنّها لا تدعك تمضي إلاّ وقد اخترت.

البارحة كان لها جلسة مع الزمن:

علّقت ساعته القديمة على الحائط

ونزعت أوراق الروزنامة وجلست تراجع الحسابات: كم زادت السنون وكم نقصت باتجاه اللقاء؟

كم زادت وكم نقصت لتبدأ مشوارها مع رجلها الأخير؟

رجلٍ لم يطلب منها سوى أن ترتدي فستانها الحرير الأبيض الطويل الذي تخاله لم يُقص بمقص ولم يُخط بإبرة. والذي يومذاك، لم يسألها سوى ذاك السؤال..إن كان فستانها من الحرير الصاخب أم الناعم؟

ـ عجباً! وَكيف يكون الحرير صاخباً؟ سألت.

ـ حرير دود القز وحده صاخب. أما سائر الحرائر فكلّها ناعمة.

هذا الذي سألَتْه أن ينتظرها قليلاً لتودّع أهلها وصحبها قبل الرحيل. وأن تُعرّج على صديقة لها.. لا تشبه كلّ الصديقات.

ـ لا بد أن تكون الآن في انتظاري لنضع اللمسة الأخيرة على مشروع بدأناه معاً. صديقة تركتْ الطب من أجل الدّراما. إذ لا شيء، كما تقول، أبلغ منها في تحويل الأفكار إلى مشاهد، أو إلى قصص تدور على اللسان وتعبر البلدان والأزمان.. لا بدّ من وداع هذه التي لا تفتأ تردّد أنها تدين لي بكل ما كتبتْ من قصص. كلّها، كما تقول، خرجت من حادثة قصصتها عليها. جرت لي ذات مساء في الساحة.. كلّها خرجت منها خروج القصص الرّوسي من رداء غوغول..

ـ لا تقلقي، قال، ولا لزوم للوداع. فالدروب في الرحلة أمامنا كلّها مباحة، والفرص متاحة، ومتى شئنا نقابل فيها مَن شئنا ومَن يشاء..



هَمَّت بالهرب لتجد المدخل مسدوداً بضلفة الباب المخلوع. ويُخيّل لها أن سلّم العمارة هو أيضاً قد دُكّ وهوى فظلّت العمارة معلّقةً في الفضاء بلا سلّم وقد بات عليها أن تجد بنفسها المخرج!

وتَذكُر أنها في تلك اللحظة، والمشهد صمت وباب مخلوع وعمارة بلا سلّم.. خطرت لها فكرة قتل الرجل.

وتَذكُر أنها ركضت إلى المطبخ وخطفت السكين ثم اندفعت إلى الصالة والرؤية لا تزال غائمة وسميكة. وخيّل لها.. أنها نزلت به من الخلف، كما في الأفلام، بالضربة تلو الضربة، والسكين لعجبها هش خفيف! كأنها لا تضرب في لحم وعظم بل في غبار العاصفة!

وتَذكُر أنه لـمّا في ما بعد.. تراءى لها الرجل مطروحاً على الأرض ألقت السكين ودفعت الباب المخلوع ولاذت بالفرار..

ISBN 1 85516 568 6

